شعر الرثاء والصراع السياسي والمذهبي

(١)

في صدر الإسلام

دكتور محمد أبو المجد على

كلية الدراسات العربية والإسلامية

جامعة القاهرة - فرع الفيوم

تقديم

الأستاذ الدكتور حسين منصور

أستاذ الأدب العربي

بكلية الآداب - جامعة الإسكندرية



بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الاولى

١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤ م

رقم الإيداع القانونى

٢١٧٧ / ٩٤

الترقيم الدولى 977-253-057-0

دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع

١ شارع منشا ـ محرم بك ـ اسكندرية

ت/٤٩٠١٩١٤

شعر الرثاء
والصراع السياسي والمذهبي

الإهداء

إلى أبى .. و أمى .. ورفيقة رحلتى

و إلى أستاذى الجليل :

الأستاذالدكتور سعيد حسين منصور

تقديراً ... وعرفاناً .



لَا يُكَلِّفُ
ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ
رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ
عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا
تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ
أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٨٦

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بقلم

الأستاذ الدكتور سعيد حسين منصور

أستاذ الأدب العربي

بكلية الآداب جامعة الإسكندرية

كان لابد للعقيدة الإسلامية الجديدة أن تخوض معترك الحياة السياسية والدينية منذ عهدها الأول .. ولم يتردد الرسول ﷺ من أن يلبى داعى الجهاد فى سبيل الله حين دعا داعى الجهاد .. وأراد الحق أن ينتصر على الباطل .. وصار للحق شهداء وللباطل أشلاء ومضى الزمن عبر صدر الإسلام ليخلف من ورائه المحنة الكبرى ، وما انتهت إليه هذه المحنة من انشقاق وما تولد عنها من صراعات ما كان للشعر أن يتخلف فيها عن ركب الحياة ولجتها العاتية وما ماجت به من تيارات سياسية ومذهبية متشابكة خلال العصر الأموى.

ومن بين أبواب الشعر فى هذا العصر كان لابد أن يفتح باب الرثاء على مصراعيه لتعبر منه قوافل الشعراء مهتزة بكل صور الصراع ، لا تكتفى برثاء الضحايا والبكاء على الأتباع ، وإنما تؤيد قوماً وتندد بآخرين ، وتعتنق فكراً سياسياً ومذهبياً يختلف ما بين أولئك وهؤلاء .. حاملة فى ثناياها ما كان يراه القوم من حقوق الإمامة وما استجد فى نظرهم من آفاق الجهاد ، وما انشعب فى سبيلهم من مسالك السياسة والعقيدة ، وما أدى إليه ذلك كله من أحداث جسام .

كان هذا هو الموضوع الذى أراد الدكتور / محمد أبو المجد على أن يشق طريقه فيه، ليتتبع حركة هذا الفن الشعرى وما صاحبها من تطور طوال هذه الفترة.. فلم يعد الرثاء تعبيراً عن الحزن والبكاء على نحو ما بكت الخنساء أخاها صخراً.. وإنما اتسع باتساع دائرة الحياة الإسلامية التى ضمت إلى الجزيرة العربية الأقطار المفتوحة وتعددت فيها بيئات الشعر والسياسة فى الحجاز والشام والعراق على ما كان بينها من خلاف واختلاف .. ومن هنا كانت دراسة شعر الرثاء خاصة ذات دلالات تدل على تطور الحياة الأدبية عامة خلال هذا العصر .. وهذا ما أثبتته الدراسة فى تحليلها لهذا الكم الهائل من النصوص الشعرية مما خلفه لناالصراع منذ عهد النبوة بين المسلمين فى جانب وبين كفار قريش واليهود والقبائل العربية كل بدوره - فى جانب آخر - من ألوان الرثاء.

ولما كان الموضوع بطبيعته متصلاً بالتاريخ العام وأحداثه السياسية كان من الطبيعى أيضاً أن ينتقل فى حركته من عصرالنبوة إلى عصر الخلفاء الراشدين ليمضى فى دراسة شعر الرثاء الذى لازم حروب الردة فى عهد أبى بكر وحركة الفتوحات فى العهود التالية.. وما تخلل ذلك من رثاء للنبى ﷺ والخلفاء من بعده .. وتوالت الأحداث بعد الفتنة ليجد شعر الرثاء نفسه وقد أحاطت به جموع الضحايا فى يوم الجمل وفى الصراع بين الإمام على ومعاوية وبينه وبين الخوارج .. وهوالصراع الذى وجه فى داخل الدولة الأموية تيار الحياة السياسية والمذهبية بكل ما دار بين الأمويين وبين الخوارج والعلويين والزبيريين وغيرهم من أحداث عرفت كيف تستقبلها بحيرة الرثاء بما انسكب فيها من دماء متأثرة ومؤثرة فى الوقت نفسه .

ولكن الدراسة التى نهض بها الدكتور/ محمد أبو المجد على ملتزماً فيها بالدقة والدأب لم تقتصر على شعر الرثاء فى جوانبه الموضوعية وحدها صاعداً مع الزمن تمشياً مع المنهج التاريخى فى دراسة النصوص ، وإنماتابع ذلك بوقفات تحليلية عند الظواهر الأدبية والخصائص الفنية ، واستطاع أن يتوصل إلى نتائج طيبة وأحكام علمية موفقة خلال دراسته للغة والصورة والخيال والموسيقى والأوزان وغيرها من جوانب الفن التى صاحبت غيرها من جوانب الفكر والموضوع .

وبذلك استطاع الدكتور محمد أبو المجد على أن يضيف ببحثه فى ميدان الأدب العربى فى العصر الإسلامى إضافةً علمية لها قدرها ولها أصالتها ولها رؤيتها فى الجمع بين التاريخ وبين الأدب والفن مع استيفاء مادة الدرس من مظانها ومصادرها .. مما يمثل جهداً أرجو أن تتوافر نظائره بين شباب الباحثين .. ولا يسعنى إلا أن أهنئه على هذا الجهد وهذه الإضافة وهى تخرج من دائرتها المخطوطة إلى دوائر النور بعد حصولها على درجة الدكتوراه فى الأدب العربى بمرتبة الشرف الأولى من قسم اللغة العربية بكلية الآداب جامعة الإسكندرية .. ويقينى أنها ستكون بإذن الله - باكورةً لبحوث علمية أصيلة يشهدها المستقبل القريب .

وعلى الله التوفيق ،،،

الإسكندرية فى

أول رمضان المبارك ١٤١٤ هـ

١١ من فبراير ١٩٩٤ م

سعيد حسين منصور

مقدمة

حبّب إليّ الرثاء منذ قرأت الخنساء وأبا ذؤيب ووجدت فى شعريهما وشعر غيرهما ممن شغفوا بهذا الموضوع وعرفوا به دون سواه ميلاً نحو التأمل الهادئ العميق فى الموت والحياة ومصير الإنسان والغاية من وجوده وخلقه والمثل التي ينبغى أن يتصف بها والأثر الذى يتركه من بعده ليدل عليه ويمنحه شيئاً من الخلود فى مواجهة الفناء ويبقى فى نفوس من يليه علامة ومنارة ومنهجاً .

وما وجدته فيه كذلك من الصدق ، والبعد عن الكلفة والزيف والتقليد الأعمى الذى يطمس معالم الشخصيةويحول بينها وبين التحليق فى أجواء التفرد والتميز والخصوص ، والتصاقهم بالذات ، والتفافهم حول همومها وقضاياها وطموحاتها وآمالها ومواجعها ومشاكلها . وكان يستهوينى على نحو خاص ذلك الجو الحزين الذى يغلف تجاربهم ويهيمن عليها هيمنة تعزف على أوتار القلب بعنف ، وتزيح ما عليه من الركام ، وتجلوه وتعيد صقله .

وقد دفعنى هذا الحب دفعاً لدراسة هذا الغرض فى شعرنا القديم ، بحثاً عما يميزه فى مراحله الأولى ، واستكشافاً للآفاق التي ارتادها ، وما طرأ عليه - فى مسيرته عبر الزمن - من التطور والتجديد .

ولما كان التحديد من سمات البحث العلمى التي لا ينبغى التغافل عنها فقد اخترت العصر الإسلامى بشقيه - صدرالإسلام ، والعصر الأموى - إطاراً زمنياً . وقد أغنتنا دراسات كثيرة متخصصة - منها دراسة الدكتور مصطفى عبد الشافى الشورى [1] - عن المرحلة الأولى ويمثلها العصر الجاهلى ، وآثرت عدم الوقوف على الصدر وحده - وقد اعتبره كثيرون مرحلة مستقلة - للحيف البالغ حين نقارن بين مرحلة لا يتجاوز عمرها

---

(١) شعرالرثاء في العصر الجاهلى - دراسة فنية - الدار الجامعية - بيروت سنة ١٩٨٣.

الزمني نصف قرن بمرحلة تمتد إلى قرنين أو قرن ونصف على أقل الاعتبارات ثم نطلق أحكاماً عامة تمس القضية الأم « الإسلام والشعر » فنردد مثلاً أن الشعر قد ضعف ولان في ظله ، مع أن المقارنة العادلة تقتضى أن نمد الفترة إلى نهاية العصر الأموى لتوازى المرحلة الأولى ، وحيئذ تظهر ملامح واضحة - لم تظهر فى الصدر وهويمثل فترة الاحتضان إلا على استحياء - يمكن في ضوئها استجلاء الأمر بشكل أكثر دقة وتصحيح مفاهيم خاطئة ظلمت الإسلام ظلماً بيّناً .

ولعل هذه الدراسة تسير في هذا الاتجاه الذى يهدف إلى تصحيح بعض المفاهيم الخاطئة وتضع نقاطاً فوق بعض الحروف ، وهو ما سعيت إليه منذ البداية حين مددت الفترة لتشمل العصرين معاً - دون أن أدمج بينهما دمجاً يزيل الملامح المميزة لكل عصر على حدة - للكشف عن أثر الإسلام فيهما . وقد استضأت فى هذا الجانب الهام بالدارسات الرائعة التى كتبها أستاذى الجليل الأستاذ الدكتور سعيد حسين منصور والتى يعتبرها أو يعتبر بعضها - وهي تأخذ بأيدينا نحو آفاق جديدة - تواضعاً منه مقدمات . وهى بحق دراسات رائدة ، أفدت منها كما أفاد منها كثيرون غيرى أيما إفادة . وعلى رأسها: «حركة الحياة الأدبية بين الجاهلية والإسلام» ، و « القيم الخلقية فى الخطابة العربية» ، و « رؤية جديدة فى دراسة الأدب العربى فى عصر صدر الإسلام »[1] .

ولماكانت الجدة هى الأساس والمرتكز الأول فيما يقدم من بحوث ودراسات لنيل درجة الدكتوراه فقد رأيتُ - وارتأى لى أستاذى - أن أقصر بحثى على الجانب الجديد دون سائر الجوانب المتعلقة بالرثاء ؛ أعني ذلك الجانب المرتبط بالصراعات السياسية والمذهبية (٢) ، والتي خلفت مايمكن تسميته . بالرثاء السياسي والمذهبي .

---

(١) وقد مد فيها نظريته بالنسبة لقضيةالصدر لتشمل الأدب بشقيه الشعر والنثر ، لا الشعر فحسب . وركز على الخطابة ، وأولاها كثيراً من عنايته . ودعم النظرية بالتطبيق . فكان اتجاهه - فى تلك الفترة الباكرة - شيئاً جديداً سار على هديه كثير من الباحثين .

(٢) فى اللسان مادة (سوس) : « والسوس : الرياسة ... وساس الأمر سياسة : قام به .وسَوَّسَه القوم جعلوه يسوسهم ، ويقال : سُوِّسَ فلان أمر بنى فلان أى كلف سياستهم... والسياسة : القيام على الشيء بمايصلحه » . وهذه المعاني تقترب= =

ويجيء هذا الكتاب حلقة أولى - أما الحلقة الثانية وهى الخاصة بالعصر الأموى فقد

== مع ما يفهم فى الاصطلاح من معنى السياسة فهى تقتضى كما يقول الدكتور أحمد الشايب « أن يكون هناك قوم لهم أمور ناشئة عن اجتماعهم يتولى تدبيرها رئيس نافذ الكلمة». الشعر السياسى ص ١. ولما كان الإسلام قد وحد بين المسلمين على اختلاف مشاربهم وأوجد لهم دولة بدأت - على اختلاف بين الباحثين - على عهد النبى ﷺ فى المدينة صغيرة ، ودخلت من أجل نموها واكتمالها فى صراع مع المشركين واليهود فى الداخل ثم مع الأمم المجاورة من روم وفرس وغيرهم فى حركة الفتح ، ولما كانت هذه الدولة تقوم على الدين أساساً - بل لم تقم إلا به - وتتصارع مع غيرها من أجله فقد آثرنا استخدام هذا المصطلح ، وقصدناإليه قصداً . وإذا كان الدكتور أحمد الشايب قد رأى فى الحروب والمنازعات القبلية التى قامت عليها الحياة في المجتمع الجاهلي قبل الإسلام أبعاداً سياسية؛ لأن القبيلة عنده صورة مصغرة من الدولة واعتبر بالتالي الشعر الصادر عن تلك الصراعات شعراً سياسياً ، حتى الذي لم يصورها بشكل مباشرلأنه اكتفى بالغاية من قوله وإنشائه والظروف والملابسات التى قيل فيها ، فإننا لا نكون قد باعدنا فى اعتبار ما دار بين المسلمين - وهم أصحاب دولة ناشئة لها دستورها ومبادؤها ورئيسها وأرضها وشعبها وتنظيماتها العسكرية والإدارية فى صورة تتفق والطور الأول من أطوار النشأة - والمشركين وعلى رأسهم قريش ، واليهود وغيرهم - وهم أصحاب نفوذ وهيمنة وعقيدة يصدرون عنها ومبادئ وأفكار يؤمنون بها ويدافعون عنها - صراعاً سياسياً فى شكل من أشكاله وصورة من صوره المختلفة . هذاعن الصدر ، أما بالنسبة للعصر الأموى فلا يختلف الباحثون - أو يكاد يتفقون - على أنه عصر السياسة ، على اعتبار أنها الصفة الغالبة على الأدب - شعراً ونثراً - فيه . وفيه تطورت الدولة ، ونمت الأحزاب التي ظهرت عقب الفتنة الكبرى ، وظهرت أحزاب أخرى جديدة، وبلغ الصراع أشده فى الداخل حتى صرفهم أو كاد عن الخارج وقلص من حركة المد والارتطام بالآخرين .

ولما كان هذا الصراع يأخذ صورتين ، إحداهماسياسية - تتعلق بالخلافة ونظام الحكم وما يستتبعهما من الصفات الواجب توافرها فى الإمام ومايوجه إليه وإلى رجاله فى سوس الرعية من نقد واختلاف وجهات النظر بين المؤيدين والمعارضين وتعدد سبل التعبير عن الرفض ونشوب المعارك والثورات ، والأخرى ذات طابع مذهبى - تتصل بالأفكار الدينية التى تصطبغ عند كل فرقة أو جماعة أو حزب بصبغة خاصة كتكفير أصحاب الكبائر والقول بالقدر أو الجبر والإرجاء والعصمة والولاية والتعطيل والتجسيم والحلول والنسخ - فقد آثرناالتمييز بين المصطلحين مع تسليمنا بأن بعض هذه الأفكار قد استغل سياسياً ، وأن الدين لم يكن ينفصل عن السياسة فى تلك العصور .

أفردنا لها كتاباً مستقلاً (١) - ويتوزع هذه الحلقة أربعة فصول وخاتمة ، الفصل الأول «عهد النبوة » وقد ارتكزت فيه على محاور ثلاثة درست خلالها الظاهرة فى الصراع بين المسلمين وكفار قريش ، وفى الصراع مع اليهود ، ثم في صراعهم - أعنى المسلمين - مع القبائل العربية الأخرى . والفصل الثاني « عهد الخلفاء الراشدين » فى حروب الردة ، وحركة الفتوحات ، وفى وفاة النبي ﷺ وخليفتيه العظيمين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما . وخصصت الفصل الثالث للفتنة ، نظراً لما لها من خطورة وأهمية ، ولكثرة مافيها من رثاء ، وتحول الصراع بين المسلمين أنفسهم بعد أن كان بينهم وبين غيرهم من الخصوم ، ثم ما خلفته تلك الفتنة من انقسامات وأوجدته من مذاهب وأحزاب سوف يكون لها شأن كبير في نهاية هذا العصر وفى العصر الذى سوف يليه . وقد تتبعت فى هذا الفصل الرثاء فى مقتل عثمان «رضى الله عنه» ، وفى الصراع بين على ومعاوية وأنصار كل منهما ، ثم فى الصراع بين علي والخوارج ، وجعلت الفصل الرابع للظواهر الأدبية والخصائص الفنية . وذيلت الكتاب بثبت تفصيلى عام للمصادر والمراجع التي أعانتنى في الوصول إلى تلك النتائج .

وكما فرضت طبيعة الموضوع تقسيم البحث على هذا النحو فقد فرضت كذلك المنهج ؛ وهو منهج تكاملي ، أو هو محصلة لمجموعة من المناهج المختلفة أوضحها المنهج التاريخى ، وقد أعانني كثيراً فى فهم الظروف والملابسات المؤثرة فى النص الأدبى - وخاصة الصراع السياسى والمذهبى مرتكزنا الأول و الرئيس - والمنهج الفنى ، فى تحليل هذه النصوص وتذوقها والإحساس بمافيها من جمال ، والمنهج النفسى الذي لا يغفل الدافع الفردى والفروق الذاتية بين الأشخاص وما تخلفه الصراعات وعوامل الكبت والقهر فى نفوس الشعراء .

ولا يفوتنى قبل الختام أن أشير إلى كتابين لعلهما أقرب الكتب إلى دراستنا . وهما «شعر الرثاء فى صدر الإسلام - دراسة موضوعية فنية » للدكتور مصطفى عبد الشافى الشورى ، و « الفرق الإسلامية فى الشعر الأموى » للدكتور النعمان القاضى . وقد أفدت

---

(١) لا يزال قيد الطبع .

منهما في حدود الإطار الذى حدداه لأنفسهما مجالاً للدراسة . وأولهما وإن كان خاصاً بالرثاء يكتفي بالصدر وحده ، ويدرس الرثاء بصفة عامة ، ويصب همه على الموضوع وإن وصف دراسته بأنها« دراسة موضوعية فنية » فقد تغافل الجانب الفنى تغافلاً واضحاً ، واكتفى ببعض الملاحظات المتناثرة فى ثنايا الصفحات ، وفى وريقات قليلة ذيل بها الكتاب تحت ما أسماه بـ « الرؤية والواقع » و« مقومات فنية » . ولعل هذه الدراسة نافلة لدراسته السابقة عن الرثاء فى العصر الجاهلى ، وهى التى أشرت إليها من قبل .

أما الدراسة الثانية فقد عنّى الباحث نفسه فيها بدراسة الفرق نفسها، تاريخها، ومعتقداتها وشعرائها، والموضوعات التى خاضوا فيها ومنها الرثاء . وهى - كما هو واضح من العنوان - خاصة بالعصر الأموى . وقد غلب عليه فيها المنهج التاريخى، فأفسح للتاريخ مجالاً يزيد فى تصورى عن حاجة البحث ، وأسلم نفسه - نتيجة الخطة التي ارتآها والمنهج الذي سار عليه - للحشد والتكرار والاهتمام كذلك بالموضوع على حساب الفن . وعلى الرغم من هذا فقد أفدت منهما - كما ذكرت - فائدة كبرى ؛ لاقتراب الدائرة التي يتحركان فيها مع دائرة بحثى وتداخلهما فيها فى بعض الأحيان .

كما لا يفوتنى أن أتوجه بكلمة شكر - لعلها أقل ما يجب - للفكر الذي وجه ، والقلب الذي احتضن ، والعين التي أحاطت ، والنفس العظيمة التي لم تمل وأخذت بيدى وأنا أحبو فحفظت على توازنى وشدت من أزرى حتى استقام العود وعلمتنى السير والصبر على المشاق . إلى الأستاذ الجليل والعالم الإنسان **الأستاذ الدكتور سعيد حسين منصور** الذى أشرف على هذا البحث وأحاطه بعنايته ورعايته منذ كان فكرة حتى اكتمل فى هذه الصفحات ، فدينى له أكبر من أن تفيه كلمة شكر وأعظم وأجل من كل ثناء . جزاه الله عنى ، عن كل من انتفع به وبارك فى علمه وأمد فى عمره وأثابه خير الثواب .

وأخيراً فكل مافى هذا البحث من توفيق أو سداد فالفضل فيه إلى الله عز وجل ثم إلى هذا العالم الجليل الذي لم يدخر جهداً فى الوصول به إلى ماوصل إليه . أما ما فيه من نقص أو زلل أوضعف -من نفسى ، وقد أبى الله ألا يكون الكمال لأحد سواه ، وحسبى

أنى اجتهدت وسعيت - بكل ما أوتيت - قدر ما استطعت وأخلصت - من قبل ومن بعد - النية لله وعليه قصدت السبيل .

* * *

الفصل الأول
عهد النبوة

- في الصراع بين المسلمين وكفار قريش .
- في الصـــــراع مع اليهـــــود .
- في الصراع مع القبائل العربية الأخرى .



فى الصراع بين المسلمين وكفار قريش

١ - بدأ الصراع بين المسلمين والكفار منذ أعلن النبى ﷺ دعوته وجهر بها فى مكة . غير أن المسلمين فى تلك الفترة كانوا هم الفئة القليلة المستضعفة ، ولم يأخذ الصراع شكلاً سياسياً منظماً إلا بعد الهجرة ؛ حيث صار للمسلمين دولة صغيرة في المدينة دستورها القرآن وقائدها النبي ﷺ وشعبها خليط من المهاجرين والأنصار الذين تآخوا في الله ونبذوا وراء ظهورهم تلك العصبية القديمة . وقد تجلى هذا الصراع فى غزوات عديدة ؛ منها غزوة بدر الكبرى وغزوة أحد وغزوة الخندق .

وكان الشعر وسيلة الإعلام الأولى ، وخاصة شعر الرثاء ، أثناء القتال وبعده ، بل لعل هذه المعارك هى التي أذكت شاعرية قريش ؛ حيث لم نكن نسمع عن شعراء لها قبل الإسلام (١) . وهي التي أوجدت مجموعة أخرى من الشعراء يدافعون عن الإسلام وينافحون عنه فى وجه شعراء مكة ، ويحملون لواء الدعوة ويبينون حقيقة الدين الجديد. فها هو ذا النبي ﷺ يدفع حسان بن ثابت إلى الدفاع عن الإسلام وعن أعراض المسلمين بالشعر دفعاً (٢) . وهاهو ذا يأمره بالذهاب إلى أبى بكر ليتعلم منه أنساب قريش فيفيد منها فى الهجاء وفى دفع الحجة بالحجة وفى استلال عرضه ﷺ وأعراض المهاجرين فلا

---

(١)علل ابن سلام قلة الشعر فى قريش قبل الإسلام بأنها لم تكن من القبائل المحاربة وأنها لم تدخل فى صراعات كتلك التي دخلتها سائر القبائل العربية الأخرى . طبقات فحول الشعراء ت . محمود شاكر (القاهرة سنة ١٩٧٤م) جـ ١ ، ص ٢١٧. وممن ربط بين ازدهار شاعرية قريش وصراعها مع المسلمين فى المدينة الدكتور أحمد الشايب فى كتابه : تاريخ الشعر السياسى ط ٥ (دار القلم بيروت سنة ١٩٧٦م) ص ٩٩ ،والدكتور سعيد حسين منصور فى كتابه : حركة الحياة الأدبية بين الجاهلية والإسلام (دار المعارف - القاهرة - سنة ١٩٧٦ م)ص ١٠١، ص ١٠٢ . والدكتور مصطفى عبد الشافى الشورى فى كتابه :شعر الرثاء فى صدر الإسلام ، ط ١ (دار المعارف القاهرة - سنة ١٩٨٦م) ص ١٠،١١ .

(٢) صحيح الجامع الصغير للسيوطى (المكتب الإسلامي - بيروت - بدون تاريخ) جـ ٢ ، ص ٢٠٩ ، ص ٣٣٩ .

ينالهم فيمن ينال [١] . وهاهو ذا يبارك شعره ويبرز أهميته فى النيل من الكفار [٢] . ولم يكن حسان وحده هو الذي يذود عن المسلمين في هذا الصراع ، وإنما كان معه مجموعة من شعراء الأنصار كعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك [٣] . وفى الحق أن صوت الأنصار كان هو المجلى فى الفترة الأولى من الصراع بين المسلمين وغيرهم . لا لصراع قديم بين مكة والمدينة ، ولا لعصبية قبلية بين الأوس والخزرج من ناحية وقريش من ناحية أخرى ، وإنما لأن الأنصار كانوا أصحاب شعر منذ الجاهلية وكانت لهم قدم راسخة فيه، وإن كنا لا ننكر دور هذه الاعتبارات فى إذكاء روح الشعر ، وكذلك إشفاق المهاجرين من الخوض فى أعراض قريش وهم منها بمثابة الفروع .

أما قريش فقد شاركها مجموعة من شعراء القبائل الأخرى ممن كانوا لا يزالون على الكفر كأمية بن أبي الصلت من ثقيف والعباس بن مرداس من بنى سليم وكعب بن زهير من مزينة ، وذلك لالتقاء المصالح . كما شاركها مجموعة من شعراء يهود خوفاً على سلطانهم الذي بدأ يزول منذ دخل الإسلام المدينة .

٢ – كانت غزوة بدر فى السنة الثانية للهجرة ، وهي أولى الغزوات التي خلفت لناشعرا فى الرثاء يبرز حركة الصراع السياسى بين المسلمين والكفار فى عهد النبوة . وطبيعى أن يكون لشعراء قريش ومن حالفها النصيب الأكبر من هذا الشعر ؛ فعلى قريش كانت الدائرة وفيها كثر القتلى وبخاصة من الأشراف ، وامتلأ القليب قليب بدر بصناديد الكفر وعلى رأسهم عمرو بن هشام [٤] .

---

(١) لذلك قال بعض القرشيين حين سمعوا هجاء حسان لهم : « إن هذا الشتم ما غاب عنه ابن أبي قحافة » . الأغانى (ط الدار) جـ ٤ ، ص ١٣٩ .

(٢) في رواية بكتاب البيان والتبيين للجاحظ ت . عبد السلام هارون ، جـ ١ ، ص ٢٧٣ يقول الرسول لحسان : « والله لشعرك أشد عليهم من وقع السهام في غبش الظلام » . ولإدراك النبى لأهمية الشعر فى هذا الصراع نهى ﷺ عن رواية شعر أمية بن أبي الصلب فى رثاء قتلى قريش . الأغانى (ط الدار) ، جـ ٤ ص ١٢٣ .

(٣) الأغانى (ط . الدار) ، جـ ٤ ، ص ١٣٨ .

(٤) فى كتاب السيرة لابن هشام .ت. مصطفى السقا وإبراهيم الإبيارى وعبد الحفيظ شلبى،=

بينماقل قتلى المسلمين ، وقل معهم الرثاء .

وقد أورد ابن إسحق شعراً كثيراً فى رثاء قتلى الفريقين . إلا أن بعض هذا الشعر ينسحب عليه الشك. وقد نبه ابن سلام إلى هذا (١) . لذا فسوف نلزم الحذر فيما سوف نعتمد عليه ، وسوف نأنس بما عقب به ابن هشام على كل قصيدة أو مقطوعة أو مجموعة من الأبيات . وهذا التعقيب يأخذ عدة مستويات ، فهو يقول أحياناً : « وبعض أهل العلم بالشعر ينكرها لـ..» ثم يذكر أحد الشعراء . ولعل هذا أقل درجات الشك عنده؛ لأن نفيها عن شاعر ما لا ينفى كونها لغيره من شعراء تلك الفترة وإن كان مجهولاً ، كما أن تصريحه بأن بعض أهل العلم ينكرها للشاعر المذكور يدل على أن هناك من العلماء بالشعر من يثبتها له ، وهى فى كلا الحالين صحيحة عندنا وإن جاءت فى درجة تالية للشعر الذى لم ينسحب عليه شك أصلاً. وأحياناً يقول : « وأكثرأهل العلم بالشعر ينكرها . .». فيزداد الشك فيها عما سبقها . أما أكثر درجات الشك - وهو ما استبعدناه من الدراسة ولم نعتمد عليه - فهو ما علق عليه بقوله : « ولم أر أحداً من أهل العلم بالشعر يعرفها .....». إذا انفرد بروايتها ابن إسحق ولم نجد لهامصدرا آخر من المصادر التي يعول عليها . ومن هذا القبيل قصيدة للحارث بن هشام فى قتلى بدر مطلعها :

«عَجِبتُ لأقوامٍ تَغنَّى سَفِيهُهُمْ   بأمْرِ سَفاهٍ ذِى اعْتِراضٍ وذِى بُطْلِ » .(٢)

يناقض فيها قصيدة لعلى بن أبى طالب . وقد علق عليها ابن هشام بقوله : « ولم أر أحداً من أهل العلم بالشعر يعرفها ولا نقيضتها وإنما كتبناهما لأنه يقال إن عمرو بن عبد الله بن جدعان قُتِلَ يوم بدر ولم يذكره ابن إسحق فى القتلى وذكره فى هذا الشعر » .

و على الرغم من استبعادنا لمثل هذا الشعر فقد أفدنا منه فى تفهم بعض جوانب

= ط ٢ (مكتبة مصطفى البابى الحلبى - القاهرة سنة ١٩٥٥ م) المجلد الأول ، ص ٧٠٨ : ص ٧١٥ قائمة بأسماء القتلى .

(١) طبقات فحول الشعراء ت . محمود محمد شاكر ، ص ٧ ، ص ٨ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ، المجلد الثانى ، ص ١٢.

الصراع ؛ لأنه مهما كان منحولاً فإن صاحبه يحاول أن يقلد به الشعر الصحيح ليقبل ويشيع ولا ينكشف ما به من زيف . إلا أن هذا الإفادة كانت - كماسبق أن ألحت - فى حدود ضيقة أو فى أقل نطاق .

٣ - وممن رثاهم شعراء قريش يوم بدر الحكم بن هشام .ولم يقفوافى رثائهم له على الندب والبكاء وإنماأبنوه بأبيات كثيرة ، خلعوا فيها عليه من صفات المروءة والبطولة مالم تحفل به كتب التاريخ أوتثبته ، بل أثبتت نقيضه . ولا يعنينا هناصحةإثبات هذه الصفات أونفيها عنه ،وإنما يعنينا أن نسجل أن بعض الشعراء حاولوا رسم صورة مثالية له بعد موته لمكانته فى قريش ، وكأنهم بهذه القصائد والمقطوعات يخلدونه أو ينحتون تمثالاً له على طريقتهم ؛ ليبقى فى القلوب ما بقى الكفر .

وممن رثوه ضرار بن الخطاب ، وفيه يقول :

« ألا مَنْ لِعَينٍ باتَتِ الليلَ لم تَنَمْ ... تُراقِبُ نَجْماً فى سَوادٍ مِنَ الظُّلَمْ

كأنَّ قَذًى فيها وليسَ بها قَذًى ... سِوَى عَبْرَةٍ من جائلِ الدَّمْعِ تَنْسجِمْ »(١).

فهويبدؤها بهذه البداية الحزينة التي تنم عن مدى ما أصابه وأصاب قريشا من الهزيمة والفقد ،خاصة عندما يكون الفقيد هوالرئيس أبا الحكم خير رجالها فى المجالس وأكرم من يمشى بينها . لقد ثوى يوم بدر فى بئر ضيقة ،وسيظل رهيناً بها لايجد من يخلصه أويدفع عنه الموت ، إلا أنه قد مات - فى تصوره - كريماً غير دنيء ولا بخيل :

« فبَلِّغْ قريشاً أنَّ خيرَ نديِّها ... وأكرَمَ مَن يَمشى بِساقٍ على قَدَمْ

ثَوَى يومَ بدرٍ رَهْنَ خَوْصاءَ رَهْنُها ... كريمُ المساعِي غيرَ وَغْدٍ ولا بَرَمْ

فآلَيتُ لا تنفكُّ عَينِى بِعَبْرَةٍ ... على هالكٍ بعدَ الرَّئيسِ أبى الحكَمْ

على هالكٍ أشجَى لُؤَىَّ بنَ غالِبٍ ... أتتهُ المنايا يومَ بدرٍ فَلَمْ يَرِمْ » .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام - المجلد الثاني - ، ص ٢٧ ، ص ٢٨ .

ثم يستمر فى ندبه وتأبينه . وهو لا يخرج في تأبينه له عما تعارف عليه أهل الجاهلية من وصف القتلى بـأطيب الخلال ؛ فهـو، بالإضافة إلى مـا مر ، شجـاع يقدم على الموت غيرهياب ، مهما تكاثرت حوله السيوف أوأحاطت به الرماح ،فهذه آثار الرماح فى نحر مهـره تدل على الإقدام لا الإحجـام وهوأجرأ من ليث ببطن بيـشة يتحـرك في مملكته بين الماء والأشجـار كيفـمايشـاء ، ثم ينصح آل المغيـرة بالصبر والجلد ، فـإن موته فى سـبيل نصرة قريش هوعز لهم مدى الدهر ، وسوف يرفعهم على كل البطون .

ويرثى بجير بن عـبد الله القشيرى أبا جـهل بأبيات اختُلِفَ في نسبتـها إليه وإلى أبى بكر شداد بن الأسـود الليثى المعروف بابن شـعوب ، كمـا اختُلِفَ في عددها وترتيبـها . وهو يبدؤها برثاء أبيه هشام بن المغيرة « وكان شريفاً مذكوراً وزعمـوا أن قريشاً كانت تؤرخ بموته تقول : عام مات هشام » . (١) ثم يذكر أبا جهل وكيف أنه كان أمل قريش فى الملمـات ، وكيف كان مـأمناً للضعـفاء وملاذاً للخائفين ، وكيف أن بنى المغيـرة قد أصيبوا بفقـده وأنهم ودوا لو افتدوه بألف من الرجـال أوالسوام . ثم يتـخذ من ذلك كله عذراً لإقبـاله على الخمر وانغـماسـه فيهـا وكأنه بذلك يصـور ما وصلوا إليـه من يأس أو ضياع :

«ذَرِينـى أَصْطَبِحْ يـا هنـدُ إنِّي ... رأيتُ الدهـرَ نَقَّبَ عن هشـام
تَيَمَّمَهُ ولـمْ يَطلُبْ سِواه ... ونِعمَ المَرءُ مِن رَجُلٍ تَهـام
وعن عمـرو وعمـرو كان قِدْماً ... يُؤَمَّلُ للمُلِمّـاتِ العِظـام
وكنتُ إذا أُلاقيـه كـأنّي ... إلى حَرَمٍ وفي شـهرٍ حَـرام
فَوَدَّ بنـو المغيـرَة لـو فَدَوْهُ ... بألفٍ مِن رجـالٍ أوسَوام
فـإنَّكِ لو شَهِدْتِ أبا عَقيـلٍ ... وأصحـابَ الثَّنِيَّةِ مِن نَقـام
إذاً لَحَمَدْتِني أوْ لـم تَلومـي ... على كـأسٍ أَشُدُّ بهـا عِظامي»(٢)

(١) نسب قريش للمصعب الزبيرى ت . ليفى بروفنسال ، ط ٣ (دار المعارف ـ القاهرة سنة ١٩٨٢م) ص٣٠١ .

(٢) الوحـشيـات لأبى تمام ـ ت . عـبد العزيز الميـمنى ط ١ (دار المعـارف ـ القـاهرة سنة١٩٦٣م) ص ٢٥٧.

ومثل هـذه الحال التي يصورها بجير فـي آخر الأبيات نجدها عند الحارث بـن هشام عندما يقول في رثاء أخيه - وهي من الأبيات التي أنكرها بعض أهل العلم له - :

« ألا يا لَهفَ نَفسِي بعد عـمـرو	وهـل يُغنى التلـهُّفُ من قتيل
يخبـرني المُخبر أن عـمـرا	أمـام القـوم فِى جفر مجيل
فـقدمـاً كنتُ أحسبُ ذاكَ حـقًا	وأنتَ لِمـا تَقـدّمْ غـيـر فيل
وكنتُ بنعمَةٍ مـا دُمتَ حـيًا	فـقـد خُلِّفتُ فى دَرَج المَسِيل
كـأني حين أُمـسِي لا أراهُ	ضَعِـيـفُ العقد ذو هم طويل
على عـمـرو إذا أمسيتُ يومـاً	وطَرْفٍ مِن تذكُّرِه كَلِيـل »(١)

٤ - وفى بكاء قتلى بدر من قريش يقول أبو بكر بن الأسود بن شعوب الليثى :

« تُحيِّى بالسَّلامةِ أمُّ بكـر وهلْ لِى بعدَ قومى مِن سَلامِ » ؟(٢).

فكأنه بفـقده لهـم فقد الإحسـاس بالأمـان ، وهو الأثر المباشـر للهـزيمة ، لافى نفسـه فحسب بل فى نفـوس قريش كلهـا ، ثم يعدد مـا بالقليب من القيـان - وكن قد خـرجن خلف الرجـال يحرضنهم - ومن أصـحاب الشراب والطعـام والعطايا العظيمـة والهـمم الكبيرة :

« فماذا بالقَليبِ قَلِيبِ بـدرٍ	مِنَ القَيْناتِ والشَّرْبِ الكـرام
وماذا بالقَلِيبِ قليبِ بـدرٍ	من الشِّيزَى تُكَلَّلُ بالسَّنـام
وكـم لَكِ بالطَّوِيِّ طَوِيِّ بـدرٍ	من الحَوماتِ والنَّعَمِ المُسـام
وكم لَكِ بالطَّوِيِّ طَوِيِّ بـدرٍ	من الغاياتِ والدُّسَعِ العِظـام » ؟

ثم يذكـر فى آخر الآبيـات البعث والنشـور ساخراً ، ويكذب بهـما ، ويستنكر أن تكون هناك حياة بعد هذه الحياة :

« يُخَبِّرُنا الرَّسولُ بأنْ سنحيا وكيفَ حياةُ أصداءٍ وهامِ » ؟

وهو يقر مـا كانت عليه الوثنية من إنكار للبعث ومن إيمان بوجود الهـام ، وهوطائر

(١) السيرة النبوية لابن هشام - المجلد الثانى ، ص ٢٨ .
(٢) المصدر نفسه ص ٢٩ .

تزعم العرب أنه يخرج من رأس القتيل يقول اسقونى اسقونى ، فلا يزال يصيح حتى يُثأر له . وقد استدل بعض الباحثين بهذا البيت على أن قريشاً وشعراءها كانوا يتعرفون على مبادئ الإسلام وعقائده ليردوا على شعراء المسلمين (٢).

والأمر لا يعدو- فى رأيى - أن يكون مجرد معرفة طارئة بالأفكار العامة التى جاء بها الإسلام أو يكون الرجل قد أسلم ثم ارتد كما ذكر ابن هشام (٢) .

أما ابن الزبعرى السهمي فقد عدد فى أبيات تروى له وللأعشى بن زرارة بن النباش أسماء بعض من قتل فى بدر من صناديد قريش ، ووصفهم بأنهم فتية بيض الوجوه كرام . ومن هؤلاء الفتية نبيه ومنبه ابنا ربيعة ، والحارث ، والعاصى بن منبه . وعلى رأس هؤلاء جميعاً الرئيس الماجد - على حد تعبيره - الحكم بن هشام . (٣)

وأما ضرار بن الخطاب فيعجب من فخر الأوس بانتصار المسلمين على قريش وهم يعلمون أن الحين يدور ، وقد يدور عليهم غداً ، وكذا بنو النجار ، وكأن المسألة فى تصوره مسألة قبائل ، أو كأن الصراع فى رأيه صراع قبلى لا يختلف فى شيء عن صراعات الجاهلية :

« عَجِبْتُ لفَخرِ الأوسِ والحَيْنُ دائرٌ   عليهمْ غداً والدَّهْرُ فيهِ بصائرُ

وفخرِ بَنِي النَّجارِ إنْ كان مَعْشَرٌ   أُصِيبوا ببدرٍ كُلُّهمْ ثَمَّ صابِرُ » (٤)

ويتوعد المسلمين بالثأر ، فسوف تهبط بفرسان قريش خيول عتاق قصيرة الشعر طويلة سريعة بين الأوس وبنى النجار حتى يشفى الغليل وتنتشر القتلى من المسلمين

---

(١) د . مصطفى عبد الشافى الشورى فى كتابه : « شعر الرثاء فى صدر الإسلام» ط ١ ، (دار المعارف القاهرة سنة ١٩٨٦ م) ص ١٧، ١٨ .

(٢) السيرة النبوية ، المجلد الثاني ، ص ٢٩ .

(٣) شعر عبد الله بن الزبعرى ت . د . يحيى الجبورى ط ٣ (مؤسسة الرسالة - بيروت سنة ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م) ص ٤٦ ، ٤٧ .

(٤) السيرة النبوية - المجلد الثانى ، ص ١٣ ، ص ١٤ .

طعاماً للطير ولا يبقى لهم غير الأماني الكاذبة ، والبكاء الطويل :

« فإنْ تكُ قَتْلَى غُودِرَتْ مِن رِجالِنا فــإنّا رِجـــالٌ بعدَهم سنغادِرُ
وتَرْدِى بِنا الجُرْدُ العَناجِيجُ وَسْطَكُم بَنِى الأوسِ حتَّى يَشفِيَ النَّفْسَ ثائرُ
ووَسْطَ بَنِى النَّجارِ سوفَ نَـكُرُّها لــها بالقَنا والــدَّارِعِينَ زَوافِرُ
فنَتْرُكُ صَرْعَى تَعصِبُ الطَّيرُ حولَهـم وليسَ لهُم إلا الأمـــانِيُّ ناصِرُ.
وتَبْكِيهِمُ مِن أهلِ يَثرِبَ نِســـوةٌ لهنَّ بِها لَيْــلٌ عنِ النَّومِ ساهِرُ ».

وذلك أن قريشاً لا تزال قوية على الرغم من الهزيمة . وهى إشارة لها مغزاها ، أوهى الحرب النفسية الباردة :

« وذلك أنَّا لا تزالُ ســـُـيوفُنا بهنَّ دَمٌ مِمـــَّـنْ يُحارِبنَ مائِرُ » .

ثم يذكر أن ما كان للمسلمين من انتصار إنما يرجع إلى وجود فئة من قريش بينهم وهم المهاجرون وعلى رأسهم النبى ﷺ - وإن لم يعترف بنبوته - وأبو بكر وحمزة وعلي وعمر وعثمان وسعد . وكأن المسألة كما قلت منذ البداية مسألة قبلية ، وهى كذلك بالفعل عنده ؛ لأنه كان لا يزال على الكفر وقد شب على تلك العصبية التى أعمته عن رؤية الحق الواضح الجلي ، وهو أن هؤلاء الذين يقاتلونهم إنما يقاتلونهم على هذا الدين الجديد.

وهذه الأبيات وما يشابهها تدل على أن قريشاً كانت - بفعل العصبية - تخفف من غلوائها فى الهجوم على المهاجرين ، وتصب جام سخطها على سائر المسلمين من غير قريش .

٥ - وتستوقفنا أبيات للأسود بن المطلب يبكى فيها أولاده الثلاثة زمعة وعقيلاً والحارث وقد قتلوا جميعاً يوم بدر ؛ فقد حَرَّمَتْ قريش النوح على القتلى - ويبدو أن هذا التحريم كان فى أول الأمرحتى لا يشمت المسلمون بهم - فسمع امرأة تنوح بالليل « فقال لغلام له وقد ذهب بصره انظرهل أحل النحب ؟ هل بكت قريش على قتلاها ؟ لعلى أبكى على أبى حكيمة - يعني زمعة - فإن جوفى قد احترق . قال : فلما رجع إليه الغلام

قال إنما هي امرأة تبكي على بعير لها أضلته . قال فذاك حين يقول الأسود :

أتبـــكي أنْ يَضِلَّ لها بَعيرٌ ويمنعُهـــــا مِن النَّوم السُّهودُ
فلا تَبْكِي على بكْرٍ ولكـنْ على بدرٍ تَقاصَرَتِ الجُـــدودُ

....

ألا قدْ سادَ بَعْدَهُم رِجالٌ ولولا يومُ بدرٍ لمْ يَسودُوا » (١) .

وهو يشير إلى انقلاب الموازين بعد بدر وهزيمة قريش ؛ فقد ارتفعت كفة المسلمين وصاروا سادة ، ولولا بدر لم يسودوا كما يقول . وهو أول بيت لكافر يحمل هذه الإشارة الصريحة ، ويلمس فى وضوح أهمية بدر فى تاريخ دولة المسلمين الناشئة وأثرها فى زوال أو بداية الزوال لهيمنة الوثنية وسيادة كفار قريش .

٦ — وممن شارك قريشا فى رثاء قتلاها يوم بدر أمية بن أبى الصلت شاعر ثقيف . وقد أورد له صاحب السيرة قصيدتين الأولى فى سبعة أبيات يبكى فيها زمعة بن الأسود وقتلى بنى أسد (٢) . وهى لا تخرج فى معانيها عن الإطار الذى يتحرك فيه شعراء الرثاء التقليديون من ذكر البكاء وتعداد القتلى وبيان منزلتهم وصفاتهم فى صورة أشبه بالفخر . وكأنه يبغى من وراء ذلك أن يبين عظم المصاب . والثانية فى إحدى وثلاثين بيتاً حائية ، يبدؤها كذلك بالبكاء ثم يتساءل عن هؤلاء القتلى من السادة الرؤساء شمطاً وشباناً ، وكيف امتلأت بهم أرض المدينة وانتشرت جثثهم فى الآبار والوديان وكيف تغيرت مكة بعدهم فصارت أشبه ما تكون بالأرض الخراب .

« ماذا ببدرٍ فالعقَنْـــــــــــ ـــــــــقَلِ مِن مَرازبَةٍ جَحاجِـحْ

(١) السيرة النبوية ـ المجلد الأول ، ص ٦٤٨ . شرح الحماسة للتبريزى ـ ت. محمد محيى الدين عبد الحميد (المكتبة التجارية الكبرى ـ القاهرة سنة ١٣٥٧ هـ / ١٩٣٨م) جـ ٢ ، ص ٣٤٠ ، ص ٣٤١ . الأغانى (ط . الدار) جـ ٤ ، ص ٢٠٩ مع اختلاف فى بعض الألفاظ.

(٢) السيرة النبوية المجلد الثانى ص ٣٣/ نسب قريش ص ٢٠٦ مع اختلاف فى عدد الأبيات وترتيبها وبعض الألفاظ .ولم أجدها فى ديوانه (ط . ليبزج سنة ١٩١١م) .

فمَدَافع البَرْقَين فالحَنَّـــــــــــان مِن طَرَفِ الأواشــــحْ
شُمْطٍ وشُبَّانٍ بَهـــــــا   ليـــلٍ مَغاويــرٍ وَحــاوحْ
ألا ترونَ لمـــــا أرى   ولقد أبانَ لكــلٌ لامـــحْ
أن قد تَغَيَّرَ بَطنُ مكَّــــــــة فَهْيَ مُوحِشـــةُ الأباطحْ
مِن كلِّ بِطْريقٍ لبطــــــــريقٍ نَقِيُّ اللـــونِ واضــــحْ
دُعْمُوصِ أبـــواب المُلُو   ك وجائبٍ للخَـرْقِ فاتحْ (١).

وهو يستعير هنا لقبين من ألقاب القيادة التي كان يعرفها العرب لرؤساء الفرس والروم، « المرازبة» جمع مرزبان ، و« بطريق »، ويخلعهما على رؤساء قريش ، إيهاماً بقوتهم ، أو بياناً لما كانت عليه جيوشهم من التعبئة والنظام . ثم يمضى فى سرد صفات هؤلاء القتلى فى حالى السلم والحرب ، ويشير فى البيت الأخير إلى خيانة لا نعرف حقيقتها تمثلت فى خذلان فئة ـ ربما من قريش ـ لقريش ، ويعزى إليها الهزيمة أويعتبرها أحد أسبابها:

« خَذَلَتْهُمُ فِئةٌ وهـــــمْ   يَحْمُونَ عَـوراتِ الفَضائحْ» .

٧ – وكما بكى القرشيون قتلاهم يوم بدر رثى حسان وكعب وطالب قتلى المسلمين . إلا أن ما قيل من رثاء فى هؤلاء القتلى أقل بكثير مما قيل من رثاء فى قتلى قريش . وهذا راجع ـ كما سبق أن ذكرت ـ إلى قلة عدد القتلى من ناحية (٢) ، وإلى النصر الكبير الذي حققوه والذى غطت حلاوته على هذا الحزن حتى أنستهم أوكادت تنسيهم إياه .

---

(١) السيرة م ٢ ص ٣٠ والعقد الفريد جـ ٣ ص ٣٠٠ : ص ٣٠٢ . وهذه القصيدة كسابقتها لم ترد فى ديوان أمية المطبوع بـ « ليبزج » سنة ١٩١١ م وقد أشار إليها أبو الفرج وأورد البيت الأول منها بالأغانى (ط ـ الدار) جـ ٤ ، ص ١٢٢ .

(٢) وكانوا كما ذكر ابن إسحق (السيرة النبوية ـ المجلد الثانى ص ٧٠٦ ـ ص ٧٠٨) أربعة عشر شهيداً ؛ ستة من قريش وثمانية من الأنصار . سماهم ونسبهم إلى بطونهم .

ويقابلنا أول ما يقابلنا رثاء كعب بن مالك لعبيدة بن الحارث (١) ، وهو رثاء تقليدى ،يطلب فيه من عينيه أن تجودا بالدموع وألا تكفا عن البكاء على ذلك السيد الذي هد المسلمين هلكه ، فقد كان كريم المشاهد والعنصر ، جرىء المقدم ، شاكى السلاح .

وعبيدة هذا هو الذى تصدى مع حمزة وعلىّ لعتبة وشيبة والوليد حين دعوا للمبارزة قبل القتال . وقد قطعت رجله أثناء المبارزة ، وعاش قليلاً بعدها ، ثم مات . وحفظت لنا سيرة ابن إسحق عشرة أبيات طريفة رثى فيها رجله ، واستغل رثاءه لها فى رصد بعض الأحداث ، وتوعدِ قريش ، وبيان الغاية من القتال :

« ستَبْلُغُ عنَّا أهلَ مكَّةَ وقعَةٌ   يَهُبُّ لها مَن كان عن ذاك نائيا

بعُتْبــةَ إذ ولَّى وشَيْبَةَ بَعدَهُ   وما كان فيها بِكْرُ عُتْبَةَ راضيا» (٢) .

وفيها يحتسب رجله عند الله ،ويرجو أن يبدله بها الجنة؛ لينعم بالعيش عيش الآخرة مع الحور أمثال التماثيل:

« فإنْ تَقْطعوا رِجلى فإنِّى مُسلِمٌ   أُرَجِّي بها عَيْشاً مِن اللَّهِ دانيا

مع الحُورِ أمثالِ التماثيــل أُخْلِقتْ   مع الجَنَّةِ العليا لمنْ كان عاليا».

وهى معان جديدة على شعر الرثاء دخلته فى ظل الإسلام . ويفخر فى الجزء التالي بنعمة الإسلام إذا غطى بهالرحمن على كل عيوبه ولعله يعنى ما كان منه فى الجاهلية :

« وبعْتُ بها عَيْشاً تَعرَّقْتُ صَفْوَهُ   وعالَجْتُهُ حتَّى فقَــدْتُ الأدانيــا

فأكرَمَنى الرَّحمنُ مِن فَضْلِ مَنّــهِ   بِثَوْبٍ من الإسلامِ غَطَّى المَساويا » .

ويبين مدى استجابته وحبه للجهاد فى سبيل الله ولو كلفه قتال الأدنين من العشيرة ويعرض طرفاً من المبارزة التي سبقت المعركة وفقد خلالها رجله :

« وما كان مكروهاً إلىَّ قِتالُهــمْ   غَداةَ دَعا الأكفـاءَ مَن كــان داعِيا

---

(١) ديوان كعب بن مالك الأنصارى . ت سامى مكى العانى ، ط ١ (مكتبة النهضة - بغداد سنة ١٣٨٦ هـ / سنة ١٩٦٦ م) ص ٢٠٢ .

(٢) السيرة النبوية المجلد الثانى ، ص ٢٣ .

ولم يبغ إذ سالُوا النبىَّ سواءَنا | ثلاثَتَنا حتّى حَضـرْنا المُنـاديا
لقيناهُمُ كالأسْدِ تَخطِرُ بالقَنا | نـقاتِلُ في الرَّحمنِ مَن كان عاصيا
فما بَرِحَتْ أقدامُنا مِن مَقامِنا | ثلاثَتَنا حتّى أُزِيرُوا المَنائيـا ».

٨ – ويبكى حسان قتلى بدر ، ويتذكر أصحابه فيها ، ومنهم نفيع ورافع وسعد . ويؤكد فى رثائه لهم على المعانى الدينية الجديدة ، من الإيمان بالقدر ، والأجل المحدود ، والجنة وما فيها من نعيم :

« ألا يا لِقَومٍ هل لما حُمَّ دافـعُ | وهل ما مضى مِن صالح العَيْشِ راجعُ
تَذكَّرتُ عَصْراً قد مضـى فتهافتتْ | بَنـاتُ الحَشـا وانْهَلَّ منّى المَدامعُ
صَبـابةَ وَجْدٍ ذَكَّرَتْنِى أحِبَّـةً | وقتْلَى مَضَـوا فِيهِمْ نُفَيْعٌ ورافـعُ
وسَعْدٌ فأَضْحَوا فى الجِنانِ وأَوْحَشتْ | مَنـازِلُهمْ والأرضُ مِنهُم بَلاقعُ » . (١)

ويشير إلى ما كان يوم بدر من شدة القتال ، ووفاء هؤلاء القتلى للرسول ﷺ وإجابتهم إياه وطاعتهم له :

« وفَوْا يومَ بَدرٍ للرَّسُولِ وفَوقَهم | ظِلالُ المَنايا والسُّيوفُ اللَّوامعُ
دَعا فأَجابُوهُ بحَـقٍّ وكلُّهُم | مُطِيعٌ له فى كلِّ أَمْرٍ وسامِعُ » .

ولعل هؤلاء الشهداء قد أعطوا صورة رائعة لما ينبغى أن تكون عليه حال المسلم مع النبي ﷺ من وجوب الطاعة والامتثال حتى لو عرضه ذلك للموت ؛ فالموت قدر ، ولكل أجل كتاب والملك لله وحده ، والله يفعل ما يشاء ، وهم بهذا الامتثال يرجون الشفاعة يوم الحساب :

« فما بَدَّلُوا حتَى تُوافَوْا جَماعةً | ولا يقطعُ الآجالَ إلاَّ المَصـارِعُ
لأنَّهُمُ يَرْجونَ منهُ شَفـاعةً | إذا لم يكنْ إلاَّ النَّبِيِّين شـافِعُ
وذلك يا خيرَ العِبادِ بَلاؤُنـا | ومَشهَدُنا فى اللّهِ و الموتُ ناقعُ

---

(١) ديوان حسان بن ثابت.د.سيد حنفى حسنين(دار المعارف ـ القاهرة سنة١٩٨٣م)ص٢٤١

لنا القَدَمُ الأولى إليك وخَلْفُنا لأوَّلنا في طاعةِ اللّهِ تابع

وتعلمُ أنَّ المُلْكَ للّهِ وحدَه وأنَّ قَضاءَ اللّهِ لابُدَّ واقعُ » .

وربما كانت هذه القصيدة مما نظمه حسان فى فترة متأخرة ؛ لأنه يصدرها بقوله : «تذكرت » والتذكر لا يكون إلا بعد فترة ـ قد تطول ـ من النسيان،ولأنها مليئة بالمعاني الدينية التى رسخت فى نفس حسان والتى تحتاج إلى فترة طويلة حتى ترسخ وتستقر .

٩ - ولطالب بن أبي طالب قصيدةيمدح فيها النبى ﷺ ويبكى فى الوقت نفسه بعض بطون قريش ، ويتحسر على مآآل إليه أمر هذه القبيلة :

« ألاإنَّ عَينِى أنفدَتْ دَمْعَها سَكْباً تُبكّى على كَعْبٍ وما إنْ تَرى كَعْبا

ألا إن كَعْباً فى الحُروبِ تَخاذلُوا وأرْداهُم ذا الدَّهْرُ واجْتَرَحُوا ذَنْبا

وعامِرُ تَبْكِى للمُلِماتِ غُدْوَةً فَياليتَ شِعْرى هل أرَى لهما قُرْبا

هُما أخَواىَ لن يُعَدَّا لغيَّةٍ تُعَدُّ ولن يُسْتامَ جارُهُما غَصبْا » (١) .

وفيها يدعو إلى السلام ، وألا يكون بين هذه البطون قتال ؛ لأن هذا القتال لن يكون فى صالح القبيلة الأم ؛ قبيلة قريش ،ويذكرهم بما كان فى حرب داحس والغبراء ،وجيش أبرهة الحبشى :

« فيا أخَوَيْنا عبدَ شَمْسٍ ونَوْفَلا فِدًا لكما لا تَبْعثُوا بيننا حَرْبا

ولا تُصْبِحُوا من بعدِ وُدٍّ وأُلْفَةٍ أحاديثَ فيها كلُّكُمْ يَشتكى النَّكْبا

ألمْ تَعْلَمُوا ماكان فى حَرْبِ داحِسٍ وجَيْشِ أبِى يكْسُومَ إذ مَلَئُوا الشِّعْبا» ؟

ولعلها أول دعوة للسلام فى شعر تلك الفترة ، إلا أنها صدرت عن عصبية لقريش ، ولم تصدر عن روح الإسلام ؛ لأنه فى الوقت الذى يدعو فيه إلى السلام بين بطون قريش من المسلمين والكفار يحرض على قتال الخزرج شد ما يكون القتال :

---

(١) السيرة النبوية ،المجلد الثانى ص ٢٦ .

« فواللهِ لا تنفكُّ نَفْسِي حَزِينَــةً   تَمَلْمَلُ حتّى تَصْدُقوا الخزرجَ الضَّرْبا » .

والحقيقة أن موقف طالب كان شديد الحساسية ؛ فهو مسلم من ناحية ، ولم يستطع أن يتخلص من ولائه لقريش أومن عصبيته القديمة من ناحية أخرى . أوهو كما يقول الشايب : « محرج بين النزعة القرشية العامة فى وجه الأنصار ، وبين العاطفة الهاشمية الخاصة فى وجه قريش ، لذلك كان شعره معقد الوضع غير صريح الاتجاه .» (١) .

١٠ – وفى أحد رثى المسلمون قتلاهم رثاء حاراً وبخاصة حمزة بن عبد المطلب عم النبى ﷺ ، فلا تكاد قصيدة أو مقطوعة تخلو من ذكره ، فضلاً عما خُصَّ به وحده . وقد رُوى أن النبي ﷺ قال عندما بكت النساء فى المدينة على قتلاهن يوم أحد : « لكن حمزة بن عبد المطلب لا يبكيه أحد » .« فأصبح سنة فى المدينة أن لا يقمن مأتماً على مر العصور إلا بدأن بكاءهن بحمزة . عم الرسول » (٢) .

وكذلك الشعراء ، فهم لا يكادون يرثون أحداً ممن استشهد فى ذلك اليوم إلا ويذكرون حمزة . ومن هؤلاء الشعراء كعب وحسان وعبد الله بن رواحة .

أما كعب فقد رثاه بقصيدتين طويلتين ومقطوعة قصيرة ، ولم يخرج فى المقطوعة عن الندب التقليدى والبكاء ؛ فهو يطلب من صفية ابنة حمزة أن تنوح من أجله وتبكي النساء ، وألا تكف عن البكاء ، فقد كان أبوها أسد الله ، وهو اللقب الذى عرف به فى الإسلام ، وكان عزاً لليتامى وليثاً فى القتال ، وكان موته فى سبيل الله ونصرة الحق ، يريد به رضا النبى ﷺ ورضوان الله ذى العزة والعرش :

« صَفِيَّةُ قُومِي ولا تَعْجَزِي   وبكِّي النِّساءَ علــى حمزة

ولا تَسْأَمِي أنْ تُطِيلِى البُكا   على أسَـدِ اللّهِ فــى الهِزَّةِ

فقد كـان عِزّاً لأيتامِنــا   ولَيْثَ المَلاحِـمِ فــى البِزَّةِ

---

(١) تاريخ الشعر السياسى إلى منتصف القرن الثانى ، ط ٥ (دار القلم - بيروت ، سنة ١٩٧٦م) ، ص ١٢ .

(٢) الرثاء - دكتور شوقى ضيف ، ط ٣ ،(دار المعارف - القاهرة - سنة ١٩٧٩م) ، ص ١٢.

يُريدُ بذاكَ رِضا أحمـــــدٍ   ورِضْوانَ ذى العَرْشِ والعِزّةِ » (١)

وفى قصيدته الدالية - وبعد مطلع غزلى قصير - يصور كعب ما خلفه موت حمزة من آثار فى نفسه وفى نفوس المسلمين ، فقد هده فقده هداً ، وظلت أحشاؤه فى صدره تموج وقلبه يضطرب من هول المصاب،حتى إن حراء وهو الجبل لو فجع بمثله لتبددت من فوقه الصخور:

« ولقد هُدِدْتُ لفَقْدِ حمزةَ هَدَّةً   ظلَّتْ بَناتُ الجَوْفِ منها تَرْعَـــدُ

ولو انَّهُ فُجِعَتْ حِراءُ بِمِثْـــلِهِ   لرأيتَ راسِيَ صَخْرِها يَتَبَدَّدُ » (٢).

وينتقل من الندب إلى التأبين واصفاً إياه بصفات بعضها تقليدى كالسيادة والكرم والشجاعة وبعضها جديد كحب الشهادة ونصرة الدين والمكانة التي ولدتها قرابته من النبى ﷺ واصطفاء النبي له :

« قَرْمٌ تمكَّن فى ذُؤابَةِ هاشِـــمٍ   حيثُ النُّبوَّةُ والنَّدَى والسُّــودَدُ

والعاقِـــرُ الكُوْمَ الجِلادَ إذا غَدَتْ   رِيحٌ يكادُ الماءُ منها يَجْمُـــدُ

والتَّارِكُ القِرْنَ الكَمِيَّ مُجَــدَّلاً   يومَ الكَرِيهَةِ والقَنا يتقصَّـــدُ

وتَراهُ يَرْفُـلُ فى الحَديدِ كـــأنَّه   ذو لِبْدَةٍ شَثْنُ البَراثِنِ أرْبَـــدُ

عَمُّ النَّبِيِّ محـــمَّدٍ وصَــفِيُّـــهُ   وَرَدَ الحِمامَ فَطابَ ذاك المَـــوِرِدُ

وأتى المَنِيَّةَ مُعْلَمــــاً فِى أُسْرةٍ   نَصروا النَّبِيَّ وَ منهُمُ المُسْتَشْهَدُ » .

ويقف وقفة سريعة عند من دبر قتله وهى هند بنت عتبة ، وكيف أنهاقد دبرت لهذا القتل كى تثأر لأبيها وأخيها وعمها وقد قتلوا جميعاً يوم بدر :

« ولقد إخالُ بذاك هنداً بُشِّرَتْ   لتُميتَ داخِلَ غُصَّـــةٍ لا تَبْــــرُدُ

---

(١) ديوان كعب بن مالك ت. د. سامي مكى العاني ، ط ١ (مكتبة النهضة - بغداد سنة ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦م) ، ص ٢١٦ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٨٩ .

مما صبحنا بالعقنقل قومها ... يوماً تغيّبَ فيه عنها الأسعدُ » .

ويدفعه ذكر يوم بدر إلى الفخر بما كان للمسلمين فيه من النصر على كفار قريش ومؤازرة الملائكة وعلى رأسهم جبريل لجيش المسلمين، ويعدد قتلى المشركين وكأنه يجد فى ذلك ملاذاً من الحزن المهيمن عليه منذ البداية ومن الإحساس بالانكسار، ولا يفوته فى النهاية أن يقارن بين مصير هؤلاء القتلى ومصير شهداء المسلمين كحمزة رضى الله عنه:

« وببئرِ بدرٍ إذ يَرُدُّ وُجُوهَهم ... جبْريلُ تحتَ لِوائنا ومُحمَّدُ
حتّى رأيتَ لدَى النّبيِّ سَراتَهمْ ... قِسْمَينِ : يَقْتُلُ مَن نشاء ويَطْرُدُ
فأقامَ بالعَطَنِ المُعطَّنِ منهمُ ... سَبْعُون : عُتبَةُ منهمُ والأسوَدُ
وابنُ المُغيرَةِ قد ضَرَبْنا ضربةً ... فوقَ الوَرِيدِ لها رَشاشٌ مُزْبِدُ
وأُميَّةُ الجُمَحيُّ قوَّمَ مَيْلَهُ ... عَضْبٌ بأيدى المُؤمنينَ مُهنَّدُ
فأتاكَ فَلُّ المُشْرِكينَ كأنَّهم ... والخَيلُ تثفِنُهم نَعامُ شُرَّدُ
شتَّانَ مَن هو فى جَهَنَّمَ ثاوِياً ... أبداً ومَن هو فى الجِنانِ مُخَلَّدُ » .

وفى قصيدته الثانية وهى من النقائض نراه يبدأ بالرثاء مباشرة فلا وقت للغزل أو الوقوف على الأطلال ، وهي بكائية على قتلى أحد من المسلمين بعامة وإن خص حمزة بالمقطع الأخير . ويدفعه الحزن الشديد إلى وصف الزمن بالاعوجاج ، وكأن ما حدث من عثار للمسلمين يوم أحد وهم أصحاب الحق أمرطارئ انقلبت فيه الموازين وأعوج الزمن عن الجادة . ويصف مصير الشهداء فى جنات النعيم بما صبروا تحت ظل اللواء لواء النبى ﷺ وبمشايعتهم له على الحق وصدق بلائهم وموتهم على الملة الحنيفة الطاهرة :

« وقتلاهمُ فى جِنانِ النّعيمِ ... كِرامُ المَداخلِ والمَخْرَجِ
بما صَبَرُوا تحتَ ظِلِّ اللّواءِ ... لِواءِ الرّسولِ بذى الأضْوُجِ
غداةَ أجابتْ بأسْيافِها ... جَميعاً بَنو الأوْسِ والخَزْرَجِ
وأشْياعُ أحمدَ إذ شايَعُوا ... على الحَقِّ ذى النُّورِ والمَنْهَجِ

فما بَرِحوا يَضرِبون الكُماةَ ويمضُونَ فى القَسْطَلِ المُرْهَجِ
كذلكَ حتّى دَعاهمْ مَليكٌ إلــــى جَنَّةٍ دَوْحَةِ المَوْلَـجِ
فكُلُّهُمُ ماتَ حُرَّ البَـــلاءِ على مِلَّةِ اللّهِ لم يَحْرَجِ » (١) .

ويصور فى الجزء الأخير مقتل حمزة على يد وحشى عبد بنى نوفل ، وكيف أنه قد جاء من خلفه يصيح بجثته الضخمة السوداء ، ثم طعنه بحربته طعنة حارة كالشهاب أشعلت النار في صدره ، ولم تهدأ تلك النيران أو الآلام الحادة التي تشبه النيران إلا بموته. ويذكر من الشهداء نعمان الذى وفى بميثاقه وحنظلة الخير وثباته على الحق وموته فى سبيله ، ويفخر بهما وبحمزة وبأمثال هؤلاء الشهداء الذين نالوا أعلى الدرجات ، ويعير قريشاً بمصير قتلاها فى النار .

١١ - ويرثى حسان حمزة بقصيدة طويلة يبدؤها بذكر الدار التي عفا رسمها بفعل السيول والأمطار ، ويحدد موضعها ، ويتوجه إليها بالسؤال فتستعجم ولا تعرف كيف تجيب ، فيتركها للبكاء على حمزة ، فهوالذي يستحق الذكر من دون هذه الدار.

ويثنى على حمزةبمجموعة من الصفات المعتادة كشدة الكرم فى السنة الغبراء ، والشجاعة فى القتال والمكانة السامية العالية.ثم ينتقل إلى موقف الاستشهاد ويذكر وحشيا وغدره وإظلام الأرض وانطفاء القمر ، فكأن الوجود كله بما فيه من جمادات يشاركه فى هذا الحزن :

« ما لشَهيدٍ بينَ أرماحِكمْ شُلَّتْ يَدا وَحْشِيٍّ مِن قاتِلِ
وإنَّ امرأً غُودِرَ فـــى ألَّةٍ مَطْرُورَةٍ مارِنَةِ العامـــــلِ
أظْلَمتِ الأرضُ لِفِقْدانـه واسْوَدَّ نورُ القَمرِ النّاصِلِ » (٢) .

ويذكر منزلته فى الجنة وصلاة الله عليه . ولعلها هى المرة الأولى التي يستخدم فيها هذا التعبير «صلى عليك الله » ، وسوف يشيع استخدامه فى عصور تالية وخاصة لدى المتصوفة وشعراء الزهد :

(١) ديوان كعب بن مالك - ت . سامي مكى العاني ص ١٨٧ ، ١٨٨.
(٢) ديوان حسان بن ثابت - تحقيق د . سيد حنفى حسنين ، ص ٢٢٠، ص ٢٢١ .

« صَلّى عليكَ اللّهُ فى جَنّةٍ عالِيَــةٍ مُكْرَمةِ الدّاخِلِ » .

ويبين مكانة حمزة فى الإسلام ، وكيف كان حرزاً للمسلمين فى الشدائد والملمات بشجاعته وقوته ونصرته لكل ضعيف :

« كنّا نَرى حَمْزَةَ حِرْزاً لنا مِن كلّ أمْرٍ نابَنا نــــازِلِ
وكانَ فى الإسلامِ ذا تُدْرَإٍ لم يكُ بالواني ولا الخاذِلِ » .

ثم يتوجه بالخطاب إلى هند ،ألا تشمت بموته ، وأن تشغل عن فرحها فيه بالبكاء على قتلاها يوم بدر . وكأن هنداً قد صارت رمزاً لقريش :

« لا تَفْرَحِي يا هندُ واسْتَحْلِبِي دَمْعاً وأذْرِى عَبْرةَ الثّاكـــــلِ
وابْكِي على عُتْبَــــةَ إذ قَطّهُ بالسّيفِ تحتَ الرّهجِ الجائـــلِ
إذ خَرّ فى مَشْيخَةٍ منــــكمُ مِن كلّ عاتٍ قلبُهُ جاهِــــلِ
أرداهمُ حمزةُ فى أُسْــــرَةٍ يَمْشُونَ تحتَ الحَلَقِ الذّائـــلِ » .

ويذكر نصرة جبريل له ؛ فبه وبالحق الذي يقاتل عليه ، كان بلاؤه الرائع يوم بدر :

« غداةَ جبريلٌ ، وَزِيرٌ لـــهُ نِعْمَ وَزيرُ الفارسِ الحــــامِلِ » .

وعندما حلت أمامة ابنة حمزة بالمدينة بعد عمرة النبى ﷺ وهى المعروفة بعمرةالموادعة، طفقت تسأل عن أبيها وعن مصرعه ، فأجابها حسان بقصيدة قصيرة مطلعها :

« تُسائلُ عن قَرْمٍ هِجانٍ سَمَيدَعٍ لدى البأسِ مِغْوارِ الصّباحِ جَسُورِ » (١) .

وهى تميل إلى التعزية أكثر مما تميل إلى الندب والبكاء ؛ فالشهادة راحة ، ورضوان الله خير من الدنيا ومافيها ، وقد كان حمزة وزيراً لرسول الله ﷺ بل كان خير وزير له ، دعاه الله إلى الجنة فلبى الدعاء ، وهذا ما كنا نرجوه له - وهوأيضاً ما نرجوه لأنفسنا - الجنة ورضوان الله عز وجل خير معين :

---

(١) ديوان حسان بن ثابت ، تحقيق د . سيد حنفى حسنين ، ص ٢١٩ .

« فقلت لها إنَّ الشهادةَ راحةٌ ورضوانُ ربٍّ يا أُمامَ غفُورِ
فإنَّ أباكِ الخيْرَ حمزةَ فاعلَمي وزيرُ رَسولِ اللّهِ خيرُ وَزيرِ
دعاهُ إلَهُ الحقِّ ذو العرْشِ دعوةً إلى جنَّةٍ يَرْضى بها وسُرورِ
فذلكَ ماكُنَّا نُرجِّي ونرْتَجي لحمزةَ يومَ الحَشْرِ خيرَ مَصيرِ ».

ويتخذ حسان من مصاب حمزة وسيلة للعزاء والتخفيف عن الآخرين ، فكل مصاب دونه جلل يسير . من ذلك قوله لامرأة شماس وكانت قد جزعت عليه جزعاً شديداً ورثته بأبيات مليئة باللهفة والفزع :

« اقْنِي حَياءَكِ في سِتْرٍ وفي كَرَمٍ فإنَّما كان شمَّاسٌ من النَّاسِ
قد ذاقَ حمزةُ سيفُ اللّهِ فاصْطَبِري كأساً رُواءً ككأسِ المرْءِ شمَّاسِ » . (١)

ولعبد الله بن رواحة في رثاء حمزة لامية ـ قال ابن هشام : « أنشدينها أبو زيد الأنصاري لكعب بن مالك » ـ بدأها كذلك بالبكاء وجعله حقاً لعينه ، وإن لم يغن عنه شيئاً :

« بكَتْ عَيْني وحُقَّ لها بُكاها وما يُغْني البُكاءُ ولا العَويلُ » .(٢)

على أسد الله إذ أصيب به المسلمون جميعاً كما أصيب به رسول الله ﷺ :

« على أسَدِ الإلهِ غداةَ قالوا أحمزةُ ذاكمُ الرَّجُلُ القتيلُ
أُصيبَ المسلمونَ به جَميعاً هناكَ وقد أُصيبَ به الرَّسولُ » .

ووصفه بالمجد والبر وصلة الأرحام ، وجمعها في بيت واحد . ثم ألقى عليه السلام

---

(١) ديوانه ص ٣٠٩ . وفي ديوانه رضي الله عنه قصيدة أخرى في رثاء حمزة بالجزء الخاص بالإضافات عدتها ثلاثة وأربعون بيتاً ، نقلها المحقق عن السيرة النبوية ولم يشر إلى وجودها في مصادر أخرى ، وقال ابن هشام في التعقيب عليها : « وأكثر أهل العلم بالشعر ينكرها لحسان » . فاستبعدناها خاصة أنها لا تضيف شيئاً جديداً .

(٢) ديوان عبد الله بن رواحة.ت.د.حسن محمد باجودة (مكتبة دار التراث ـ القاهرة سنة ١٩٧٢م)،ص ٩٨ .

وهو يعلم أنه هناك فى الجنة ينعم فى ذلك النعيم الدائم الذى لا ينقطع ولا يزول :

« أبا يَعْلَى لكَ الأركانُ هُدَّتْ   وأنتَ الماجدُ البَرُّ الوَصولُ

عليكَ سلامُ ربِّكَ فى جِنانٍ   مُخالِطُها نَعيمٌ لا يَـــزولُ » .

وعزى فيه بنى هاشم ، وذكرهم بحسن فعالهم فى كل حين ، وبصبر النبى ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى ، والذى طالما بيّن أجر الشهداء وجزاء الصابرين :

« ألا يا هاشِمَ الأخيارِ صبْراً   فكلُّ فِعالِكمْ حَسَنٌ جَميلُ

رسولُ اللهِ مُصْـــطَبِرٌ كَريمٌ   بأمرِ اللهِ يَنْـطِقُ إذ يقولُ » .

ثم توجه بالخطاب إلى لؤى مهدداً متوعداً ، وذكرهم بأن الأيام دول ، ولقد ذاقوا من قبل بأس المؤمنين يوم بدر حين لقى أبو جهل مصرعه وكذلك عتبة وابنه وشيبة وأمية ، وهاهى ذى رءوس بنى ربيعة تحمل آثار السيوف :

« ألا مَن مُبْلِغٌ عنّى لُؤَيـــاً   فبَعْدَ اليوم دائلةٌ تَــــــدولُ

وقَبْلَ اليومِ ما عَرَفوا وذاقُوا   وقائعَنا بها يُشْفَى الغَليـــلُ

نَسيتمْ ضَرْبَنا بقَليبِ بــدرٍ   غداةَ أتاكمُ الموتُ العَجيــلُ

غداةَ ثَوى أبو جَهْلٍ صَريعاً   عليهِ الطَّيْرُ حائمَةٌ تَجــولُ

وعُتْبَةُ وابنُهُ خَرَّا جَميعــاً   وشَيْبَةُ عَضَّهُ السَّيْفُ الصَّقيل

ومَتْرَكُنا أُمَيَّةَ مُجْلَعِبّـــاً   وفى حَيْزُومِه لَدْنٌ نَبيـــلُ

وهامُ بَنِى رَبِيعةَ سائلُوهــا   ففى أسيـــافِنا منها فُلُولُ » .

ثم التفت إلى هند وعيرها بمقتل هؤلاء ، وطلب منها ألا تكف عن البكاء ، فربما خفف عنها بعض ما تجد من الحسرة ، وربما كان هذا خيراً لها من الشماتة بأسد الله .

ولم نجد لقريش من الرثاء فى يوم أحد غير قطعة صغيرة لأعشى تميم يبكى فيها قتلى بنى عبد الدار[1] . وهى لا تخرج فى مضمونها عن المعانى الجاهلية القديمة من حسن

---

(١) السيرة النبوية ، المجلد الثانى ص ١٦٦ .

الجوار ورعاية الضيف . وربما كانت هناك مراث أخرى لقريش لم تحفظها كتب السيرة مثلما حفظت لنا مراثيهم فى بدر ، وربما صرفهم النصر - وإن كان نصراً هيناً - وإدراك الثأر عن ذكر القتلى والبكاء .

١٢ – وفى غزوة الخندق رثى مسافعُ بن عبد مناف عمرو بن عبدود ، وكان على بن أبي طالب قد قتله فى ذلك اليوم . وأشار فى رثائه له إلى ما كان يتحلى به من فروسية ونجدة وشجاعة وقوة وسماحة أخلاق :

« عمرُو بنُ عَبْد كان أوّلَ فارسٍ   جَزَعَ المَذادَ وكان فارسَ يَلْيَلِ
سَمْحُ الخلائقِ ماجدٌ ذُو مِرَّةٍ   يَبْغِى القِتالَ بشِكَّةٍ لم يَنْكُلِ »(١) .

كما أشار إلى فرار المشركين عنه وخذلانهم له وقت القتال ، واجتماع سيوف المسلمين حوله ، كل يبغى مصرعه لما فى ذلك من فخر :

« ولقد عَلِمتُمْ حينَ ولّوا عنكمُ   أنَّ ابنَ عَبْدٍ فيهمُ لم يَعْجَلِ
حتّى تكنَّفَهُ الكُماةُ وكلُّهمْ   يَبْغِى مَقاتِلَهُ وليس بمُؤْتَلِى
ولقد تكنَّفَتِ الأسنَّةُ فارِساً   بجَنوبِ سَلْعَ غيرَ نِكْسٍ أمْيَلِ » .

لكن سيف على كان أسبق السيوف إليه ، فلقد سأله النزال فأجابه ، وليته لم يجبه :

« تَسَلُ النِّزالَ عليٌّ فارسَ غالبٍ   بجَنوبِ سَلْعٍ لَيْتَهُ لم يَنْزِلِ » .

ولقد ذهب علي بالفخر كله ؛ لأنه لن يظفر بمثله ، ولن يظفر بمثله أحد . ولم يفت الشاعر أن يشير إلى أن خروج ابن عبدود للقتال لم يكن إلا لطلب الثأر ؛ ثأر قوم خذلوه، وعلى الرغم من ذلك لم يفر .

وفى أبيات له أخرى ركز مسافع على خذلان قريش لابن عبدود وفرارهم عنه وإجابته علياً بالنزول . وذكر من الفارين عنه هبيرة وضراراً ووصفهما باللؤم والجبن ولم يشفع لهما عنده خوفهما من الوقوع فى براثن الموت . ولعله أول شاعر من قريش يفضح

---

(٢) السيرة النبوية - المجلد الثانى ، ص ٢٦٦ .

المشركين فى رثائه لواحد منهم بالحرص الشديد على الحياة ، فى الوقت الذى كنا نرى فيه المسلمين يحرصون أيما حرص على الموت فى سبيل الله ؛ لما بعد الموت من النعيم والخلود فى الجنان.

ولنقف هنيهة مع هبيرة الذي وصمه الشاعر بالجبن حين ولى هارباً لنراه فى رثائه لابن عبدود وهويسوق الأعذار ، فإنه لم يفر جبناً ولا خوفاً من الموت وإنما فر عندما لم يجد لنفسه مقدماً ، وحين رأى أن سيفه لن يجديه ولا نبله ، وأن دفاعه عن صاحبه لن يغنى عنه شيئاً وقد صارت الرءوس فى متناول أيدى المسلمين :

« لَعَمْرِى ما ولَّيتُ ظَهْرِى محمَّداً   وأصحابَهُ جُبْناً ولا خِيفَةَ القَتْلِ

ولكنّنى قَلَّبتُ أمْرِى فلم أجِــدْ   لسَيْفِى غَنَاءً إنْ ضَرَبْتُ ولا نَبْلِى

وقفتُ فلمَّا لم أجدْ لى مُقَدَّمــاً   صَدَدْتُ كِضرْغامٍ هِزَبْرٍ أبى شِبلِ

ثَنَى عِطْفَهُ عن قِرْنِهِ حينَ لم يَجِدْ   مكَرّاً وقِدْماً كان ذلك من فِعلى » .(١)

ويمضى هبيرة بعد ذلك فى الثناء على ابن عبدود وتأبينه ، ثم يشير إلى على وظفره بالفخر ، ولا يمنعه قتل علي لصاحبه من وصفه بأنه كالفحل شجاعةً وقوةً وشدةَ بأس.

وفى قطعة أخرى من أربعة أبيات (٢) ، يبكى هبيرة عمرو بن عبدود ولا يخرج فيها عما ذكره فى القصيدة السابقة من مصاب قريش فيه ومن قتل علي له وفرار الكتائب عنه وبقاء جثته بيثرب - ولم يقل المدينة - حيث المصائب لا تزال .

١٣ - ولم نجد بعد الخندق رثاءً آخر يصور الصراع بين المسلمين ومشركى قريش اللهم إلا ما كان فى فتح مكة من رثاء حسان لقتلى خزاعة ، ورثاء أخت مقيس لأخيها ، وطبيعى أن يسكت الشعراء عن هذا النوع من الرثاء فى تلك الفترة لتوقف الحروب بين الفريقين فلم نسمع عن معارك ذات بال بينهما من بعد الخندق ، وقد روى عن النبي ﷺ

---

(١) السيرة النبوية (المجلد الثانى) ص ٢٦٧ ، ٢٦٨ / الدرالمنثور فى طبقات ربات الخدور ، ص ٣٥٦ مع اختلاف طفيف ولم يرد البيت الرابع فيه . (٢) السيرة م٢ ص ٢٦٨ .

أنه قال بعد فشل الأحزاب فى اقتحام المدينة « الآنَ نَغْزُوهُمْ ولاَ يَغْزُونَنا» (١) . ولم يغزهم المسلمون إلا عام الفتح بعد أن غدرت قريش بعهدها وآزرت أنصارها من بنى بكر على خزاعة وهم أنصار المسلمين ، فاستنجدت خزاعة بالنبى. ولحسان فى تلك الوقعة قصيدة يرثى فيها القتلى من بنى كعب وهم فرع من خزاعة ويبين غدرقريش وعدم وفائها بالعهد يقول فيها :

« غِبنا فلم نَشْهَدْ بِبَطْحــاء مكَّةٍ — دُعاءَ بنى كَعْبٍ تُحزُّ رِقابُـــها

فيا ليتَ شِعرِى هل تنالَنَّ نُصرَتى — سُهَيْلُ بنُ عَمْرٍ وَحَرُّها وعقابُـــها

وصَفوانُ عَوْداً حُزَّ مِن شُفْرِ استه — فهذا أوانُ الحَرْبِ شُدَّ عِصابُـــها

بأيدِى رِجالٍ لم يَسُلُّوا سيوفَهمْ — بحقٍّ وقتْلَى لم تُجَنَّ ثيابُـــها

ولو شَهِدَ البَطْحاءَ منّاعِصـــابةٌ — لَهانَ عَلَينـــا يومَ ذاك ضِـرابُها

فلا تأمَنَنّا يا ابْنَ أُمِّ مُجـــالِدٍ — إذا لَقِحَتْ حَرْبٌ وأَعْصَلَ نابُها »(٢) .

وهي مليئة بالتحريض على الثأر من هؤلاء الذين غدروا بالعهد . وقد بالغ فى الإثارة عندما صور بنى كعب وهم يستغيثون ، ولامغيث ، وتُحزُّ رءوسُهم ببطحاء مكة ، ثم تنتشر جثثهم فى العراء لا تسترهاحتى الثياب . وتبدو النبرة الخطابية واضحة فى التوعد والتهديد والفخر وسب المشركين على طريقتهم بذكر ما يستقبح ذكره .

وفى هذااليوم أهدر النبى ﷺ دماء بعض المشركين ومنهم مِقْيَس بن حبابة ، فقتله رجل من قومه يدعى نُمَيْلَة بن عبد الله فقالت أخته فى مقتله :

« لَعَمْرِي لقد أَخْزَى نُمَيْلَةُ رَهطَهُ — وفَجَّعَ أضيـافَ الشِّتاءِ بِمقْيَــسِ

---

(١) متن البخارى بحاشية السندى (دار إحياء الكتب العربية - القاهرة - بدون تاريخ)جـ ٣، ص ٣٣ . وفى الأغاني (ط . الدار) جـ ١٦ ص ٢٣٢ : « إنَّ المشـركِينَ لن يَغْزُوكم بعدَ اليوم ولكنْ تَغزوُنَهم » .

(٢) ديوانه ص ٣٣٠ ، ٣٣١ .

(٣) السيرة النبوية ، المجلد الثانى ، ص ٤١٠ ، ٤١١ .

فللهِ عَيْناً مَنَ رأى مثلَ مقيــــسٍ إذا النُّفساءُ أصبحتْ لم تُخَرَّسِ»(٣) .

١٤ — ولم تك أخت مقيس أول من يشارك فى هذا النوع من الرثاء من النساء ، فمن قبل شاركت المرأة فى رثاء قتلى بدر وأحد والخندق ، ولكن رثاء هن يغلب عليه الندب، وقد يخرج في بعض الأحيان إلى التأبين ، وقلما يصل إلى العزاء . وهو فى جملته قليل ، وأكثره مقطوعات قصيرة ، مما يدل على قصر النفس الشعرى . وقد أرجع أحد الباحثين ذلك إلى أن هؤلاء الشواعر « لم يكن لهن شعر كثير فى الجاهلية ، ولم تتأصل موهبتهن في الماضى » (١) . أى إنهن لم يكنّ ممن احترفن الشعر ـ إن جاز التعبير ـ كالرجال ، وإنما هى أم ترثى ابنا أو أخت ترثى أخاها أو ابنة ترثى والدها أو زوج ترثى زوجها ، وقد أملى عليها الموقف الشعر فقالته من باب الوفاء تعبيراً عماتحس به من الألام والأحزان .

يقول الدكتور الشايب : « والذي نلاحظه أن شعر النساء فى هذه الفترةأقل من شعر الرجال وأرق منه ، وكان فى الغالب ظاهرةشعورية فردية تتصل بالأهل والأقربين أكثر من اتصالها بالمذهب العام » (٢) وهو يعني شعر الرثاء حيث يقول قبل ذلك بقليل : «وكان شعرهن بكاء على القتلى وتحريضاً على الانتقام واشتفاءحين الظفر بالثارات » (٣).

وقد ظهرفى هذا الشعر ـ كما ظهر فى شعر الرجال ـ المنافسة بين مكةوالمدينة . « ولعل شواعر قريش كن أقوى فناً لحرقةالهزيمة وزوال العز التليد » . (٤) وإن اصطبغ شعر المسلمات بصبغةجديدة حيث امتلأ بالمعانى الإسلامية والألفاظ الخاصة بالدين الجديد ، كما ظهر فيه نوع من التعزى والاحتساب . ومن هؤلاء الشواعر اللائى شاركن برثائهن فى الصراع بين قريش والمسلمين هند بنت عتبة وصفية بنت مسافر وقتيلةبنت الحارث فى جانب قريش . وصفية بنت عبد المطلب وهند بنت أثاثة ونعم بنت سعيد فى جانب المسلمين .

---

(١) شعر الرثاء فى صدر الإسلام ـ د . مصطفى عبد الشافى الشورى ، ص ٧٣ .
(٢) تاريخ الشعر السياسى ، ص ١٢٢ ، ١٢٣ .
(٣) المرجع نفسه ص ١٢١ .
(٤) المرجع نفسه ص ١٢٣.

ففي بدر رثت صفية بنت مسافر أصحاب القليب الذين أصيبوا من قومها ، فقالت تبكيهم وتذكر مصاب قريش فيهم :

« يامَن لعَيْنٍ قَذاها عـــائرُ الرَّمَـــدِ ... حَدَّ النَّهارِ وقَرْنُ الشَّمْسِ لم يَقِـدِ

أُخبِرْتُ أنَّ سَراةَ الأكرَمِـيـن معـــاً ... قـــد أحرَزَتْهم مَناياهـــم إلى أمَدِ

وفَرَّ بالقَومِ أصحابُ الرِّكابِ ولـــم ... تَعْطِفْ غـداتئذٍ أُمٌّ عـــلى ولَـــدِ

قُومي صَفِيُّ ولا تَنْسَيْ قرابَتَـــهم ... وإنْ بكَيْتِ فما تَبْكِينَ مِن بُعُـــدِ

كانوا سُقُوبَ سماءِ البَيْتِ فانْقصفتْ ... فأصبحَ السَّمْكُ منها غيرَ ذي عَمَدِ » (١) .

وهي تشير إلى الهزيمة وما أعقبته من تصدع في بنيان قريش . وما كان من فرار بعضهم من ميدان القتال . وربما عنت بالبيت الكعبة ؛ حيث كان في حماية قريش فتعرض بهزيمتهم - وهو رمز للزعامة الدينية والدين القديم - إلى التخلخل في مواجهة الدين الجديد .

ورثت في قطعة أخرى زوجها ، وبينت كيف أن الموت اختطفه - على الرغم من شجاعته من بين أيديهم ، وكيف تلونت الوجوه لفقده من ناحية وللذعر والهلع والخوف الذي حل بالقلوب عقب الهزيمة من ناحية ثانية . (٢) .

وبكت هند بنت عتبة أباها بكاء حاراً ، وفي الحق أن مصيبتها كانت كبيرة ؛ فقد قتل أبوها وأخوها وعمها وابنها في هذا اليوم ، فقالت في بكائه والتحريض على الثأر له

« ياعيـــنُ بكّي عُتبَهْ ... شيخاً شَديدَ الرَّقَبَهْ

يُطعِمُ يـــومَ المَسْغَبه ... يَدفعُ يـــومَ المَغْلَبه

إنّي عليـــــهِ حَرِبَه ... مَلْهُوفَةٌ مُسْتَلَبـه

لَنَهْبِطَـنَّ يَثْـــــرِبه ... بغارةٍ مُنْثَعِبـــه

---

(١) السيرة النبوية ، المجلد الثاني ص ٤٠ / الدر المنثور ص ٢٦٢/ شرح ديوان الخنساء بالإضافة إلى مراثي ستين شاعرة من شواعر العرب (دارالتراث - بيروت سنة ١٩٦٨م) ص ١٦٢ .

فيهـــا الخُيـــــولُ مُقْرَبه كلُّ جَوادٍ سَلْهَبه » . (١) .

وهي تبين عـما كانت تنـتويه قريش عـقب الهزيمة مـن الإعداد للثأر في يـوم قريب . وبكته فى قـطعه أخرى بكاء أشـد حرارة حـيث صورت فى مرارة مـشهـد القتل ، وهم يعتلونـه بالسيوف ويجـرونه فوق التـراب عارياً مسلوباً . ولعل ممـا زادها حزناً أن هؤلاء الذين قـتلوه هم رهطه الأدنون من بنى هاشم وبنى المطلـب . وكأنهـاتشيـر إلى أن الدين الجديد قد فرق بين الأهل ومزق القبيلة ،بل تتهمه بذلك فى غير تصريح :

« أعَيْنَيَّ جُودا بدمع سَرِبْ على خيرِ خِنْدِفَ لم يَنقلِبْ

تَداعَى له رَهْطُه غـُدوةً بنو هاشِمٍ وبنو المُطَّلـــبْ

يُذيقونه حَدَّ أسـيافِهـم يَعلُّونه بعدما قد عَطِـــب

يَجُرُّونه وعَفـيرُ التُّراب على وَجْهِه عارياً قد سُـلِب

وكان لنا جَبَلاً راسـياً جَميلَ المَراةِ كَثيرَ العُشُبْ» (٢) .

ونظرا لعظم مصيبتها فيمن فقدته نراها تفاخر الخنساء وهى معروفة هى الأخرى بعظم المصاب . ذكـر صاحب الأغـانى أنهمـا كانا يجـتمـعان فى عكاظ ويـتعاظمـان بالرزية وأورد لهما أبياتاً فى ذلك (٣) .

كما أورد لها أبياتاً أخرى قالتهافى قتلى بدر (٤) ، يمتزج فيها البكاء بالفخر وتخرج من الندب إلى التأبين بالصفات التي كان القرشـيون يحرصون على وصف موتاهم بها . ولقتيلة بنت الحارث مرثية فى أخيها النضر ، مدحت فيها النبي ﷺ وعاتبته عتاباً رقيقاً ؛ لأنه لم يقبل منه فدية على الرغم من قرابته وأحقيته ـ فى تصورها ـ بالعتق . تقول قتيلة :

---

(١) السيرة النبوية ، المجلد الثانى ، ص ٤٠ / شرح دوان الخنساء ص ١٨٩ .

(٢) السيرة النبـوية ، المجلد الثانى ص ٣٨ / شـرح ديوان الخنساء ص ١٨٨ / الدر المنثور ص ٥٣٨ .

(٣) الأغانى (ط . الدار)، جـ ٤ ، ص ٢١٢ .

(٤) المصدر نفسه ص ٢١٢ .

« أمحمدٌ ولأنتَ نَسْلُ نَجيبةٍ   فى قومِهاوالفَحْلُ فَحْلٌ مُعْرِقُ
ما كان ضَرَّكَ لو مَنَنْتَ وربَّما   مَنَّ الفتى وهو المَغيظُ المُحْنَقُ
أو كنتَ قابِلَ فِدْيةٍ فَلْنــأتِيَنْ   بأعزِّ ما يَغْلو لديكَ ويَنْفُــقُ
والنَّضْرُ أقربُ مَن أخذتَ بزَلَّةٍ   وأحقُّهم إنْ كان عِتْقٌ يُعتَقُ » . (١) .

ونلمح فى هذه الأبيات بعضاً من ألوان معاملة الأسرى فى الفترة الأولى للإسلام ،وهى الألوان نفسهـا التى كانت تعرفهـاقريش بدليل ذكر قتيلة لها ، ومنها المن وهو العتق بغير مقابل ، والفداء وهو العتق بمقابل مادى أو غيره ، والقتل وهو ما فعله النبى ﷺ بالنضر .

وتشير قتيلة إلى تمزق الأرحام وتحول الود إلى خشونة وكراهية نتيجة الصراع :

« ظلَّتْ سُيوفُ بنى أبيه تَنوشُه   للّهِ أرحامٌ هناكَ تُشَــقَّقُ
صَــبراً يُقادُ إلى المَنيَّةِ مُتْعباً   رَسْفَ المُقَيَّدِ وهْو عانٍ مُوثَقُ» .

وفي قتل عمرو بن عبدود يوم الخندق تقول أخته :

« لو كان قاتِـلُ عَمْرٍوغيرَ قاتِلِه   بكَيْتُه ما أقامَ الرُّوحُ في جسـدى
لكنَّ قاتِلَهُ مَن لا يُعــابُ بِه   وكان يُدْعَى قَديماً بَيْضَةَ البَلَدِ» (٢) .

أما شـواعر المسلمين فقـد قل شعرهن فى بدر ، وانفـردن بالرثاء يوم أحد ، ومما لهن فى بدرقول هند بنت أثاثة ترثى عبيدة بن الحارث بن المطلب وكان قد دفن بالصفراء :

---

(١) الأغـانى جـ ١ ص ٢٠ ، ص ٢١ / الدر المنثـور ص ٤٥٠ / نسب قـريش ت ليـفى بروفنسال ص ٣٥٥ وفيه أنها لابنة النضر وليست لأخته / السيرة النبوية ، المجلد الثانى ص ٤٢ ، ٤٣ / شرح ديوان الحماسة للتبريزى ت محمد محيى الدين عبد الحميد جـ ٣ ، ص ١٨ مع اختلاف طفيف ولم يرد البيت الثالث فيـه / شرح الحماسة للمـرزوقى ت . أحمد أمين وعبد السلام هارون (لجنة التأليف والترجمة والنشر- القاهرة - سنة ١٩٥٣ م) جـ ٢ ص ٩٦٣ : ٩٦٨ . ومصادر أخرى عديدة مع اختلافات يسيرة .

(٢) شرح الحماسة للتبـريزى ت . محمد محيى الـدين عبـد الحميـد ، جـ ٢ ، ص ٢٩٨ ، والمرزوقى جـ ٢ ص ٨٠٤ .

« لقد ضَمَّنَ الصَّفراءُ مجداً وسُؤْدُداً   وحِلْماً أصيلاً وافرَ اللُّبِّ والعَقْلِ .

.... الأبيات » (١) . وهي تجرى فيها على النسق نفسه الذي تتحرك فيه شاعرات قريش وتؤبنه بالصفات نفسها من سعة الحلم ووفرة اللب وشدة الكرم وخاصة فيما يتعلق باليتامى والأرامل والأضياف .

وفي أحد بكت نعم زوجها شماساً بكاء ملهوف غير محتسب (٢) . وقد مر قول حسان في لومها وحثها على الاحتساب والصبر . وكذلك فعل أخوها أبو الحكم بن سعيد حين قال معزياً :

« اقْنِي حَياءَكِ في سِتْرٍ وفي كَرَمٍ   فإنَّما كان شَمَّاسٌ مِن النَّـــــاسِ
لا تَقْتُلِي النَّفْسَ إذ حانتْ مَنِيَّتُه   في طاعةِ اللَّهِ يومَ الرَّوْعِ والباسِ » . (٣) .

وهويهون من شأن الموت لأنه في سبيل الله . ومثل هذا المعنى نجده عند صفية بنت عبد المطلب في رثائها لأخيها حمزة ؛ حيث يتحول الموت - لولا الحزن على الفقد - إلى مشهد من أروع مشاهد التكريم ، فالله ذو العرش قد دعا حمزة إلى الجنة حيث النعيم والسرور فأجاب دعوته وذلك ما كنا نرجوه له يوم الحشر خيرمصير :

« دعاهُ إلهُ الحَقِّ ذو العَرْشِ دَعْوةً   إلى جَنَّةٍ يحيا بها وسُـــرورِ
فذلكَ ما كُنّا نُرَجِّي ونَرْتَجِـي   لحمزةَ يومَ الحشرِ خيرَ مَصيرِ » . (١) .

ووصفت حمزة في الأبيات بأنه وزير رسول الله ﷺ ، ولقبته بأسد الله، وأشادت بدفاعه عن الإسلام وجهاده الكفار ، ودعت الله بأن يجزيه خيرالجزاء فقد كان نعم الأخ والنصير.وهي كما سبق أن ذكرت معان جديدة بدأت تظهر في شعر الرثاء .

---

(١) السيرة النبوية ، المجلد الثاني ،ص ٤١ ، ٤٢ / الدر المنثور ص ٥٣٦ .

(٢) السيرة النبوية ، المجلد الثاني ، ص ١٦٨ .

(٣) شعرالدعوة الإسلامية في عهد النبوة والخلفاء الراشدين - جمعة وحققه عبد الله بن حامد الحامد (مطبوعات الرئاسة العامة للكليات والمعاهد العلمية - الرياض ، سنة ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م) ص ٤٦٩ ، ٤٧٠ .

(٤) شعر الدعوة الإسلامية ص ٤٥٠ والسيرة النبوية ، المجلد الثاني ص ١٦٧ . وقد مرا ضمن أبيات أخرى لحسان .

وبما مر نستطيع أن نقول إن الصراع الذى دار بين قريش والمسلمين أذكى الشاعرية القرشية وأوجد مجموعة من الشعراء المسلمين يذودون عن الإسلام ويدافعون عنه ،وإن المعارك الكبيرة التي أوجدها هذا الصراع قد خلفت شعراً كثيراً فى الرثاء يتأرجح بين الطرفين مع تأرجح النصر والهزيمة ،وإن العصبية القبلية قد ظهرت واضحة فى مراثى قريش ، بينما غلبت المعانى الدينية الجديدة على رثاء المسلمين .

وقد بدا واضحاً أن الرثاء فى تلك الفترة كان يسير في اتجاهين ؛ اتجاه تقليدى هو امتداد للرثاء فى العصر الجاهلى ، ويمثله أصدق تمثيل شعراء قريش ومن آزرها . واتجاه تجديدى يستمد معانيه وأفكاره من الحياة الإسلامية الجديدة ويتأثر في صياغته وأساليبه بالقرآن الكريم . وإن كان هذا الاتجاه أقل وضوحاً ؛ لأنه كان لا يزال فى بدايته أوبالأحرى فى طور الطفولة . وسوف يزداد وضوحاً فى فترات تالية عند جيل من الشعراء نشأ فى الإسلام نشأة كاملة . وبدا واضحاً أيضاً أن كلا الاتجاهين قد تأثر بالصراع السياسى تأثراً كبيراً ، لا من حيث كونه وليد هذا الصراع فحسب ، بل لماكان فيه من تمجيد للقتلى وتعظيم للغايات التى ماتوا من أجلها ، ووصف للقتال ، وفخر، واعتذار ، وحض على الثأر ، وإثارة واستنهاض ، وإبراز للنتائج التي خلفتها المعارك فى كلا الطرفين ، ورسم صور مثالية لذوى المكانة البارزة في هذا الصراع وتعيير الآخرين وإظهار الشماتة بهم ، حتى صارهذا الشعر مغذياً ووليداً ؛ مغذياً للصراع الدائر بين الفريقين ووليداً عنه . فهو سياسى من الناحيتين معاً ، وأيضاً من جهة غايته .وهو يرتكز أكثر ما يرتكز على الدين والعصبية القبلية ، وهو المرتكز نفسه الذى سوف يظهر في الصراع مع اليهود والقبائل العربية الأخرى .

* * *

فى الصراع مع اليهود

١ - بدأ الصراع بين المسلمين واليهود بعد أن هاجر النبي ﷺ إلى المدينة وآخى بين الأوس والخزرج ، وبين المهاجرين والأنصار . فقد أحس اليهود بخطورة هذه الدولة الناشئة وهذا الدين الجديد على دينهم ، وعلى مكانتهم المتميزة التى كانوا عليها . لكنهم لم يستطيعوا أن يقفوا فى وجهه أويجهروا بعداوتهم له في البداية ، واكتفوا بتأمين النبى ﷺ لحياتهم وإبقائه على كيانهم المستقل داخل المدينة فى المعاهدة التى وقعها معهم [١] . وقد كفلت لهم هذه المعاهدة حرية الاختيار وإقامة شعائر دينهم ، وما يستتبعه ذلك من المحافظة على دور عبادتهم ، كما أقرتهم على أموالهم وبساتينهم وحصونهم وممتلكاتهم ، وألزمتهم - فى الوقت نفسه - بالدفاع مع المسلمين عن المدينة والنصح لهم والبر بهم . وشرط عليهم النبى ﷺ ألا يخرج أحد منهم إلا بإذنه. ويبدو أن هذا الشرط كان موقوتاً بالحرب تحسباً للغدر أو الفرار أوعدم الوفاء . [٢] .

وقد ساعدت هذه المعاهدة بما فرضته من حقوق وألزمت من واجبات على إيجاد نوع من الألفة والموادعة بين المسلمين واليهود . غير أن هذه الألفة لم تدم طويلاً ، إذ ما لبث أحبار يهود أن نصبوا العداوة للرسول « بغياً وحسداً وضغناً لما خص الله تعالى به العرب من أخذه رسوله منهم » [٣] . ولما وجدوه من استقرار الأمرله ونجاح دعوته وازدياد أتباعه يوماً بعد يوم . وكانوا يظنون أن قريشاً لن تمهله إلا ريثما تعد العدة للقضاء عليه ، فلما نصره الله يوم بدر ازدادوا حقداً وحسداً وأخذوا يظهرون عداوتهم بالتحريض عليه والكيد له . « وانضاف إليهم رجال من الأوس والخزرج ممن كان بقى على جاهليته فكانوا أهل نفاق على دين آبائهم .. وكانت أحبار يهود هم الذين يسألون رسول الله ﷺ ويتعنتونه ويأتون باللبس ليلبسوا الحق بالباطل فكان القرآن ينزل فيهم فيما يسألون عنه إلا

---

(١) السيرة النبوية ، المجلد الأول . نصوص المعاهدة ص ٥٠١ : ص ٥٠٤ .

(٢) كانت هذه المعاهدةقبل أن تفرض الجزية على أهل الكتاب ، وكان لليهود إذ ذاك نصيب فى المغنم إذا قاتلوا مع المسلمين . حكاه السهيلى فى الروض الأنف (جـ ٢ ص ٢٥٠) عن أبي عبيد .

(٣) السيرة النبوية ، المجلد الأول ص ٥١٣ .

قليلاً من المسائل فى الحلال والحرام كان المسلمون يسألون عنها » (١) .

وفى أحد أظهروا الشماتة بالمسلمين وحاولوا التشكيك فى صدق نبوته ﷺ ثم حزبوا الأحزاب للقضاء عليه يوم الخندق ، فكان ما كان من حرب النبى لهم وإجلائهم عن المدينة .

٢ - ومع احتمال ضياع كثير من الشعر اليهودى فإن ما تبقى منه فى كتب السيرة وغيرها يكفي لتسجيل بعض وجوه الصراع بينهم وبين المسلمين فى عهد النبوة.

ففى بدر شارك كعب بن الأشرف أحد أحبار اليهود -وكان رجلاً من طيىء ثم أحد بنى نبهان، وكانت أمه من بنى النضير - قريشاً في بكاء قتلاها ، وفى التحريض على الثأرمن المسلمين . روى ابن إسحق أنه لما سمع البشارة بانتصار المسلمين من زيد بن حارثة مبعوث الرسول إلى أهل السافلة وعبد الله بن رواحة مبعوثه إلى أهل العالية قال: «أحق هذا ؟ أترون محمداً قتل هؤلاء الذين يسمى هذان الرجلان » ؟ وأضاف : « فهؤلاء أشراف العرب وملوك الناس ، والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطنُ الأرض خير من ظهرها » . (٢) .

ومما قاله فى ذلك عينيته التي مطلعها :

« طَحَنتْ رَحَى بدرٍ لمَهْلِكِ أهله	ولِمثْلِ بدرٍ تَسْتهلُ وتَدْمعُ » .

وقد أكثر فيها من الندب والعويل على طريقة الجاهليين ، وبالغ فى تأبين القتلى :

« قُتِلتْ سَراةُ النَّاسِ حولَ حِياضِهِم	لا تَبْعَدوا إنَّ المُلــــوكَ تُصرَّعُ
كم قد أُصيبَ به مِن ابيضَ ماجــدٍ	ذى بَهْجةٍ يأوِى إليــــه الضُيَّعُ
طَلْقُ اليدينِ إذا الكواكبُ أخْلَفتْ	حَمَّالُ أثقالٍ يَســـــودُ ويَربَعُ
ويقولُ أقوامٌ أُسَرُّ بســـــخْطِهِــم	إنَّ ابنَ الاشرَفِ ظلَّ كَعْباً يَجزَعُ
صَدَقوا فليتَ الأرضَ ســاعةَ قُتِّلوا	ظلتْ تَسوخُ بأهلِهـــا وتُصَدَّعُ ».

وفيها يستخدم لازمة قديمة تتكرر كثيراً فى شعر الرثاء : « لا تبعدوا » ، ويساير المشركين فى إيمانهم بقدرة الكواكب على التحكم في إرسال المطر ومنعه وهو ما نهى عنه الإسلام وحكم بكفر صاحبه ، وذلك قوله : « طلق اليدين إذا الكواكب أخلفت» أى امتنعت عن إنزال المطر أوصرفته . وفيها أيضاً يكشف عن مدى حقده ، وهو حقد دفين

---

(٤)السيرة النبوية - المجلد الأول ص ٥١٣ . (٢) السيرة النبوية ، المجلد الثانى ، ص ٥١ .

مستحكم لهؤلاء الأقوام - يعني المسلمين - الذين يسره سخطهم .

ويمضى كعب بعد ذلك فى ذكر أسماء بعض القتلى كأبى الحكم عمرو بن هشام - وقد اضطره الشعرإلى تغيير كنيته إلى أبى الحكيم - وعتبة وشيبة ابنى ربيعة ثم يشير إلى الحارث بن هشام ويعول عليه فى إعداد العدة ولَمّ شمل قريش للثأر والانتقام من أهل يثرب ، وقد حرص على ذكرها باسمها القديم ، وجعل قتال المشركين من أجل الثأر حماية ودفاعاً عن الأحساب :

« نُبِّئْتُ أنَّ الحارثَ بنَ هشامِهم ... فى النَّاسِ يَبنِى الصَّالِحاتِ ويَجْمعُ
ليزورَ يَثْربَ بالجُموعِ وإنَّما ... يَحْمِى على الحَسَبِ الكَرِيمُ الأروَعُ » .

وواضح أن الشاعر قد أراد « أن يعبر عن نفسية يهودية فى تلك الفترة التى انطوت على الكراهية للمسلمين والحقد عليهم ، فعمد إلى العرب الوثنيين يحرضهم على الانتقام والقتال بأن خلع عليهم صفات العزة والمجد والشرف والكرم والحسب والنسب وأثار فيهم حمية الأخذ بالثأر والقتال، وبث فيهم روح الانتقام من المسلمين» .(1) وهى كما يقول الشايب : « نزعة يهودية تجمع بين عناصر الجنس والدين والوطن وتخشى أن يُفعل ببنى إسرائيل اليوم ما فعله الرومان من قبل ».(2) فتسعى لتخليص المدينة من المسلمين وتستحث قريشاً على الأنصار لإضعاف شأنهم وإعادة اليهود إلى ما كانوا عليه فى الجاهلية منذ عهد قديم (3) .

3 – رجع كعب بن الأشرف بعد ذلك إلى المدينة وأخذ يشبب بنساء المسلمين حتى

---

(1) شعر الرثاء فى صدر الإسلام - د . مصطفى عبد الشافى الشورى ، ص 45 .

(2) تاريخ الشعر السياسى ، ص 113 .

(3) ولذلك لم يكن غريباً أن ينزل أبوسفيان بكتيبته فى غزوة السويق بعد بدر مباشرة على أحد زعماء اليهود ، ويمكث عنده فترة ، ويجد لديه فوق مايطلبه من كرم الضيافة وحسن الاستقبال حتى ليقول فى ذلك :

« سقانى فروّانى كُمَيْتاً مُدامةً ... على عَجَلٍ منّى سَلامُ بنُ مِشْكَم
ولمّا تولّى الجيشُ قلتُ ولم أكنْ ... لأُفرحَه : أبْشِرْ بعزٍّ ومَغْنَم
تأمّلْ فإنّ القومَ سِرٌّ وإنّهم ... صَريحُ لُؤَىٍّ لا شَماطِيطُ جُرْهُمِ » .

السيرة النبوية لابن هشام ، المجلد الثانى ص 46 .

آذاهم فقال رسول الله ﷺ : من لى بابن الأشرف ؟ فقال له محمد بن مسلمة من بنى عبد الأشهل : أنا أقتله ، قال : فافعل إن قدرت ، فتحين له ابن مسلمة الفرصة واحتال حتى دخل حصنه مع مجموعة من رجاله ، ثم استدرجه خارج الحصن وقتلوه ، وكان حديث عهد بالزواج (١) . قال ابن مسلمة : « ورجعنا إلى أهلنا فأصبحنا وقد خافت يهود لوقعتنا بعدو الله فليس بها - أى المدينة - يهودى إلا وهو يخاف على نفسه» .(٢) وأمر ﷺ بقتل من ظفروا به من رجال اليهود . وفى السنة الرابعة من الهجرة أجلى النبي ﷺ بنى النضير لما حاولوا قتله بإلقاء صخرة عليه من فوق بيت لهم وكان قد ذهب إليهم يستعينهم فى دية قتيلين ، فخرجوا إلى خيبر ومنهم من سار إلى الشام . فقال سماك اليهودى فى إجلاء بنى النضير وقتل كعب بن الأشرف :

« إنْ تفخروا فهو فَخرٌ لكم بمقتلِ كَعْبِ أبى الأشرَفِ »(٣) .

يقولها فى الرد على أحد المسلمين - قيل إنه علىّ - فخر بمقتله وإجلاء قومه. وفيها يذكر سماك اجتماع المسلمين لقتل كعب، ويدافع عنه بأنه لم يغدر بعهده ولم يخلف وعده، ويرجو أن يديل الزمن من المسلمين ومن نبيهم العادل المنصف - يقول ذلك سخرية - بما فعله ببنى النضير وأحلافها وأمره بقطع النخيل وإحراقه عندما حاصرهم فتحصنوا منه :

« غداةَ غدوتمْ على حَتْفِه ولم يأتِ غَدْراً ولم يُخْلِفِ
فعَلَّ اللَّيالى وصَرْفَ الدُّهورِ يُدِيلُ مِن العادلِ المُنْصِفِ
بقَتْلِ النَّضيرِ وأحلافِها وعَقْرِ النَّخيلِ ولم تُقْطَفِ » .

ثم يتوعد المسلمين بالثأر . ويبدو أن أحبار يهود كانوا يخططون له وتتجه أنظارهم إلى الاستعانة بقريش - وهو ما حدث بالفعل فى العام التالي فى غزوة الأحزاب - حيث أشار الشاعر إلى أبى سفيان بن حرب ، وتقدمه لهذا الجيش الجرار مع أشياعه من قريش :

« فإنْ لا أمُتْ نأتِكم بالقَنا وكلِّ حُسامٍ معاً مُرهَفِ
بكفِّ كَمِيٍّ به يَحتَمِي متى يَلْقَ قِرْناً له يُتلِفِ
مع القومِ صَخْرٌ وأشياعُه إذا غاوَدَ القومَ لم يَضعُفِ» .

---

(١) السيرة النبوية ، المجلد الثانى ص ٥١ : ٥٧ وفيها قصة قتله كاملة .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٥٧ . (٣) المصدر نفسه ، ص ١٩٨ .

وفى قصيدة أخرى، يرد بها سماك على كعب بن مالك، يذكر ما أصابه من أرق وهم لما حل ببنى النضير، ويشير إلى إنكار الأحبار جميعاً لما حدث، ثم يمضى فى تعظيم هؤلاء الأحبار ويصفهم بغزارة العلم ؛ فهم خبراء فيه وهم الدارسون لكل ما جاءت به التوراة والزبور .

« أرِقْتُ وضافَنِي هَمٌّ كبيرُ — بليلٍ غيرُه ليــلٌ قصــيرُ
أرى الأحْبارَ تُنكِرهُ جميعاً — وكلُّهمُ له عِلْمٌ خَبــيرُ
وكانوا الدَّارسينَ لكلِّ عِلْمٍ — به التَّوْراةُ تَنْطِقُ والزَّبورُ » .(١) .

ويتخذ من مدحه للأحبار وتقديسه لهم مدخلاً للحديث عن سيدهم كعب والتهويل مماحدث له . ويصف مقتله وكيف غرر به محمود - يريد محمد بن مسلمة قاتله ،أو ربما أبا نائلة سلكان بن وقش فهو أخوه من الرضاعة - فأنزله من الحصن واستدرجه خارجه ثم غادره والدم يسيل على مدارعه ، ويرمى محموداً هذا بالفجور:

« تَدَلَّى نحوَ محمودٍ أخيهِ — ومحمودٌ سَرِيرتُه الفجُورُ
فغادَرَهُ كأنَّ دَماً نَجيــعاً — تَسيلُ على مَدارعِه عَبِيرُ » .

ويجعل من مقتل كعب مصاباً لبنى النضير كلها ، ويتوعد - كالعادة - بالثأر ، ويبالغ فى وعيده بالانتقام ، مشيراً إلى ما حدث للمسلمين يوم أحد على يد أبى سفيان ، فربما تكرر مثل هذا اليوم - فى تصوره - على يد يهود.

وقد شارك ابن مرداس شعراء يهود فى بكاء بنى النضير، وذكر ما حل بهم على أيدى المسلمين ، ودار بينه وبين خوات بن جبير وكعب بن مالك مناقضات فى ذلك ، عيروه خلالها برثائه لهؤلاء اليهود ومدحه لرجالهم . ويبدو أن ابن مرداس كان لا يزال إذ ذاك على الكفر ، وكانت له علاقات شخصية ببعض هؤلاء اليهود ، فهو يصف كيف كانت دورهم - قبل أن يحل بهم ما حل - ملهى وملعباً فيهانساء كالظباء يصبين الحليم المجربا، ويلقين من يحل بديارهن يبتغى الخيربوجوه كالدنانير ويبالغن فى إكرامه والحفاوة به . غير أنه ينكر فى آخر الأبيات أن يكون مولى لسلام بن مشكم أو حيى بن أخطب . ونحن لا نزعم أنه كان مولى لهم ، وإنما نستشف من الأبيات أنه كان يلم بهم ، أويكثر من النزول عليهم حتى ليكرموه مثل هذا الكرم ، وحتى ليصفهم بمثل هذا الوصف . يقول

---

(١) السيرة النبوية المجلد الثانى ص ٢٠٠ .

ابن مرداس :

« لو أنَّ أهلَ الدارِ لم يَتَصدَّعوا — رأيتَ خِلالَ الدَّارِ مَلْهَى ومَلْعبا
فإنَّكَ عَمْرِى هل أُريكَ ظعائناً — سَلَكنَ على رُكْنِ الشَّطاةِ فتَيأبا
عليهنَّ عِينٌ مِن ظِباءِ تَبالَةِ — أو انسُ يُصْبِينَ الحَليمَ الُمجرَّبا
إذا جاءَ باغِي الخيرِ قلنَ فُجاءةً — له بوجوهِ كالدَّنانيرِ مَرْحَبا
وأهلاً فلا مَمْنُوع خير طَلَبْتَه — ولاأنتَ تَخشى عندنا أنْ تُؤنَّبا
فلا تَحْسَبَنّى كنتُ مَوْلى ابْنِ مِشكَمٍ — سَلامِ ولا مَوْلَى حُيَىِّ بنِ أَخْطبا ».(١) .

٤ - فى السنة الخامسة من الهجرة كانت غزوة الخندق ومعها غزوة بنى قريظة . فماكاد النبي ﷺ يفرغ من أمرقريش وحلفائها حتى جاءه جبريل وأمره بالمسير إلى بنى قريظة حيث خانوا عهدهم معه ووقفوا بجانب قريش وانساقوا وراء إخوانهم من بنى النضير الذين حزبوا الأحزاب وأغروا المشركين بالقضاء على محمد ومن معه .

وكان لحيى بن أخطب زعيم بنى النضير دور كبير فى استمالة كعب بن أسد كبير بنى قريظة فلم يزل به حتى أغراه بنقض عهده مع النبى ﷺ ووعده بالدخول معه فى حصنه إذا رجعت قريش وغطفان وخلت بينه وبين المسلمين . وسارت قريظة خلف كعب ، فأرسل النبي ﷺ سعد بن معاذ مع ثلاثة رجال إليهم ليستجلوا أمرهم « فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم فيما نالوا من رسول الله ﷺ ، وقالوا : « من رسول الله ؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد . فشاتمهم سعد بن معاذ وشاتموه وكان رجلاً فيه حده فقال له سعد بن عبادة دع عنك مشاتمتهم فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة » (٢) .

فلماعادوا إلى النبى ﷺ وأبلغوه كبر ﷺ وقال : « أبشروا يا معشر المسلمين » . قال ابن إسحق : « وعظم عند ذلك البلاء واشتد الخوف وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم حتى ظن المؤمنون كل ظن ونجم النفاق من بعض المنافقين » (٣) .

وكاد النبى ﷺ يكاتب غطفان - فى محاولة للصلح - على ثلث ثمار المدينة لولا ما

---

(١) ديوان العباس بن مرداس السلمي - جمعه وحققه د . يحيى الجبورى - (المؤسسة العامة للصحافة والطباعة - دار الجمهورية ببغداد سنة ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م) ص ٣٨ ، ٣٩ .

(٢) السيرة النبوية ، المجلد الثانى ، ص ٢٢٢ .

(٣) المصدر نفسه والصحيفة .

أبداه سيدا الأوس والخزرج سعد بن معاذ وسعد بن عبادة من الرغبة في مواصلة الجهاد حتى يحكم الله بينهم وبين المشركين (١).

فلما فرق الله الأحزاب وصرفهم عن المدينة وأمر جبريل النبي بالمسير إلى بني قريظة حاصرهم النبي ، واستمر الحصار خمساً وعشرين ليلة حتى جهدهم الأمر وقذف الله في قلوبهم الرعب ، وأبى النبي ﷺ أن يفك الحصار حتى ينزلوا على أمره ، فلما نزلوا على أمره حكّم فيهم سعد بن معاذ فحكم بقتل الرجال وتقسيم الأموال وسبي الذراري والنساء .(٢) فقتل الرجال وكانوا نحو ستمائة أوسبعمائة ، والمكثر لهم يقول : كانوا بين الثمانمائة والتسعمائة وفيهم رأسا بني النضير وقريظة حيي بن أخطب وكعب بن أسد .

٥ – أما حيي فقد رثاه جبل بن جوال الثعلبي بقوله :

« لعَمْرُكَ ما لامَ ابنُ أخْطبَ نفسَه ... ولكنّه مَن يَخذُلِ اللّهَ يُخذَلِ
لجاهَد حتّى أبلغَ النّفسَ عُذْرَهـا ... وقَلْقَلَ يَبْغِي العِزَّ كلَّ مُقَلْقَلِ»(٣) .

وذلك أنه لماجيء به، مجموعة يداه إلى عنقه ، في حلة فقاحية قد شقهامن كل ناحية قدر أنملة لئلا يسلبها ، نظر إلى رسول الله ﷺ ثم قال : « أما والله ما لمت نفسي في عداوتك ولكنه من يخذل الله يخذل» ثم أقبل على الناس فقال : « أيها الناس ، إنه لابأس بأمر الله ، كتاب وقدر وملحمة كتبهاالله على بني إسرائيل ». (٤) وقد نثر الشاعر هذه المعاني في البيتين ، وكأن الشعر قد صار سجلاً يحتفظ فيه ـ على قصره ـ بما قاله المرثى

---

(١) وكان فيما قاله سعد بن معاذ يومئذ ـ وهي من مواقفه الرائعة في الإسلام ـ : « يارسول الله قد كنانحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى أو بيعاً ، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا ؟ والله ما لنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم » . السيرة النبوية ـ المجلد الثاني ، ص ٢٢٣ .

(٢) قال ابن إسحق: فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ عن علقمة بن وقاص الليثي قال : قال رسول الله ﷺ لسعد : « لقدْ حكَمْتَ فيهم بحكم اللهِ من فوق سبعةِ أرْقعَة » . أي من فوق سبع سموات . المصدر نفسه ص ٢٤٠ .

(٣) السيرة النبوية ، المجلد الثاني ، ص ٢٤١ . والبيت الأول بالإصابة جـ ١ ص ٢٥٩ .

(٤) المصدر نفسه والصحيفة .

عند الموت ، تبريراً لمواقفه ودفاعاً عن نفسه . وأضاف الشاعر من عنده أن مسعى حيي بين القبائل وتأليبه لها على المسلمين كان جهاداً - حسب زعمه - ورغبة في تحقيق العز . وأظنه يعني عز يهود لا عز حيي فحسب . فهو يعطي إذن تفسيراً واضحاً لموقف اليهود وبخاصة يهود بني النضير في صراعها مع المسلمين بعدما أصيبوا به من ضعف ، وتعرضوا له من إجلاء على يد النبي ﷺ وأتباعه من المسلمين .

وقد بكى جبل بن جوال أيضاً بني النضيروقريظة في قصيدةأخرى رد بها على حسان ، وأشار فيها إلى حكم سعد بن معاذ في يهود بني قريظة ، وقارن بين موقفه وموقف عبد الله بن أبي بن سلول ، حيث وقف مع حلفائه من بني قينقاع حين غدروابعهدهم مع النبي ﷺ بعد غزوة بدر وفضحوا امرأة مسلمة وقتلوا رجلاً من المسلمين فلماحاصرهم النبي ﷺ ونزلوا على حكمه قام إليه عبد الله بن أبي وقال : « يا محمد أحسن في مواليّ» .وظل به حتى حال بينه وبين قتلهم (١) . أما سعد فلم يلتفت إلى ولاء بني قريظة للأوس وحكم فيهم بما سبق أن ذكرت من القتل والسبي . يقول جبل :

« ألا يا سعدُ سعدَ بني مُعاذٍ ... لِما لَقِيتْ قُرَيظةُ والنَّضِيرُ
لعَمْرُكَ إنَّ سعدَ بني مُعاذٍ ... غداةَ تَحَمَّلوا لهو الصَّبورُ
فأمَّا الخَزْرَجيُّ أبو حُبابٍ ... فقالَ لقَيْنُقاعٍ لا تَسيروا » . (٢) .

ويشير الشاعرإلى ما حل باليهود بعد حكم سعد فيهم ، ويعدد أسماء بعضهم من ذوى المكانة والشأن كسلام بن الحقيق وقد قتله النبى كما قتل كعب بن الأشرف ، وسعية وابن أخطب ، ويمتدح فى هؤلاء وفي غيرهم من سادة يهود الشجاعة والمكانة العالية والثبات على المجد :

« وبُدِّلَتِ المَوالي مِن حُضَيرٍ ... أُسَيداً والدَّوائرُ قد تدورُ
وأَقْفَرتِ البُوَيرَةُ مِن سَلامٍ ... وسَعْيَةَ وابنِ أَخْطَبَ فهْيَ بُورُ
وقد كانوا ببلدتِهم ثِقالاً ... كما ثَقُلَتْ بمِيطانَ الصُّخورُ
فإنْ يهلِكْ أبو حَكَمٍ سَلامٍ ... فلا رَثُّ السِّلاحِ ولا دَثُورُ

(١) السيرة النبوية ، المجلد الثانى ص ٤٨ .

(٢) السيرة النبوية ، المجلد الثانى ص ٢٧٢ ، وهي بالحماسة الصغرى لأبي تمام ص ١٧٣ رقم (٢٧٨) في ستة أبيات غير منسوبة مع اختلاف يسير في الرواية .

وجَدْنا المَجْدَ قد ثَبتوا عليه   بمَجْدٍ لا تُغَيِّبُهُ البـدورُ » .

ثم يصب جام سخطه على الأوس ، حيث لم يراعوا ما بينهم وبين بنى قريظة من ولاء ، ويرميهم بالخزى والذل ؛ خزى الدهر وذله ، حيث لم ينفع ولاؤهم شيئاً ، ونفع الولاء غيرهم يوم ابن أبيّ :

« أقيموا يا سَرَاةَ الأوْسِ فيها   كأنّكم مِن المَخْزاةِ عُورُ

تركتم قِدْرَكُم لا شيءَ فيها   وقِدْرُ القومِ حاميةٌ تَفورُ » .

وكأنه يضرب الأوس بالخزرج ، أويحرك ما بينهم من إحن ، على نحو ما كانوا يفعلون منذ عهد قديم .

٦ – وأثناء ذلك رثى المسلمون سعد بن معاذ ، وكان قد رُمى بسهم يوم الخندق قطع أكحله فدعا ربه : « اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقنى لها ، فإنه لاقوم أحب إلى أن أجاهدهم من قوم آذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه ، اللهم وإن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعله لى شهادة ولا تمتنى حتى تقر عينى من بنى قريظة» .(١) واستجاب الله له فلم يمته حتى شهد بنى قريظة وحكم فيهم ، واهتز العرش لموته ، ولم يهتز لأحد غيره (٢) .

وقد أشار إلى ذلك رجل من الأنصار ، فقال فى رثائه له ـ من أبيات أظنها ضاعت

---

(١) السيرة النبوية ، المجلد الثانى ص ٢٢٧ .

(٢) يقول السهيلى فى اهتزاز العرش لموت سعد بعد أن أشار(ص٢٨) إلى ثبوت هذا الحديث من وجوه: « وقد تكلم الناس فى معناه، وظنوا أنه مشكل ، وقال بعضهم: الاهتزاز ها هنا بمعنى الاستبشار بقدوم روحه، وقال بعضهم: يريد حملة العرش ومن عنده من الملائكة، استبعاداً منهم لأن يهتز العرش على الحقيقة، ولا بُعْدَ فيه؛ لأنه مخلوق وتجوز عليه الحركة والهزة ، ولا يُعْدَلُ عن ظاهر اللفظ ما وُجد إليه سبيل. وحديث اهتزار العرش لموت سعد صحيح ، قال أبو عمر: هو ثابت من طرق متواترة، وما روى من قول البراء بن عازب فى معناه إنه سرير سعد اهتز لم يلتفت إليه العلماء، وقالوا كانت بين هذين الحيين من الأنصار ضغائن، وفي لفظ الحديث اهتز عرش الرحمن، رواه أبو الزبير عن جابر يرفعه، ورواه البخارى من طريق الأعمش عن أبي صالح وأبي سفيان كلاهما عن جابر يرفعه ورواه من الصحابة جماعة غير جابرمنهم أبو سعيد الخدرى وأسيد بن حضير ورميثة بنت عمرو، ذكر ذلك الترمذى»، الروض الأنف، جـ٣،ص٢٨٥،٢٨٦.

ولم يبق منها غير هذا البيت :

« وما اهتزَّ عَرْشُ اللَّهِ من موتِ هالكٍ سَمِعْنا به إلاَّ لِسعدِ أبى عَمْرِو » (١) .

ورثاه حسان بن ثابت بقصيدة قصيرة بدأها بالبكاء وملأها بالمعانى الإسلامية الجديدة كالموت على ملة الرحمن وإرث الجنة والشهادة ومكانة الشهداء . يقول حسان :

« لقد سَفَحتْ مِن دمعِ عينيكَ عَبرةٌ وحُقَّ لعينِى أنْ تَفيضَ على سعدِ
قَتيلٌ ثَوى فى مَعْرَكٍ فُجِــعتْ به عُيُونٌ ذَوارِى الدَّمعِ دائمةُ الوَجْدِ
على مِلَّةِ الرَّحمـــنِ وارثَ جَنَّةٍ مع الشُّهداءِ وَفْدُها أكرمُ الوَفْدِ» .(٢) .

ويذكر له موقفه من اليهود وحكمه فيهم ، وكيف وافق حكم الله . وأشار إلى أنه لم تأخذه فى الله لومة لائم ؛ فقد جاءه قومه من الأوس وذكروه بولاء هؤلاء اليهود فيهم وقالوا له : « أحسن فى مواليك فإن رسول الله ﷺ إنما ولاك ذلك لتحسن فيهم » . فلما أكثروا عليه قال : لقد آن لسعد أن لا تأخذه فى الله لومة لائم . فعرفوا ما أضمره من حكم وأنه لن يعفو عن هؤلاء يقول حسان :

« فإنْ تكُ قد ودَّعْتنا عن مــوَدةٍ وأمســيتَ فى غَبْراءَ مُظْلِمةِ اللَّحدِ
فأنتَ الَّذى يا سعدُ أُبتَ بمشــهَدٍ كريــمٍ وأثــوابِ المكارمِ والحَمْدِ
بُحكمِكَ فـى حَيَّىْ قُرَيظةَ بالَّذى قضى اللَّهُ فيهم ما قَضَيتَ على عَمْدِ
فوافَقَ حُكْمَ اللَّهِ حُكْمُكَ فيــهمُ ولم تَعْفُ إذ ذُكِّرْتَ ما كان مِن عَهْدِ » .

ويذكر بيعه للدنيا واشتراءه للأخرة وما فيهامن جنة الخلد ،فما أعظم هذا المصير، مصير الصادقين. وكأنه يعزى بذلك نفسه، ويعزى سائر المسلمين عن فقد ذلك الرجل العظيم :

« فإنْ كان رَيبُ الدَّهْرِ أمضاكَ فى الأُلَى شَرَوا هــذه الدُّنيا بجنَّاتِهِ الخُلدِ
فنِعْمَ مَصــيرُ الصَّادقــينَ إذا دَعَوا إلى اللَّهِ يوماً للوَجاهةِ والقَصْدِ » .

وهكذا تتراوح القصيدة بين الندب والتأبين والعزاء ، وتمتلئ بالمعانى الدينية الجديدة المفتقدة في شعر المشركين .

وقد رثته أمه أيضاً بأبيات أشبه بالنوح ، كلها بكاء وتأبين (٣) وهي التى قال فيها

---

(١) السيرة النبوية ، المجلد الثانى ، ص ٢٥٢ . (٢) ديوانه ص ١١٤ .

(٣) السيرة النبوية ، المجلد الثانى ، ص ٢٥٢ .

النبى ﷺ : « كلُّ نائحةٍ تَكْذِبُ إلاَّ نائحةَ سعدِ بنِ مُعَاذ» . (١) .

ونظراً لقلة قتلى المسلمين فى صراعهم مع اليهود قل الرثاء فى هذا الجانب بالقياس إلى مراثيهم فى حركة الصراع مع قريش ، وربما لأن هذا الصراع - وهو مع أهل كتاب - كان أهدأ أو أقل حدة من الصراع مع الكفار من عبدة الأصنام والأوثان وأهل الشرك .

وقد أبرز شعراء يهود فى مراثيهم - على قلتهـا أوقلة ما وصلنامنهـا - ما حل بهم من ضعف بعـد هجرة النبى ﷺ إلى المدينة ، ومـا أصـابهم من تفكك وتعرضوا له من نفى. وكانوا يعولون على قريش ، ويأملون أن يستمر الصراع بينها وبين المسلمين ، وكثيراً ما نفخوا فى الرماد وألبوا قريشاً ، كما حاول بعضهم التفريق بين الأوس والخزرج وإثارة ما أماته الإسلام من حزازات قديمة .

وقد جاءت مراثيهم - فى الأغلب الأعم - ناطقة باسم الجماعة ، وكانت تطل منها فى بعض الأحيان روح ساخرة ، بينما تطفح فى أحايين أخرى كثيرة بالحقد والمقت والغيظ. وقد حرصوا فى رثائهم لأحبارهم وذوى المكانة فيهم على تبرير مواقفهم وإضفاء هالة من التعظيم عليهم والنيل قـدر المستطاع من الإسلام والمسلمين . بينما ندد شعراء المسلمين بقتلى يهـود ورموهم بالغدر والخيانة فى رثائهم لسعـد بن معاذ ، وذكروا لسعد مواقفه الرائعة مع هؤلاء اليهود وموافقة حكمه فيهم لحكم السماء ونبهوا على ما ينبغى أن تكون عليه الحال مع هؤلاء اليهود من الحذر والحيطة وعدم الرفق بهم فهم ليسوا أهلاً للود وليسوا محلاً للشفقة بعدما كادوا للإسلام وأهله فى مواقف كثيرة ، وبعد أن فضحهم الله .

* * *

(١) المصدر نفسه والصحيفة .

فى الصراع مع القبائل العربية الأخرى

واجه النبى ﷺ والمسلمون الوثنية ممثلة فى قريش من ناحية وفى بعض القبائل العربية كثقيف وهذيل وغطفان من ناحية أخرى ، غير أن صراعه مع هذه القبائل كان أقل حدة من صراعه مع قريش ؛ فهى التى كانت تمثل الزعامة الدينية ، وهى التى اصطدم بها أول ما اصطدم فى مكة والمدينة، وقد آزرت بعض القبائل قريشاً كغطفان يوم الخندق، وردت ثقيف النبىَّ رداً قبيحاً حينماتوجه إليها يدعوها للدخول فى دين الله، وغدرت هذيل بأصحاب الرجيع ، وبعضُ بنى عامر وسليم بأصحاب بئر معونة . ثم لما تحولت قريش عن الوثنية ودخل الإسلام مكة سارعت قبائل كثيرة ممن كانت تعتنق الوثنية إلى الدخول فى دين الله بغير قتال كما صورت سورة النصر ، وكان ذلك في العام التاسع من الهجرة وهوعام الوفود .

وفى الفترةالتي تلت الفتح حاصر المسلمون الطائف ، وخاضوا معركة من أعنف المعارك مع هوزان ، وهى معركة حنين . وبانتصار المسلمين فى هذه المعركة وبدخول ثقيف فى الإسلام ومسارعة القبائل العربية للدخول في دين الله حسم الصراع بين الإسلام والوثنية في عهد النبى ﷺ .

وإلى جانب هذا الصراع مع الوثنية كان هناك صراع آخر مع الدول الأجنبية المجاورة بدأه النبى ﷺ فى السنة الثامنة بمعركةمؤتة ،ثم تبوك فى السنة التاسعة ، وفيها قاتل المسلمون الروم وبعض القبائل العربية التى كانت تابعة لهم من لخم وجذام والقين وبهراء وبلى . وهوصراع دينى فى بعض جوانبه ؛ حيث كان هؤلاء الروم أصحاب دين وكان قتال المسلمين لهم من أجل تأمين حدود دولة الإسلام الناشئة ونشر دين الله .

١ — في العام الثالث من الهجرة وبعد غزوة أحد جاء رهط من العضل والقارة - وهمامن الهون بن خزيمة بن مدركة - إلى الرسول ﷺ في المدينة وقالوا : « يارسول الله إن فينا إسلاماً فابعث معنانفراً من أصحابك يفقهوننا فى الدين ويقرئوننا القرآن ويعلموننا شرائع الإسلام » فبعث معهم النبي ﷺ ستة من أصحابه (١) . على رأسهم مرثد بن أبي مرثد الغنوى ، فما إن وصلوا الرجيع - وهوماء لهذيل بناحية الحجاز - حتى

(١) في صحيح البخارى ، جـ ٣ ، ص ٢٨ ما يدل على أنهم كانوا عشرة .

غدروا بهم واستصرخوا عليهم هذيلاً ، فلم يرعهم وهم فى رحالهم إلا الرجال بأيديهم السيوف قد غشوهم ، فلماهموا بالقتال حاول الهذليون استمالتهم وقالوا : « إنا والله ما نريد قتلكم ولكنا نريد أن نصيب بكم شيئاً من أهل مكة » فأما ثلاثة فقالوا : « والله لا نقبل من مشرك عهداً ولا عقدا أبداً » . فقاتلوهم فقُتلوا ، وأما ثلاثة آخرون فقد أعطوا بأيديهم، فلما كانوا بالطريق ثار أحد الثلاثةفقتل وبقى اثنان هما زيد بن الدثنة وخبيب بن عدى ، فقدموا بهما مكة فباعوهما من قريش بأسيرين من هذيل فقتلتهما قريش.(١)

فقال حسان بن ثابت يرثى هؤلاء القتلى جميعاً :

« صلّى الإلهُ على الّذينَ تتابَعوا ... يومَ الرَّجيعِ فأُكرموا وأُثيبوا
رأسُ الكتيبةِ مَرثَدٌ وأميرُهم ... وابنُ البكَيْرِ أمامَهم وخبيبُ
وابنٌ لِطارقَ وابنُ دثْنَةَ منهمُ ... وافاهُ ثَمَّ حِمامُه المكتوبُ
والعاصِمُ المقتولُ عندَ رَجيعِهم ... كَسَبَ المَعالِي إنَّه لكَسوبُ
منعَ المقادةَ أنْ ينالوا ظَهْرَه ... حتَّى يُجالِدَ إنَّه لنَجيبُ »(٢).

وقدحرص حسان فى هذه المقطوعة على ذكر أسمائهم وتحديد قائدهم والغزوة التى قتلوا فيها ، كما استمد من المعانى الدينية الجديدة قدرية الموت فبين أنه مكتوب ، وقيمة الشهادة فى سبيل الله فذكر الكرامة والثواب ، وصلاة الإله على الشهداء .

وذكر فى أبيات ثلاثة سفاهة قريش فيما صنعت بخبيب حيث نكلت به وبالغت فى التنكيل ، وبين أن ما حدث كان دليلاً على فقد قريش لتوازنها وغياب الحلم والحلماء عنها . وخص من عظمائها الذين غابوا فلم يشهدوا ذلك اليوم المطعم بن عدى ابن أخت أنس بن عباس السلمى ، فلو وجد مثل هذا القرم ما حل بخبيب ما حل :

« لو كان في الدَّار قِرْمٌ ذو مُحافَظَةٍ ... حامِي الحَقيقَةِ ماضٍ خالُه أنَسُ
إذاً حَلَلتَ خُبَيبٌ منزلاً فَسِحاً ... ولم يُشَدَّ عليكَ الكَبْلُ والحَرَسُ
ولم يَسُقْكَ إلى التَّنعيمِ زِعنِفةٌ ... مِن المَعاشِرِ مِمَّن قد نفتْ عُدَسُ » (٤) .

وواضح من الأبيات أن قريشاً كانت قد سجنت خبيباً فترة - حتى تنتهى الأشهر الحرم - ثم ساقته إلى التنعيم حيث صلب .

---

(١) السيرة النبوية ، المجلد الثانى ، ص ١٦٩ : ١٧٣ .
(٢) ديوانه ص ١٧٣ ، ١٧٤ .
(٣) المصدر نفسه ص ٣٨١ .
(٤) المصدر نفسه ص ٢٢٦ .

وفي قصيدة أخرى بكى خبيباً وبين منزلته في الأنصار ونبل خلقه ثم أشار إلى صلب قريش له وتوعدهم بالثأر :

« يا عينُ جُودِي بدمع منكِ مُنْسكِبِ ... وابْكِي خُبَيباً مع الغـادِينَ لـم يَؤُبِ

صقراً تَوسَّطَ في الأنصـارِ مَنصِبُه ... حُلْوَ الشَّجِيَّةِ مَحْضـاً غيـرَ مُؤْتَشَبِ

قد هاجَ عينِي على عَلاتِ عَبْرَتِـها ... إذ قِيلَ نُصَّ إلى جِـذْعٍ مِـنَ الخَشَبِ

يا أيُّها الرَّاكِبُ الغـــادِي لِطِيَّتِـه ... أَبْلِغْ لديكَ وَعِيداً ليـسَ بالكَـذِبِ

بني كُهَيفَةَ إنَّ الحربَ قد لَقِحَـتْ ... محلُوبُها الصـابُ إذ تُمْرَى لُمحتَلِبِ

فيـــها أُسودُ بَنِي النَّجَّارِ يَقْدُمُهم ... شُهْبُ الأسنَّةِ في مَعْصَوصبٍ لَجِبِ » (١)

ثم سخر بمن كان سبباً في مقتل خبيب وهو الحارث بن عامر ، وعير بنيه بسرقته لغزال الكعبة ، وهوغزال من ذهب ، سرقه الحارث في الجاهلية . وأشار إلى دعوة خبيب حين نصوه على الجذع حيث قال : « اللهم أحصهم عدداً واقتلهم بدداً ولاتدع على الأرض منهم أحداً » .

وكان خبيب نفسه قد رثى نفسه قبل أن يموت بقصيدة شهيرة شك ابن هشام في نسبتها له، وهي مليئة بالمعاني الدينية وحب لقاء الله والأسى على ما يصنع الكفار به(٢).

والملاحظ أن ما قيل من رثاء لقتلى الرجيع - وأكثره في خبيب - قد توجه إلى النيل من قريش لا من هذيل - على الرغم من أن هذيلاً كانت أولى بالنيل منهاوالتوعد والذم - لأن قريشاً كانت الطرف الأول في الصراع مع المسلمين في تلك الفترة الباكرة ، وهي العدو التقليدي ،وهي التي بالغت في تعذيب خبيب وقتله ، وأكثر مراثي الرجيع فيه. غير أننا لا نعدم شعراً آخر يهجو هذيلاً بما صنعت وبين غدرها بهؤلاء الشهداء ، منه قول حسان :

« أَبْلِغْ بني عمرٍو بأنَّ أخـاهمُ ... شَرَاهُ امْرُؤٌ قد كان للغَدرِ لازِمـا

شراهُ زُهيرُ بنُ الأغَرِّ وجـامعٌ ... وكانا قديماً يَرْكَبانِ المحارِما

أَجَرْتُم فلمَّـا أنْ أجَرْتُم غـدرتمُ ... وكنتُم بأكْنافِ الرَّجيعِ لَهازِمـا

(١) ديوانه ص ٢٢٤ ، ص ٢٢٥ .

(٢) السيرة النبوية ، المجلد الثاني ، ص ١٧٦ ، ١٧٧ / ديوان حسان ص ٢٢٧ .

فلو حَذِرَ القومُ الَّذينَ غـدرتمُ بهم جمعكُم لم يَرْجع الجَمْعُ سـالما
فليتَ خُبَيباً لم تَخُنْهُ أمانـةٌ وليتَ خُبَيباً كان باللُّؤم عالمـا » (١) .

وقوله :

« إنْ سَرَّكَ الغَدْرُ صِرفاً لا مِزاجَ له فَأْتِ الرَّجيعَ وسَلْ عن دارِ لحيـانِ
قومٌ تَواصَوا بأكلِ الجارِ كلّهـمُ فخَيْرُهم رَجُلاً والتَّيسُ مِثْـلانِ
لو يَنْطِقُ التَّيسُ ذو الخِصْيَين بينَهمُ لكان ذا شَرَفٍ فيهم وذا شـانِ » (٢) .

وقد فضحهم فى قطعة أخرى بسؤال وفدهم لرسول الله ﷺ أن يبيح لهم الزنا(٣).

وركز فى قطعة رابعة(٤) على عاصم بن الأقلح الذي حمته الدبر أو بالأحرى حمت جثته فلم تصل إليها هذيل وكانت تنوى أن تبيع رأسه لامرأة بمكة كان عاصم قد قتل ابنيها يوم أحد وكانت هى قد نذرت أن تشرب فى قحف رأسه ـ إن أمكنها الله منها ـ الخمر ، فظلت الدبر تحميه حتى احتمله الوادى ولم تعثر عليه هذيل .

٢ — وفى السنة الرابعة وبالتحديد فى صفر قدم أبو براء عامر بن مالك بن جعفر الملقب بملاعب الأسنة على رسول الله ﷺ ، فعرض عليه الرسول الإسلام ودعاه إليه ، فلم يسلم ، ولكنه فى الوقت نفسه لم يبعد عن الإسلام ، وطلب من النبي ﷺ أن يرسل معه رجالاً من أصحابه لدعوة أهل نجد ، وكان يظن أنهم سوف يستجيبون لهذه الدعوة ، وأعطى النبيَّ ﷺ عهداً بالحفاظ على هؤلاء الرجال وقال : « أنا لهم جار » فاستجاب له النبى وأرسل المنذر بن عمرو فى جمع من خيار المسلمين عد منهم ابن إسحق عامر بن فهيرة ونافع بن بديل بن ورقاء الخزاعي والحارث بن الصلت وحرام بن ملحان وعروة بن أسماء بن الصلت السلمي . فساروا حتى نزلوا ببئر معونة (٥) . فلما نزلوها بعثوا أحدهم

---

(١) ديوان حسان بن ثابت ص ٢١٨ . (٢) المصدر نفسه ص ١٥٣.

(٣) المصدر نفسه ص ٣٧٣ بيت واحد فى الإضافات التي لم ترد فى النسخة الأم . وفى السيرة ـ المجلد الثانى . ص ١٨٠ ضمن أربعة أبيات .

(٤) ديوان حسان ص ٢٥٩ .

(٥) وهي بين أرض بنى عامر وحرة بنى سليم ، كلا البلدين منها قريب ، وهى إلى حرة بنى سليم أقرب . السيرة النبوية ، المجلد الثانى ، ص ١٨٤ .

بكتاب رسول الله ﷺ إلى عامر بن الطفيل فغدر بصاحبه وقتله ، ثم استصرخ بنى عامر على هؤلاء المسلمين فلما أبوا أن يجيبوه لإجارة عامر بن مالك لهم استصرخ عليهم قبائل من بنى سليم من عصية ورعل وذكوان فأجابوه إلى ذلك وأحاطوا بالوفد فى رحالهم ثم قاتلوهم حيث قتلوهم كلهم إلا كعب بن زيد تركوه وبه رمق فارتث من بين القتلى وعاش حتى قتل يوم الخندق [1] . فقال حسان بن ثابت يبكى هؤلاء القتلى ويذكر غدر ابن الطفيل ومن تابعه من قبائل بنى سليم ، ويخص المنذر بن عمرو رأس الوفد وأميرهم بالذكر :

« على قتلى مَعُونةَ فاستَهِلِّى ... بدمع العينِ سَحّاً غيرَ نَزْرِ
على خيلِ الرَّسولِ غداةَ لاقَوا ... مناياهُم ولاقَتْهم بقَدْرِ
أصابَهمُ الفَناءُ بحبلِ قومٍ ... تُخُوِّنَ عقدُ حَبْلِهمُ بغَدْرِ
فيا لَهفِى لُمنْذِر إذ تولَّى ... وأعنقَ فى مَنيَّته بقَبْرِ
فكائنْ قد أُصيبَ غداةَ ذاكُم ... مِن ابيضَ ماجِدٍ مِن آلِ عَمْرو» . [2]

وقال فى رثاء نافع بن بديل :

« رَحِمَ اللَّهُ نافعَ بنَ بُدَيلٍ ... رحمةَ المُشْتهِى ثَوابَ الجِهادِ
صابِراً صادِقَ الحَديثِ إذا ما ... أكثرَ القومُ قالَ قَوْلَ السَّدادِ» [3] .

وواضح أن حساناً يصدر فى تأبينه لابن بديل عن الروح الدينية الخالصة حيث يدعو له بالرحمة ويمدحه بالصبر وصدق الحديث وسداد القول ويبين أن ما صنعه كان جهاداً في الله يبتغى به الأجرالمثوبة .

ومثل هذا نجده فى رثائه للمنذر بن عمرو[4] ؛ حيث يدعو له بالرحمة فى أسلوب خبرى إنشائى يتكرر كثيراً فى رثاء المسلمين الأوائل وهوعبارة : « صلى الإله» ويذكر صدق بلائه فى الله واختياره للموت فى سبيله ، وتفضيله له على الحياة مع الذل أو إعطاء مايبغى المشركون من كلمة الكفر .

---

(١) السيرة النبوية ـ المجلد الثانى ، ص ١٨٣ : ص ١٨٥ .
(٢) ديوانه ص ٢٢٩ ، ٢٣٠ .
(٣) ديوانه ص ١٧٣ . وهى في السيرةالنبوية ، المجلد الثانى ، ص ١٨٨لعبد الله بن رواحة .
(٤) ديوانه ص ٣٩٢ .

وفى رثاء المنذر بن عمرو هذا تقول أخته :

« أعينُ ألا ابكِى علـى المُنذرِ بسَجْلٍ غزيرٍ ولا تفتُـرى
وبكِّى ابْنَ عَمرٍو أخا المكْرُماتِ وذا المجدِ والنَّسَبِ الأطـهَرِ
وبكِّى ابْنَ عَمْرٍو أخا الصَّالحاتِ وذا الحَسَبِ الواضحِ الأزْهرِ » (١) .

وهى تبكيـه بما تبكى بمثله النساء منذ الجاهليـة من الكرم والمجد والنسب الطاهر والحسب الواضح وتضيف من المعانى الإسلاميـة الحرص على الأعمال الصـالحة . ثم تعم بالبكاء من قتلوا معه وتبين كيف غدر بهم عـامر بن الطفيل ومن تابعه من بنى بهثة وبنى جعفر وتصفهم بالذئاب وتصفه بالشقوة والفتك والغدر والمنكر والخبث والعور :

« وبكِّى على فِتْيةٍ صـابَروا كِـرَامِ الضَّرائبِ والعُنْصُرِ
تَعاوَتْ عليهم ذِئابُ الحِجازِ بنو بُهْثَةٍ وبنـو جَعْفَرِ
يقودُهمُ عامِرٌ ذو الشَّقـاءِ وذو الفَتْكِ والغَدْرِ والمُنْكَرِ
فلو حَذِرَ القومُ تلكَ الجُموعَ جُموعَ أبى الخَبْثَةِ الأعـْوَرِ
لألْفَوا لُيُوثاً غداةَ اللّقـاءِ وما زالَ منهـم بمُسْتَنْكَرِ » .

أما كعب بن مـالك فقد عير بنى جعـفر بن كلاب بخفرة بنى سليم لإجـارة عامر بن مالك(٢). وكأنه يحرضهم على القتال ليضرب بعضهم بعضاً، أو ينفس عـما يشعر به من غيظ وضيق لما حل بهؤلاء الشهداء سواء ممن غدر بهم أو من أجار فلم تنفع إجارته .

٢ — بعـد أن فـتح الله لنبيّه والمسلمين مكة دعـا مـالكُ بن عـوف النضـرى هوازن فاجـتمعت إليه ومـعها ثقيف كلهـا ونصر وجشم وسـعد بن بكر وبعض بنى هلال وهى قبائل من قيس عـيلان ، وغاب عنه فلم يحضر من هوازن كعب وكلاب . فلمـا اجتمعوا إليه سار بهم يبغى رسول الله ﷺ وسلم حتى نزل بأوطاس . وكان مـعه دريد بن الصمة الجشمى وهـو آنذاك « شيخ كبير ليس فيه شىء إلا التيـمن برأيه ومعرفتـه بالحرب وكان شيخاً مجرباً » (٣) . فلمـا سمع بهم رسـول الله ﷺ بعث إليـهم من يستكشف أمـرهم ، واستعد لقتالهم بعشرة آلاف من أصحـابه الذين تم على أيديهم فتح مكة وألفين ممن أسلم

---

(١) ديوان حسان بن ثابت ـ ت . د . سيد حنفي حسنين ص ٢٣٣ .

(٢) ديوان كعب بن مالك ، ص ٢٧٨.

(٣) السيرة النبوية ، المجلد الثانى ، ص ٤٣٧ .

من أهل مكة يوم الفتح ، مكو اثنى عشر ألفاً . ولنـدع شاهد عيان يصف ما حدث فى بداية المعـركة ، يقول جـابر بن عبـد الله : « لمااستـقبلنا وادى حنين انحـدرنا فى واد من أودية تهامة ..... وفى عـماية الصبح ، وكان القوم قد سبقونا إلى الوادى فكمنوا لنا في شعابه وأحنائه ومضـايقه وقد أجمعوا وتهيئـوا وأعدوا فوالله ما راعنا ونحن منحطون إلا الكتـائب قـد شدوا علينا شـدة رجل واحد وانشـمـر الناس راجـعين لا يلوى أحـد على أحد»(1) ولم يثبت إلا رسول الله ﷺ في عـدد قليل من أصـحابه فـأخـذ ينادى : « أين الناس ؟ هلمـوا إليَّ أنارسول الله أنا مـحمد بن عـبد المطلب ». وأخـذ العباس يـردد خلفه وكان جهيرالصوت ، حتى عاد المسلمون . وأبلى الأنصار يومذاك بلاء حسناً وأنزل الله ملائكـته فانقلب مـيزان المعـركة وتحـقق النصر للمـسلمين . وقتل من قـتل من هوزان إلى جانب الأسرى والفارين . (2) .

وكان فيمن قتل دريد بن الصمة ، قتله رجل من سليم ،فقالت ابنته عمرة ترثيه :

« قالوا قتلنا دُرَيداً قلتُ قد صـدقوا فظلَّ دمعي عـلى السِّرْبالِ يَنْحَدِرُ
لولا الَّذى قهرَ الأقـوامَ كـلَّهـــــمُ رأتْ سُـلَيمٌ وكَعْبٌ كيــفَ تَأْتَمِرُ
إذنْ لصبَّحَهُم غِبّاً وظــــــاهِرَةً حيثُ استَقرَّتْ نَواهُم جَحْفَلٌ ذَفِرُ » (3) .

وهي تشير إلى ما كان له من بطولات فى الجاهلية حيث كان أحد فرسانها المعدودين فلولا مـا حل بالقوم من هزيمة ومـا حل به من موت لعلم قـاتلوه من كعب وسليـم كيف يكون الأمر وإذن لظـل يغزوهم يوماً بعـد يوم . وفى مقطوعـة أخرى(4) تذكر عـمرة ما كان لأبيها من أياد على سليم ، فـلكم دافع عنهم فى أحرج اللحظات ، ولكم أعتق منهم وفك أسـراهم من الوثاق، ولكـم أجاب صـريخـهـم فـى وقت الشـدة فكان جزاؤه منهم عقوقاً وجزاؤها وجزاء أبنائه هَمّاً طويلاً .

ونلاحظ أنها لا تذكر الإسلام ولاتنال من المسلمين ، وربماتكون قد أسلمت فى ذلك الوقت ، وإنماتصب سخطهـا على سليم باعـتـبار أن قـاتله منهم ، وكـأن المسـألة عندها

(1) السيرة النبوية ـ المجلد الثانى ص ٤٤٢ ، ص ٤٤٣

(2) المصدرنفسه ـ ص ٤٣٧ . ٤٤٥ .

(3) المصدرنفسه ص ٤٥٤ / الدر المنثور ص ٣٥٢ .

(4) السيرة النبوية ـ المجلد الثانى ـ ص ٤٥٣ ، ٤٥٤ ، والدر المنثور ص ٣٥١ ، ص٣٥٢ .

مجرد صراع قبلى لا صراع بين وثنية ودين سماوى . ولكن هذا الغضب الذي تحظى به قبيلة بنى سليم قد يشير إلى ما كان لهذه القبيلة من دور فيما حل بهوازن وثقيف من هزيمة وانكسار وقد أشار العباس بن مرداس السلمى في أكثر من موضع إلى هذا الدور وذكر أن عددهم كان لا يقل عن ألف رجل وأن النبى كان يقدمهم أمام الصفوف ويجعل منهم دريئة للجيش، وأنهم لم يلتفتوا إلى ما بينهم وبين هو ازن من قرابة ـ على اعتبار أن الفريقين من قيس ـ نظراً لما جاء به الإسلام من مفاهيم جديدة للأخوة فى الله بدلاً من العصبية القديمة. (١) لكن ذلك كله كان فى معرض الفخر لا الرثاء .

أما سلمة بن دريد فقد أشار في أبيات ثلاثة إلى أن ما حل به من مصاب لا يمكن أن ينسى ، فقد أنسته حليلته يوم الهزيمة كل شيء إلا المصاب . وهو لا يزال يذكر كيف دافع عنها ـ وكان مالك بن عوف حين خرج للقتال قد أخرج معه النساء والأطفال والأموال ليكون ذلك أدعى للاستماتة فى القتال وسفه دريد بن الصمة رأيه ـ وقد فر الرجال عن نسائهم حتى لقد كان الابن يفر عن أمه ، ويفر الخليل عن خليـله:

« نسَّيتِني ما كنتُ غيرَ مُصابِة ... ولقد عرَفْتِ غـداةَ نَعـْفِ الأظْرُبِ

أنّي منعتُكِ والرُّكوبُ مُـحَبَّبٌ ... ومشَيْتُ خَلْفَكِ مثل مَشْيِ الأنكَبِ

إذ فَرَّ كلُّ مُهـذَّبٍ ذى لِمَّةٍ ... عـن أُمِّهِ وخليـلِه لم يَعْقُبِ ».(٢) .

وحين هزم المشركون فر بعضهم إلى الطائف ومعهم مالك بن عوف ، وعسكر بعضهم بأوطاس وتوجه بعضهم نحو نخلة ، فحاصر النبى الطائف ، وأرسل أبا عامر الأشعرى في آثار من توجه قِبَل أوطاس فأدركهم وناوشهم وناوشوه حتى رُمِى بسهم فقُتل، رماه أخَوَانِ « العلاءُ وأوفى ابنا الحارث من بنى جشم بن معاوية ، فأصاب أحدهما قلبه والآخر ركبته فقتلاه ، ووَلِيَ الناسَ أبوموسى الأشعرى فحمل عليهما فقتلهما » .(٣) .

فقال رجل يرثيهما ويمجد صنيعهما فى أبي عامر وقتلهما له :

« إنَّ الرَّزيَّةَ قتلُ العَلاءِ ... وأوفَى جميعاً ولم يُسنَدا

---

(١) ديوان العباس بن مرداس ـ ت. د . يحيى الجبورى ص ٣٣، ٣٤/ ٥٠: ٥٢/ ٥٤، ٥٥/ ٥٦، ٥٧/ ٧٣، ٧٤/ ٧٧: ٧٩/ ٨١، ٨٢/ ٨٩، ٩٠/ ١٠٣/ ١٥٤.

(٢) السيرة النبوية ـ المجلد الثانى ، ص ٤٥٦ ، ص ٤٥٧ .

(٣) نفسه ص ٤٥٧ .

هُما القاتلانِ أبا عــــامرٍ وقد كان ذاهبَّةَ أرْبَـــدا
هُما تركاهُ لــدى مَعْرَكٍ كأنَّ على عِطْفِه مُجْسَداً
فلم ترَ في النّاسِ مثْلَيهما أقلَّ عِثاراً وأرْمَى يَداً (١) .

وفى هذه الغروة أيضاً قُتل زهير بن العجوة الهذلى ، رآه جميل بن معمر الجمحى بين الأسرى مكتفاً وكانت بينهما إحنة فى الجاهلية فقال له : أأنت الماشى لنا بالمغايظ ؟ فضرب عنقه ، فرثاه أبو خراش بقصيدة بدأها بالتفجع ووصف صاحبه بالكرم وأنه كان مأوى للضعفاء وكان بيته ملاذاً للغرباء وذوى الحاجة . وكأنه يظهر بهذا الوصف مدى الفجيعة التى حلت بقومه حيث قتل صاحب هذه الصفات كلها ، وربما أراد أن ينحت له تمثالاً - بالشعر - لتبقى صورته محفورة فى الوجدان ، لا تهتز ولا تزول . وهو لا يخرج فى وصفه عما درج عليه الجاهليون وشعراء قريش والمشركين فى صدر الإسلام ويبدو أنه كان فى ذلك الوقت حديث عهد بالإسلام ؛ حيث يذكر أنه قد حيل بينه وبين الثأر :

« فليسَ كعهدِ الدّارِ يا أُمَّ مـالِكٍ ولكنْ أحاطتْ بالرِّقابِ السَّلاسِـــلُ
وعادَ الفَتَى كالكَهْلِ ليسَ بقائلٍ سِوَى العدلِ شيئاً فاستَراحَ العَواذِلُ. » (٢) .

لكن جميلاً لم يسلم من لسانه ، فقد عيره فى القصيدة ذاتها بالجبن ، وبأنه قد استغل وقوع زهير فى الأسر فقتله مقيداً ، وأنه لو لاقاه غير موثق لقتله زهير وترك لحمه بالجزع جزراً للضباع .

« فواللّهِ لو لاقَيتَهُ غيرَ مُوثَقٍ لآبَكَ بالجِزْعِ الضِّباعُ النَّواهِـلُ
وإنَّكَ لو واجَهْتَهُ إذ لقيتَـه فنازَلْتَهُ أو كنتَ ممَّنْ يُنـــازِلُ
لظلَّ جَميلٌ أسْوأَ القــومِ تَلَّةً ولكنَّ قِرْنَ الظَّهْرِ للمَرْءِ شاغلُ » .

وهذه النغمة الجاهلية نجدها أيضاً فى رثائه له فى مقطوعة أخرى من ثلاثة أبيات ،

---

(١) السيرة النبوية ، المجلد الثانى ، ص ٤٥٧ ، وقد نسبت فى ص ٤٧٦ مع اختلاف يسير فى الرواية لامرأة من بنى جشم .

(٢) ديوان الهذليين (الدار القومية للطباعة والنشر - القاهرة سنة ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥ م) القسم الثانى شعر أبى خراش ، ص ١٥٠ ، السيرة النبوية - المجلد الثانى ص ٤٧٣ مع اختلاف فى الألفاظ .

يتبدى له الصراع فيها بين هذيل - قبيلة القتيل - وقريش - قبيلة القاتل - لابين الوثنية والإسلام ويذكر أنه ما كان يخشى من قريش أن تصيب منهم دون أن يثأر لقتيلهم ، ويتوعد فى البيت الأخير قريشاً غير آبه بمالهم من حرمة الإسلام ، يقول أبو خراش :

« أفِي كلِّ مُمْسَى ليلـةٍ أنا قائلٌ ... مِن الدَّهرِ لا تَبْعَدْ قتيلَ جَميـلِ

فماكنتُ أخْشَى أن تنالَ دماءَنا ... قُرَيشٌ ولمَّا يُقتَلُوا بقتيـلِ

وأبْرَحُ ما أُمِّرْتمُ ومَلَكْتُمُ ... يدَ الدَّهرِ مالم تُقْتَلُوا بغَليلِ » (١) .

وهكذا نجد أن العصبية القبلية كانت واضحة فى مراثى شعراء القبائل لقتلاهم يوم حنين وأنهم كانوا يسيرون فى هذه المراثى على النمط نفسه الذي كان يسير عليه شعراء قريش ولم نجد للمسلمين رثاء فى ذلك اليوم ؛ لقلة قتلاهم من ناحية (٢) ، ولأن هؤلاء القتلى لم يكونوا من ذوى الشأن من ناحية أخرى بخلاف أبى عامر الأشعرى الذي قتل فى أوطاس وابن أبى بكر الذى قتل فى حصارالطائف . وربما قيل فيهماشعر ولم يصلنا منه شيء ، وربما شغلهم النصر عن البكاء وذكر القتلى والشهداء .

٤ — في جمادى الأولى من السنة الثامنة بعث النبى ﷺ بعثه إلى مؤتة ، واستعمل عليهم مولاه زيد بن حارثة ، وقال : إن أصيب زيد فجعفر وإن أصيب جعفر فعبد الله ابن رواحة . وكان عدد الجيش ثلاثة آلاف ، ما إن سمع بهم هرقل حتى وضع بإزائهم مائة ألف من الروم . وضم إليهم من لخم وجذام والقين وبهراء وبلى مائة ألف أخرى ، ونزل المسلمون معان بينمانزل جيش الروم ومن تابعه من القبائل العربية مآب . وأقام المسلمون بمعان ليلتين يفكرون فى أمرهم بعد أن رأوا كثرة ما حشد الروم ، ورأوا أن يكتبوا إلى رسول الله ﷺ يستمدونه أو يرى فيهم رأيه . غير أن عبد الله بن رواحة أخذ يشجعهم ويمنيهم إحدى الحسنيين النصر أو الجنة ويذكرهم بأنهم لا يقاتلون بعدد ولا بقوة ولا كثرة وإنما يقاتلون بالدين الذى خرجوا من أجله ، فكانت موقعة من أشد المواقع قُتل فيها أمراء الجيش الثلاثة الواحد تلو الآخر ، ثم تولى الأمر خالد بن الوليد فدافع القوم

---

(١) ديوان الهذليين - القسم الثانى (شعر أبى خراش) ص ١٥٧ .

(٢) سمى ابن إسحق أربعة من المسلمين قتلوا يوم حنين ، عد من بينهم أبا عامر ، وذكر أن عدد القتلى يوم الطائف كانوا اثنى عشر رجلاً سبعة من قريش وأربعة من الأنصار ورجل من بنى ليث . السيرة النبوية ، المجلد الثانى ، ص ٤٥٩ ، ٤٨٧ .

وحاجز بينهم ثم انحاز حتى انصرف بالناس (١) .

وكثرت مراثي الشعراء في قتلى مؤتة ، وبخاصة أمراؤها الثلاثة زيد وجعفر وعبد الله؛ فهذا رجل ممن رجع من الغزوة سالماً يتحسر على رجوعه وبقاء هؤلاء الثلاثة فى رمس هناك ؛ فقد خلفوه للبلوى ومضوا لسبيلهم ، وكأنه لا يزال يراهم وهم يتقدمون إلى الموت ويستقبلونه في غير تردد أو خوف :

« كَفَى حَزَناً أَنِّي رجعتُ وجَعْفرٌ   وزيدٌ وعَبدُ اللَّهِ فى رَمْسِ أَقْبُرِ
قضَوا نَحْبَهم لمَّا مضَوا لسبيلِهم   وخُلِّفْتُ للبلوَى مع المُتَغبِّرِ
ثلاثةُ رهطٍ قُدِّموا فتقدَّموا   إلى وِرْدِ مكروهٍ مِن الموتِ أَحْمَرِ » (٢) .

ورثاهم كعب بن مالك بقصيدة طويلة صور فيها ما حل به وبالمسلمين من حرج وهم ودعا لهم بالرحمة ولقبورهم هنالك بالسقيا :

« نامَ العيونُ ودمعُ عينِكَ يَهْمُلُ   سَحّاً كما وَكَفَ الطِّبابُ المُخْضَلُ
واعتادَني حزْنٌ فبِتُّ كأنَّني   ببناتِ نَعْشٍ والسِّماكِ مُوكَّلُ
وكأنَّما بينَ الجَوانحِ والحَشا   مِمَّا تأوَّبَني شِهابٌ مُدْخَلُ
وجْداً على النَّفَرِ الَّذينَ تتابعوا   يوماً بمُؤْتَةَ أُسْنِدوا لم يُنْقَلوا
صلَّى الإلهُ عَلَيْهِمُ مِن فِتيَةٍ   وسقى عظامَهمُ الغَمامُ المُسْبِلُ » (١) .

وذكر صبرهم على البلاء وتقدمهم الصفوف وكيف كانوا فى القتال كفحول الإبل وقد تغطت بالحديد :

« صَبَروا بمُؤْتَةَ للإلهِ نفوسَهم   حَذَرَ الرَّدَى ومَخافَةً أن يَنْكُلوا
فمضَوا أمامَ المسلمينَ كأنَّهم   فُنُقٌ عليهِنَّ الحديدُ المُرْفَلُ » .

ثم وقف مع جعفر وقفة طويلة استمرت حتى آخر القصيدة ، مجد فيها إقدامه ، واقتداء الجند به وصور مقتله وما حل بالكون بعد هذا القتل ؛ فقد تغير القمر المنير وكسفت الشمس حتي كادت تأفل وكأن الكائنات جميعها تشارك المسلمين فى حزنهم

---

(١) السيرة النبوية ـ المجلد الثانى ص ٣٧٣ : ص ٣٨٠ .

(٢) السيرة النبوية ، المجلد الثانى ص ٣٨٨ .

(١) ديوان كعب بن مالك ت . سامى مكى العانى ص ٢٦٠ ؛ ٢٦١ .

ولا غرابة ؛ فقد كان قرماً عالياً من قروم بنى هاشم وهم من هم مكانة بين الناس . وانتقل كعب فى تأبينه لجعفر من الحديث عنه باعتباره شخصاً مفرداً إلى الحديث عن قومه بنى هاشم وبيان ما لهم من فضل . وهذه الأبيات تذكرنا بمراثى الشيعة أو ربما وجد فيها الشيعة فيما بعد بذوراً لمنهجهم فى الرثاء .

ومثل هذه البذور نجدها عند حسان أيضاً فى رثائه لجعفر حيث يقول :

« وكنّا نَرَى فى جـعْفَرٍ مِن محـمَّدٍ	وفاءً وأمـــراً حازماً حينَ يأمُرُ
ومازالَ فى الإسْلَامِ مِن آلِ هاشـــمٍ	دعائـــمُ عزٍّ لاَ تَزولُ ومَفــْخَرُ
همُ جَبلُ الإسْلامِ والنَّاسُ حولَهـــم	رِضامٌ إلـــى طَوْدٍ يروقُ ويَقْهرُ
بَهاليـــلُ منهم جَعْفَرٌ وابنُ أُمِّـــهِ	علىٌّ ومنهم أحمــــدُ المُتَــخَيَّرُ
وحمزةُ والعبّاسُ منهـــم ومنهــــمُ	عَقيلٌ وماءُ العُودِ مِن حيثُ يُعْصـرُ
بهم تُكْشَفُ الأَواءُ فى كلِّ مـــأْزِقٍ	عَماسٍ إذا ما ضاقَ بالقومِ مَصْـدرُ
هـــمُ أوليـــــاءُ اللّهِ نَزَّلَ حُكْمَه	عليهم وفيهم والكِتابُ المُطَهَّرُ »(١) .

وهى آخر القصيدة ،وفى بدايتها ذكر الهموم واعتيادها له ، والعبرات المسفوحة لذكرى هؤلاء الثلاثة الذين تتابعوا يوم مؤتة - وهم من خيار المسلمين - وخلفوه فيمن خلفوا .

وعلى طريقتهم فى الرثاء دعا ألا يبعدهم الله ، وسمى جعفراً ذا الجناحين ، وهو اللقب الذى خلعه عليه رسول الله ﷺ حيث قال فيما رواه عنه عكرمة عن ابن عباس :

«دخلتُ الجَنّةَ البارحةَ فرأيتُ جَعْفراً يَطيرُ مع الملائكةِ وجَناحاه مُضرَّجانِ بالدَّم »(٢) وقيل إن الله قد أبدله هذين الجناحين بيديه اللتين قطعتا وهو يحمل الراية(٣). ثم ذكر

---

(١) ديوانه ص٢٢٤ وقد شك المحقق في مقدمة الديوان فى نسبة هذه الأبيات إليه واعتبرها مما صنعه الشيعة على لسانه ،على الرغم من إيراده لها - اعتماداً على الأصول - فى الشعر الصحيح.

(٢) الروض الأنف جـ ٤ ، ص ٨٠ . وفى البخارى جـ ٣ ، ص ٥٨ :«..عن عامر قال كان ابنُ عُمَرَإذا حيّا ابنَ جَعْفرٍ قالَ السّلامُ عَلَيْكَ يا ابْنَ ذى الجَناحَيْن » .

(٣) السيرة النبوية ، المجلد الثانى ، ص ٣٧٨ / الروض الأنف جـ ٤ ، ص ٨٠ .

حسان زيداً وعبد الله وعاد مرة أخرى إلى جعفر ووصفه بالشجاعة ويمن النقيبة والطهارة وبين كيف مات غير موسد بموقعه شرسة تتكسر فيها القنا ، ووصفه مرة أخرى بأنه كنصل السيف مضاء ، كما وصفه بالإباء ، وجعل ثوابه مع المستشهدين فى الجنان .

وكما حرص على تلقيب جعفر بما لقبه به رسول الله ﷺ فى هذه القصيدة نراه فى مقطوعة أخرى - يخلع على زيد هذا اللقب الحبيب الذي عرف به فى الإسلام وهو «حِبُّ رسولِ الله » . يقول حسان :

« عينُ جُودِي بدمعِكِ المَنْزورِ   واذكرى في الرَّخاءِ أهلَ القُبورِ
واذكرى مُؤْتَةً وما كان فيهـا   يومَ راحـُوا في وَقْعـةِ التَّغْويرِ
حينَ ولَّوْا وغَادَروا ثَمَّ زيـْداً   نِعْمَ مَأْوَى الضـَّريكِ وَ المَأْسُورِ
حِبُّ خيرِ الأنامِ طُرّاً جميـعاً   سيِّدَ النَّاسِ حُبُّه فى الصُّدورِ »(١).

ولخص ما حل بالمسلمين جميعاً من مصاب فى هؤلاء القتلى الثلاثة حين قال فى آخر المقطوعة :

« قد أتانا مِن قتلِهم ما كفانا   فبحُزْنٍ نَبِيتُ غيرَ سُرورِ » .

ودافع فى قصيدة أخرى - وربما كان هذا مما وضع عليه (٢) - عن عبد الله بن رواحة وهو من الخزرج حيث رُوِى أنه قد تردد عند استقبال الموت (٣) ، فذكر حسان أنه لم يضق بالموت وأنه لم يلبث بعد صاحبيه إلا ريثما يلبث من يحاول اللحاق بمن سبقوه فيعجله هذا عن وضع السرج على ظهر حصانه .

ولم نجد في مؤته رثاء للروم أو لقتلى من شارك معهم من القبائل العربية ، وإنما وقف ما ورد إلينا من رثاء فى هذه الغزوة على المسلمين ، وكان جله فى أمرائها الثلاثة وهو

---

(١) ديوانه ص ٢٢١ ، ص ٢٢٢ .

(٢) هذه القصيدة لم يروها ابن حبيب وقال العدوى : يقال إنها منحولة ، وقد أثبتها محقق الديوان فى الشعر الصحيح لأنها قرئت على الأثرم . وهى بالديوان ص ١١٢ ، ١١٣ .

(٣) السيرة النبوية ، المجلد الثانى ، ص ٣٧٩ ، ص ٣٨٠ .

فى مجمله يصور ما حل بالمسلمين من هزيمة ويمجد صنيع هؤلاء الأمراء الثلاثة ويبين صبرهم وحسن بلائهم واستقبالهم للموت فى غير تردد أو خوف ، وكأنهم القدوة التى ينبغى أن توضع أمام الفاتحين إذا ماانساحوا بعد فى الآفاق ينشرون دين الله ويرتطمون بأعتى الجيوش ؛ جيوش الفرس والروم وغيرهما فى بلاد الشرق والغرب على السواء .

* * *

الفصل الثانى
عهد الخلفاء الراشدين

- فى حروب الردة وحركة الفتوحـــــات .
- فى وفاة النبى (ﷺ) وخليفتـــــــــــه .

أبى بكــــــر وعمر (رضى الله عنهما) .



شهد العهد الممتد من وفاة النبى ﷺ إلى تولى بنى أمية أحداثاً سياسية هامة ، منها ما يتعلق بالسياسة الداخلية للدولة ، ومنها ما يتعلق بالسياسة الخارجية .

ومن هذه الأحداث حروب الردة التى كادت تعصف بالدولة الإسلامية الناشئة عقب وفاة الرسول ، وامتداد حركة الفتوحات فى عهد أبى بكر وعمر عثمان حتى شملت بلاد الفرس وما وراء النهر فى جهه الشرق ، وبلاد الشام ومصر وإفريقية فى جهة الغرب ، ثم مقتل عمر وما أعقبه من فتنة أطاحت بعثمان ، وصراع بين على ومعاوية أو بين بنى هاشم وبنى أمية ، وانقسام بين المسلمين أنفسهم ، وحروب من أجل الخلافة كحرب الجمل وصفين ،والتحكيم وما نشأ عنه من فرق سياسية .

وقد واكب الرثاء كل هذه الأحداث وسجل ما كان فيها من صراع. وسوف نتناول فى هذا الفصل الرثاء فى حروب الردة وحركة الفتوحات ، وفى وفاة النبى ﷺ وخليفتيه أبى بكر وعمر . أماالفتنة فسوف نفردلها فصلاً خاصاً - هوالفصل الثالث - لأهميتها وما ترتب عليها ، ولكثرة ما بها من أحداث .

فى حروب الردة وحركة الفتوحات

١ - ما إن تولى أبو بكر الخلافة حتى واجهته مشكلة من أخطر المشاكل التى واجهت الدولة الإسلامية وكادت تعصف بها من الداخل وهى مشكلة المرتدين ؛ حيث ارتدت القبائل العربية التى كانت حديثة عهد بالإسلام ، ولم يتعمق الإسلام نفوس أبنائها ، ورأت فى الزكاة ضريبةً أو إتاوةً ، وفى طاعة الخليفة وأمرائه تبعية لقريش، وهم لم يعتادوا مثل هذه التبعية من قبل فنفسوا على قريش مكانتها وتحللوا من طاعة الخليفة، وامتنعوا عن أداء الزكاة وادعى بعضهم النبوة ، وهاجم بعضهم المدينة ، وتربص بعضهم بولاة الحكومة طرداً وتقتيلاً. فى الوقت الذى كان أبو بكر فيه مشغولاً بتجهيز جيش أسامة وتأمين حدود الجزيرة، فرأى ألا يعطل هذا الجيش لأمر النبى ﷺ من ناحية وإرهاباً للمرتدين من ناحية أخرى ، ورفض المساومة على الزكاة وقال كلمته المشهورة : « واللهِ لو منعونى عقالاً كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه». وأمَّن الأوضاع فى المدينة ، ثم أعد أحد عشر لواء ، وعين على كل لواء قائداً من أمهر قواده، وحدد لكل لواء جهته ، ولكل قائد مهمته ، فى دقة وبراعة . وأبلى هؤلاء

القـــواد ـ وبخاصة خـالد بن الوليد ـ بلاء رائعاً فى إخماد الفتنة وإعـادة الجزيرة إلى ما كانت عليه قبل وفاة النبى فى مدة وجيزة تدعو إلى الإعجاب والدهشـة ، وتشير فى صراحة إلى قـوة أبى بكر وصلابته وقدرته على مـواجهة الأحداث ، ورسوخ العـقيدة والثقة بالله ، والإيمان بنصره وإعلاء كلمـته فى نفوس من قاتل معه ضد هؤلاء المرتدين على الرغم من الـصعـاب التى واجـهـتـهـم وقلة عـددهم وعـدتهم وشـراسـة المرتدين وكثرتهم . (١) .

٢ ـ دارت بين المسلمين والمرتدين معارك كثيـرة ، وسقط فى هده المعارك عدد غير قليل من القتلى وخصوصاً فى معركة اليمامة ، أعنف معارك المرتدين على الإطلاق .

وكنا ننتظر أن تخلف هذه المعـارك مراثى كـثيـرة تتناسب وكثـرة القتلى من ناحـية وخطورة الأحداث من ناحية أخرى . لكن ما ورد إلينا من رثاء خاص بالردة قليل .

وربما كان لقصر الفترة التى استغرقتها حركة الردة والقضاء عليها وانتصار المسلمين فى أغلب المعارك دور فى قلة هذاالرثاء . والمعـقول أن يكون الرثاء فى جانب المرتدين أكثرمن رثاء المسلمين؛ لكـثرة قتلاهم وتوالى هزائمهم . والمعقول أيضـاً أن يضيع أكثر هذا الرثاء إذا كـان فيه نيـل من الإسلام والمسلمين وحض على الثـأر وإعلاء للعـصبـية القبليـة ودعوى الجـاهلية بعـد أن عاد هؤلاء إلى الإسلام مـرة أخرى وأصبح من العار عليهم وجود مثل هذا الشعر .

على أن ما وصل إلينا من رثاء يصور ـ على قلته ـ بعض جوانب ما دار بين المسلمين والمرتدين من صراع . من ذلك قول الأشعث بن مـئناس السكونى يبكى أهل النجير ، وكـان أبو بكر قـد كـتب إلى المهـاجـر بن أمـيـة ـ أثناء حـصـاره لهم ـ مع المغيـرة بن شعبة:«... فـإن ظفرتم بالقوم فاقتلوا المقاتلة واسبوا الذرية إن أخذتموهم عنوة أو ينزلوا على حكمى فـإن جرى بينكم صلح قـبل ذلك فعلى أن تخـرجوهم من ديارهـم فإنى أكره أن أقـر قوماً فعلوا فـعلتهم فى منازلهم ليعـلموا أن قد أساءوا وليـذوقوا وبال بعض الذى أتـوا . (٢) فلم يُبق المهـاجرعلى أحـد من المقـاتلة وسبى الذرارى والنسـاء فقـال

---

١ – تاريخ الطبرى ت . محمد أبو الفضل إبراهيم جـ ٣ ، ص ٢٢٣ : ٣٤٢ .

٢ – المصدر نفسه ص ٣٣٧ .

الأشعث :

« لَعَمْرِى وما عَمْرِى علىَّ بهيّنٍ ... لقد كنتُ بالقتلى لَحَقٌّ ضَنينِ

فلا غَرْوَ إلاّ يومَ أُقْرِعَ بينَهم ... وما الدَّهْرُ عندى بعدَهم بأمينِ

فليتَ جُنوبَ النّاسِ تحتَ جُنوبِهم ... ولم تَمْشِ أُنثى بعدَهم لَجنينِ »(1) .

وحين ارتد بعض بنى تميم واختلف سادتهم حول أداء الزكاة أو منعها ، وشغل بعضهم بعضاً « فجئتهم سجاح بنت الحارث قد أقبلت من الجزيرة وكانت ورهطها فى بنى تغلب تقود أفناء ربيعة ... فأتاهم أمر دهى هو أعظم مما فيه الناس لهجوم سجاح عليهم ولما هم فيه من اختلاف الكلمة والتشاغل بما بينهم . (2) وفى ذلك يقول عفيف ابن المنذر :

« ألم يأتِيكَ والأنباءُ تَسْرِى ... بما لاقتْ سَراةُ بنى تَميمِ

تداعى مِن سَراتِهمُ رِجالٌ ... وكانوا فى الذَّوائبِ والصَّميمِ

وألجَوهم وكان لهم جِنابٌ ... إلى أحياء خاليةٍ وخِيمِ » (3) .

وهو يصور ما حل بسراة قومه بعد أن داهمتهم سجاح ، وكيف زُحزحت تميم عن مكانتها بتصديقها لتلك المرأة وسيرها فى ركابها ، وكانت كما هو معروف قد ادعت النبوة وتابعها خلق من قومها تعصباً لأنفسهم وحقداً على قريش .

وفى خبر أهل البحرين وردة الحطم بن ضَبَيعة ومن تجمع معه بالبحرين أنه حاصر جؤاثى حتى اشتد على المحصورين الحصر ، وفى المحصورين رجل يقال له عبد الله بن حذف أحد بنى بكر بن كلاب وكان شاعراً فقال يصور ما حل بالمسلمين من شدة وجوع ويستحث أبا بكر على تخليص جؤاثى من يد المرتدين والثأر لقتلى المسلمين ، وقد بالغ فى ذكر ما حل بهم من قتل :

« ألا أبلغْ أبا بكرٍ رسولاً ... وفِتْيانَ المدينة أجمعينا

فهل لكمْ إلى قومٍ كِرامٍ ... قُعودٍ فى جُؤاثَى مُحْصَرينا

---

(1) تاريخ الطبرى ت . محمد أبوالفضل إبراهيم جـ 3 ص 341 .

(2) المصدر نفسه ص 269 .

(3) المصدر نفسه والصحيفة .

كأنَّ دماءَهم في كلِ فجٍّ   شُعاعُ الشَّمسِ يَغشَى النَّاظرينا
تَوكَّلْنا على الرَّحمنِ إنَّا   وَجَدنا الصَّبْرَ للمُتوكِّلينا » (١).

واستشهد باليمامة عدد كبير من المسلمين ، منهم عبد الله بن المنذر بن الحلاحل فرثاه نافع بن الأسود بأبيات ثلاثة (٢)، صور فيها شجاعته وكرمه ومكانته ومصاب قومه فيه . وهو رثاء تقليدى لا يتطرق إلى الأحداث التى واكبت مصرع الشهيد أو التى أدت إلى إستشهاده أو ما نتج عن هذا الاستشهاد بالنسبة للفريقين المتصارعين من المسلمين والمرتدين لا بالنسبة إلى عشيرته الأدنين فحسب ، أو المبادئ والمثل التى من أجلها كان يقاتل ، والثواب العظيم الذى أعده الله للمجاهدين ، وقيمة الجهاد فى إعلاء كلمة الحق وإظهار الدين . كل هذه المعانى كنا ننتظرها فى رثاء المسلمين لشهدائهم يوم اليمامة . لكنى لم أقف من رثاء هذا اليوم إلا على تلك القطعة وهى محصورة فى معانيها على النحو الذى بينت (٣) .

٣ — ولعل أكثر من رُثى من المرتدين مالك بن نويرة حيث رثاه أخوه متمم بقصائد كثيرة على الرغم من أن متمماً لم يرتد ولم يتابع قومه فى قتال المسلمين . ويبدو أن الأخوة وما تمليه ، وحبه لأخيه كانا وراء هذا الرثاء ، بالإضافة إلى إحساسه الشديد بالعجز بعد أن فقد عائله ومعينه ؛ فقد كان متمم كما تقول الروايات :

« دميماً، قليل التصرف فى أمر نفسه اكتفاء بأخيه » .(٤) وكان لأخيه نعم كثيرة عليه،

---

(١) المصدر نفسه ص ٣٠٤ / الأغانى (ط . الدار) جـ ١٥ ص ٢٥٧ .

(٢) شعراء إسلاميون ت . د .نورى حمودى القيسى ، ط ٢ (مكتبة النهضة العربية - بيروت سنة ١٩٨٤ م) ص ٩٤ .

(٣) ولأبى الأسود الهزانى بيتان فى رثاء حبيب بن عبدالله رسول أبى بكر الصديق إلى مسيلمة الكذاب وفيها تعريض بمسيلمة ونيل منه ومن قبيلته كلها - من قُتل على الردة أو عاد مرة أخرى إلى الإسلام - لانتهاكهم دم هذا الرسول واستحلالهم قتله،يقول أبوالأسود:
« إنَّ قتلَ الرَّسولِ مِن حادثِ الدَّهرِ عَظيمٌ فى سالف الأيَّام .
بئسَ مَن كان مِن حَنيفَةَ إن كان مَضَى أو بَقى عَلَى الإسلام ».الإصابة، جـ ٤،ص٣٢.

(٤) — المفضليات للضبى ت أحمد شاكر وعبد السلام هارون ط ٤ (دار المعارف - القاهرة) ص ٢٦٣ هامش .

منها أنه خلصه ذات يوم من أسردام عاماً كاملاً فى زيارة واحدة للقبيلة التى أسرته.(١) وهذا يعنى أن المنطلق الدينى مفتقد فى رثاء متمم لأخيه، بل إنا وجدناه ـ على الرغم من تدينه ـ يتهم أبا بكر بالغدر. حدث ذلك بعد أن علم بمقتل أخيه على يد خالد بن الوليد فى موقعة البطاح ، فقد ذهب إلى المسجد الذى يصلى فيه أبو بكر وصلى الصبح خلفه، ثم وقف بحذائه بعد أن فرغ من الصلاة واتكأ على قوسه وأنشأ يقول :

« نِعْمَ القتيلُ إذا الرِّياحُ تَناوَحَتْ   خلفَ البُيوتِ قتلْتَ يابْنَ الأزْوَرِ
أدعوتَه باللّهِ ثمَّ غَدَرْتَــــه   لو هوْ دعـــاكَ بذمَّةٍ لم يَغْدُرِ »

وأشار إلى أبى بكر. فقال رضى الله عنه : « والله ما دعوته ولاغدرته ». وتابع متمم إنشاده حتى بكى . (٢)

وكان متمم كثير البكاء على أخيه ، سأله ذات يوم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : «ما بلغ حزنك على مالك »؟ قال :« بكيت عليه بعينى الصحيحة حتى أسعدتها بالبكاء

---

(١) — الأشباه والنظائر للخالديين ت . السيد محمد يوسف (لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٩٦٥ م) ج ٢ص٣٤٦ .

(٢) — المفضليات ص ٢٦٣ ، ص ٢٦٤ القصة كاملة . والأبيات كذلك بالعقد الفريد جـ ٤ ، ص ٢٦٢ ، ص ٢٦٣ . وهناك رواية تقول إن أبا بكرعزم على خالد ليقتلن مالكاً إن أخذه ـ وكان قد تيقن من ردته ـ فدعاه خالد أثناء قتاله له ولقومه إلى الإسلام وأعطاه ذمة الله وذمة رسوله وذمة أبى بكر وذمته أن يَقبل منه وألا يجاوز إليه « فأقبل مالك وأعطاه بيده وعلى خالد تلك العرضة من أبى بكر » فأمر بقتله ، واختلف معه المهاجرون ، وقالوا : «أتقتل رجلاً مسلماً » ؟ غيرضرار بن الأزور الأسدى فإنه قام فقتله .

شرح الحماسة للتبريزى ت. محمد محيى الدين عبد الحميد ج ٢ـص ٢٩٣ . وفى الحق أن الروايات قد اضطربت اضطراباً شديداً فى أمر مالك وخالد بن الوليد إلا أن هذه الرواية تعطينا تفسيراً للأبيات التى بين أيدينا وتوضح سبب اتهام متمم لأبى بكر رضى الله عنه، وتفسر من ناحية أخرى كثرة مراثى متمم فى أخيه فربما كان يعتقد فى قرارة نفسه أنه قُتل مظلوماً .

عينى العوراء » (١) . وكذلك مراثيه فهى تفيض بالحزن الشديد على أخيه والوجد الدائم والحنين لأيامه التى مضت وذكرياته الخالية معه . يصور ذلك أصدق تصوير قوله من قصيدة :

« أَبَى الصبرَ آياتٌ أراهـــا وأنَّنى أرى كلَّ حَبْلٍ بعدَ حَبْلِكَ أَقْطعا
أَقولُ وقد طارَ السَّنا فى رَبـــابه بجَوْنٍ يَسحُّ الماءَ حتَّى تريَّعـــا
سَقَى اللَّهُ أرضاً حلَّها قبرُ مـــالكٍ ذِهابَ الغَوادِى المُدْجِناتِ فأَمْرعا
لَعِشْنا بخير فى الحياةِ وقـــبلَنا أصابَ المنايا رَهْطَ كِسْرَى وتُبَّعا
وكنَّا كنَدْمانَىْ جَذِيـــمةَ حِقْبَةً مِن الدَّهْرِ حتَّى قيلَ لن يَتَصدَّعـا
فلمَّا تفرَّقْنا كأنِّى ومالكـــاً لِطولِ اجتماعٍ لم نَبِتْ ليلةً معا ».(٢)

فهو يحاول أن يتماسك أو يبدو كذلك فيعزى نفسه بأن الموت لايترك أحداً وأنه قد أصاب من قبل رهط كسرى وملوك اليمن ، إلا أنه لا يستطيع ؛ فلا تزال الأحداث تحرك أشجانه كلما نكأت قروح قلبه ، وهو بعد ذلك كله يشعر أن ما احتساه من حزن وتجرعه فى فقد أخيه أقل بكثير مما احتساه وتجرعه أخوه :

« فإنْ يَكُ حُزنٌ أو تَتابُعُ عَبْرَةٍ أَذابتْ عَبِيطاً مِن دَمِ الجَوْفِ مُنْقعاً
تَجرَّعتُها فى مالكٍ وَاحتَسيْتُها لَأَعْظَمُ منها ما احتَسَى وتَجَرَّعا » .

ويؤبن متمم أخاه - فى قصائد ومقطوعات كثيرة - بالخلال التى عكف شعراء الرثاء على تأبين موتاهم بها منذ القدم ؛ فيذكر شدته على الأعداء ورفقه بذوى قرباه وكرمه ومجده وصبره وعلمه وعفة خلقه واكتمال مروءته وعقله . (٣) « وإذا كانت هذه المعانى التى أَبَّنَ بها متمم أخاه قد عرفها العرب أيام الجاهلية واستمرت بعد ظهور الإسلام فإن هناك معانى أبطلها الإسلام ونهى عنها ومع ذلك فقد ذكرها متمم فى رثائه

---

(١) - الأشباه والنظائر جـ ٢ - ص ٢٤٦ ، ص ٢٤٧ ، أمالى اليزيدى ص ٢٤ ، ٢٥ . العقد الفريد جـ ٤ ص ٢٦٣ ، ص ٢٦٥ .

(٢) - الأشباه والنظائر جـ ٢ ص ٢٤٧ ، ص ٢٤٨ .

(٣) - المصدر نفسه ص ٣٤٩ ، ص ٣٥٠

لأخيه سائراً في ذلك على نهج شعراء الجاهلية دون أن يتأثر في شعره بالمبادئ الإسلامية ».(١) لذلك عده نالينو من شعراء البادية الذين لم يتأثر شعرهم بالإسلام. وهووإن كان مبالغاً في ذلك؛ فقد تأثر متمم كماتأثر شعراء عصره على تفاوت بينهم بالإسلام،إلاأنه يلمس جانباً هاماً في رثاء متمم لأخيه وهوأنه يرثيه على الطريقة الجاهلية برغم إسلامه. وربمادفعه إلى ذلك دفعا موت أخيه على الردة ، ومصرعه على أيدى المسلمين ، وكان متمم نفسه يقر بذلك - أعنى ردة أخيه - فقد تمنى عمر بن الخطاب ذات يوم أن يرثى أخاه زيداً - وكان زيد قد استشهد في موقعة اليمامة - كمارثى مالكاً فقال متمم : « والله لوعلمتُ أن أخى صاربحيث صار أخوك ما رثيته».(٢) أى لو نال الشهادة مثل زيد لتعزيت بذلك عن رثائه وهويذكرنا برثاء لبيد لأخيه الذى قتلته الصاعقة بعد أن دعا عليه النبى ﷺ (٣)؛ فكلاهماكان مدفوعاً في رثائه بعاطفة الحب لأخيه والوفاء له، إلا أنهما قد قُيدا بموت أخويهما على غير الإسلام ، فلم يجدا ما يقولانه غير المعانى القديمة يكررانها ، وغير البكاء والنحيب . وربما تطرق متمم بعض الشيء إلى الدفاع عن أخيه فاتهم أبا بكر وخالداً - كماسبق أن ذكرت - وحرض على قاتليه في مثل قوله :

« لَعَمْري وما دَهْرِى بتأبينِ هالكٍ ... ولا جَزِعٌ مما أصابَ فأوْجَعا

لقد كَفَّنَ المِنْهالُ تحتَ ردائه ... فتىً غيرَ مِبْطانِ العَشيّةِ أرْوَعا

ألم يأتِ أخبارُ المُحِلِّ سَراتَنا ... فيغضَبَ منها كلُّ مَنْ كان مُوْجَعا » ؟ (٤)

(١) شعر الرثاء في صدر الإسلام . د .مصطفى عبد الشافى الشورى ص ٨٣ . ومن المعانى التى أبطلها الإسلام وذكرها في شعره شربُ الخمر وضربُ القداح.المفضليات ص٢٦٥ ص٢٧٠.

(٢) المفضليات ص ٢٦٣ ، ص ٢٦٤ / أمالى اليزيدى ص ٢٦ وفيه « يا أمير المؤمنين إن أخاك مات مؤمناً ومات أخى مرتداً » .

(٣) الأغانى ص ٦١ : ٦٣ / الشعر والشعراء - ت . أحمد محمد شاكر جـ ١ ، ص ٢٨٤ ، ٢٨٥ / الكامل للمبرد جـ ٤ ، ص ٣١ وما بعدها .

(٤) شرح الحماسة للتبريزى جـ ٢ ، ص ٢٩٤ / العقد الفريد جـ ٤ ، ص ٢٦٤ .

وفى رثاء مجهول - لم يصرح باسمه المصدر واكتفى بقوله: « رجل من بنى حنيفة» - لمسيلمة الكذاب نراه يشير - بعد تلهفه الشديد عليه - إلى ما كان يُمَوّهُ به على أتباعه من التُّرهات معتبراً إياها آيات ، بل آيات واضحة كالشمس :

« لَهْفِي عليكَ أبا ثُمامَهْ لَهْفِي على رُكْنَىْ شَمامَهْ
كـم آيةٍ لك فيهـم كالشَّمْسِ تَطْلُعُ مِن غَمامَهْ»

وواضح أنه كان من أتباعه المؤمنين به وبأكاذيبه وافتراءاته ، إلا أن مثل هذه الأبيات التى تعبر عن إيمان هؤلاء المرتدين بما ذهبوا إليه واقتناعهم بما اقترفوه قليل ، وهى كما سبق أن ذكرت قد تعرضت - فيما أتصوره - للإهمال المتعمد من جانب أصحابه بعد عودتهم مرة أخرى إلى الإسلام ومن الرواة على السواء فأصابها الفقد وامتدت إليها يد البلى والضياع .

٤ - الإسلام دين للناس كافة لم يجئ من أجل أمة معينة ولا مكان دون آخر ولا زمان دون زمان. وقد أخبر الله عز وجل بأنه قد أرسل رسوله بهذا الدين ليظهره على الدين كله. لذا فقد بعث النبى ﷺ كتبه إلى الملوك والأمراء يدعوهم ويدعو شعوبهم معهم فالناس - على دين ملوكهم - إلى الدخول فى هذا الدين. وقد أجابه بعضهم إجابة رقيقة لينة وأغلظ آخرون وأساءوا إلى رسله وكان على النبى ﷺ بعد هذه الخطوة أن يعد الجيوش لإزالة القوى التى تحول بين الناس وبين الدخول فى دين الله فكانت حركة الفتوحات .

إذن فالنبى ﷺ هو الذى مهد لهذه الحركة ، وهو الذى حدد الجهات التى تنطلق منها بعد أن احتك بالروم فى مؤتة وتبوك ، وبجيش أسامة الذى كان قد أعده قبل أن يموت وأوصى بإنفاذه . وبعد أن احتك كذلك بالفرس فى السنة الثامنة .[1] لذلك وجدنا

(١) حيث أرسل العلاءَ بنَ عبد الله الحضرمى إلى البحرين ليدعو أهلها إلى الإسلام أو الجزية وكتب معه إلى المنذربن ساوى ، وإلى سيبخت مرزبان هجر ، فأسلما ، وأسلم معهما جميع العرب هناك وبعض العجم . وصالح أهل الأرض من المجوس واليهود والنصارى على الجزية ، وكانت البحرين آنذاك خاضعة لسلطان الفرس .

فتوح البلدان للبلاذرى - مراجعة رضوان محمد رضوان (دار الهلال ومكتبتها) بيروت ١٩٧٨م ص ٨٩.

أبا بكر رضى الله عنه وهو المتبع فى حكمه يوجه الجيوش إلى هاتين الجهتين بعد قضائه على الردة ، ليستكمل ما بدأه النبى ﷺ ، فينشر الإسلام فى تلك البقاع ، ويستغل نشاط العرب الحربى أروع استغلال فلا يكون بأسهم بينهم ، مثلما كان فى الجاهلية ، ومثلما كاد أن يكون فى حروب الردة لولا قضاؤه السريع عليها .

وقد تم فى عهده فتح العراق وبعض بلاد الشام. وواصل عمر المسيرة فأعاد ما ارتد من بلاد العراق وثبت أقدام المسلمين هناك وامتد بالفتح فى جهة الشرق فاستولى على المدائن عاصمة الفرس وأسقط ملكهم بها وفتح الرى وحلوان وقرميسين ونهاوند وهى المعروفة فى التاريخ بفتح الفتوح . وبعدها لم يلق كبير كيد فانطلقت جيوشه فى أطراف السواد وحازوا على تكريت وما سبذان وقرقيسيا ثم استطاعوا إسقاط خراسان واصطخر وفسا ودراخرد وكرمان ومكران ووصلوا الى السند ، وأمرهم عمر ألا يعبروا النهر فوقفوا عند هذاالحد بينما تمكنت قواته فى جهة الغرب من إخضاع الشام ومصر وبرقة وطرابلس . وفى عهد عثمان فتح سعيد بن العاص طبرستان فى جهة الشرق، وفتح عبد الله بن سعد بن أبى سرح والى مصر إفريقية (١) .

ثم انشغل المسلمون ـ فى عهد على ـ بالحروب الداخلية التى ولدتها الفتنة بعد مقتل عثمان .

---

١ – اعتمدنا فى تلخيص هذه الحركة على الكتب الآتية :

– البداية والنهاية لابن كثيرط٢(دار الفكر العربى ـ القاهرة ١٣٨٧ هـ) المجلد الثانى جـ ٣،٤ .

– تاريخ الطبرى.ت.د.محمد أبو الفضل إبراهيم ط٤(دار المعارف ـ القاهرة١٩٧٩م)جـ٣، جـ٤ .

– حركة الفتح الإسلامى فى القرن الأول ـ د. شكرى فيصل (دار العلم للملايين ـ بيروت ـ بدون تاريخ) صفحات متفرقة .

– شعر الفتوح الإسلامية فى صدر الإسلام – د . النعمان عبد المتعال القاضى (الدار القومية للطباعة والنشر ـ القاهرة ١٣٨٥هـ١٩٦٥م) ص ٣٠٩ : ٣١٦ .

– فتوح البلدان للبلاذرى ـ مراجعة رضوان محمد رضوان (دار الهلال ـ بيروت ـ ١٣٩٨هـ، ١٩٧٨م مواضع متعددة .

٥ – ومع هذا الانتشار العظيم للمسلمين فى الشرق والغرب دارت معارك كثيرة بينهم وبين أعظم دولتين فى ذلك العصر دولة الفرس ودولة الروم واصطدموا بعصبيات وقوميات وديانات مختلفة . وواكب الرثاء هذا المد فصور المعارك وما فيها ، والبطولات الفردية للشهداء ، والمثاليات التى ماتوا من أجلها ، والأجواء الأجنبية التى لم يألفوها والأماكن والبيئات التى يرونها لأول مرة والحنين الجارف لبلادهم التى فارقوها ، والغربة الشديدة والإحساس الحاد بالموت وقرب الآجال . وظهرت فيه أشكال جديدة فيها يرثى الشاعر نفسه أو ما فقد من أعضاء .

وربما كانت هذه الأشكال قديمة (١) ، لكنها شاعت وكثرت فى حركة الفتوحات مع كثرة ما فقدوا من أعضائهم فى المعارك المختلفة وشدة إحساسهم بالغربة وافتقاد الأهل .

وقد أنطقت هذه الحركة شعراء لم يقولوا شعراً من قبل ، أو لم يعرفوا به ، فبرزت أسماء لم نكن نسمع عنها مثل « نافع بن الأسود بن قطبة التميمى وعمرو بن مالك الزهرى وحسان بن المنذر الضبى والأعور الشنى وكثيّر النهشلىّ وزهير بن عبد شمس البجلىّ وغيرهم . كما أنها أنطقت قوماً بالشعر ولم تكن لهم سابقة فى ميدانه ، حتى ليخيل إلينا أن الفاتحين جميعاً قد استحالوا شعراء فى هذه الفتوح » . (٢) وكانت الجبهة الشرقية أغزر شعراً وأكثر شعراء من سائر الجبهات. وقد علل الدكتور النعمان القاضى

---

(١) ظهرت منها نماذج فى الجاهلية مثل رثاء الشنفرى ليده وهى التى مطلعها :

« لا تَبْعَدِ ى إمَّا هَلَكْتِ شامهْ　　فَرُبَّ وادٍ نَفَّرتْ حَمامَهْ » .

الطرائف الأدبية ـ عبد العزيز الميمنى (لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٩٣٧ م) ص ٤٠ . وقد وقفنا عليها فى دراستنا لشعر العبيد . ورثاء يزيد بن خذاق لنفسه ومطلعها :

« هل للفتَى مِن بَناتِ الدَّهْرِ مِن واقى　　أم هل له مِن حِمامِ الموتِ مِن راقِى» ؟

الشعر والشعراء جـ ١ ، ص ٣٩٣ / العقد الفريد جـ ٣ ، ص ٣٤٤ . ونسبت فى المفضليات (المفضلية رقم ٨٠) إلى الممزق العبدى وكلاهما جاهلى . إلا أن هذه النماذج ـ وخاصة رثاء الأعضاء ـ كانت بحق قليلة .

(٢) شعر الفتوح الإسلامية فى صدر الإسلام ـ د . النعمان القاضى ـ ص ٢٢٩.

ذلك بقوله : « إن الفاتحين الذين حققوا هذا العمل الكبير - أى الفتوحات فى جهة الشرق - كانت كثرتهم من عرب الشمال الذين نعرف لهم شهرة عامة بالشعر »(١) . بخلاف الجهات الأخرى التى كان أكثر الفاتحين فيها من عرب الجنوب . كذلك فإن شعر الرثاء كان أكثر حظاً من سائر الفنون لكثرة المعارك التى خاضوها وكثرة من وقع فيها من الشهداء ، إلا أنه فى كثرته شعر مقطوعات وقلما يرقى إلى حد القصائد ، وأغلبه قطع قصيرة تتناسب والمواقف التى يمرون بها والأحداث التى تحيط بهم عند صياغتهم له أو استنشادهم إياه .

ويواجهنا - أول ما يواجهنا - من هذا الشعر رثاء القعقاع بن عمرو التميمى لقتلى المسلمين فى يوم من أيام الحيرة .

وفيه يفخر بالمجاهدين ، وقد نصرهم الله ، ويبيّن ما حل بالفرس وقائدهم هرمز ؛ فقد كاد عرشهم يميل إثر الهزيمة :

« سقَى اللّهُ قتلَى بالفُرات مُقيـمةً ... وأُخـرى بأثْباجِ النّجافِ الكَوانِفِ
فنحنُ وَطِئْنا بالكَواظِمِ هُرْمُـزاً ... وبالثّنى قـرْنَىْ قارنٍ بالجَوارِفِ
ويومَ أحَطْنا بالقُصورِ تتابعـتْ ... على الحِيرَةِ الرَّوْحَاءِ إحدى المَصارِفِ
حطَطْناهمُ منها وقد كاد عَرْشُهم ... يَميلُ بهـم فِعْلَ الجَبانِ المُخالِفِ
رَمَيْنا عليهم بالقَبُولِ وقـد رأَوْا ... غَبُوقَ المَنايا حولَ تـلك المَجارِفِ
صَبِيحةَ قالوا نحـنُ قومٌ تَنَزَّلوا ... إلى الرِّيفِ من أرضِ العُرَيبِ المَقانِفِ».(٢)

وفى المقابل نجد ابن بقيلة يبكى عهد المناذرة ، ويصور ماحل ببلاده من بلاء ؛ فقد صاروا - على حد قوله - « كجرب المعز فى اليوم المطير» ، تتقسمهم قبائل معد ، ويتحكم فيهم الفاتحون ويفرضون عليهم الخراج فيؤدونه صاغرين :

« أَبَعْدَ المُنْذِرَينِ أرى سَـواماً ... تُرَوَّحُ بالخَوَرْنَقِ والسَّديـرِ
وبعدَ فَوارِسِ النُّعْمانِ أرْعـى ... قَلُوصاً بينَ مُرَّةَ والحَفيـرِ
فَصِرنا بعدَ هُلْكِ أبى قُبَيْـسٍ ... كَجُرْبِ المَعْزِ فى اليومِ المَطيـرِ

---

١ - شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام ص ١٢٦ .

٢ - شعراء إسلاميون ص ٤١ ، ٤٢ .

تَقَسَّمْنا القَبائلُ مِن مَعَـــــدٍّ   عَلانيةً كأيســـــارِ الجَزُورِ
وكنّا لا يُرامُ لنـا حَريـــــمٌ   فنحنُ كضَرَّةِ الضَّرْعِ الفَخـــورِ
نُؤدّى الخَرْجَ بعدَ خَراجِ كِسْرَى   وخَــــرْجٍ مِن قُرَيظةَ والنَّضـيرِ
كذاكَ الدَّهرُ دَوْلَتُه سِجـالٌ   فيـــومٌ مِن مَسـاءَةٍ أو سُرُورِ» (٢) .

وتصور خزانة بنت خـالد بن جعفر ماحل بالمسلمين فى يوم من أيام الحيرة ـ رواها الواقدى فى فتوح الشام ـ فقد شرعت سيوف الأعاجم فى المجاهدين فخر منهم من خر شهيداً فى سبيل الله ، ولم يخلف إلا الحزن فى النفوس على الفراق ، وهم من هم عزة وشرفاً وشجاعةً تقول خزانة :

«أيا عينُ جودِى بالدُّموعِ السَّواجِمِ   فقد شُرِعتْ فينا سُيوفُ الأعاجـمِ
فكم مِن حُسامٍ فى الحروبِ وذابِلٍ   وطِرْفٍ كُمَيتِ اللَّونِ صافِى الدَّعائمِ
حَزِنّا على سعدٍ وعَمْرٍو ومـالكٍ   وسعدٌ مُبيدُ الجيشِ مثلَ الغَمـائمِ
همُ فِتيةٌ غُرُّ الوُجـوهِ أعِزَّةٌ   لُيوثٌ لدى الهَيْجاءِ شُعْثُ الجَماجمِ» (١)

لكنها لا تلبث فى قطعة أخرى أن تعلن أن قناة المسلمين لم تلن على الرغم مما حل بهم من تقتيل ، وأن هذه اللوعة التى حلت بالنفوس هى لوعة الأسى على الفراق فحسب ، وكل أليف لابد أن يفارق يوماً أليفه . وكأنها بذلك تتعزى وتعزى المسلمين عما حل بها فى ذلك اليوم . وهو دور جديد للمرأة لا يقف عند حد الندب :

« طَوى الدَّهرُ ما بينى وبينَ أحِبَّةٍ   بهم كنتُ أُعطَى ما أشاءُ وأُمنَعُ
فلا يَحْسَبِ الواشُونَ أنَّ قَناتَنا   تَلِينُ ولا أنّا مِن المـوتِ نَجزَعُ
ولكنَّ للأُلّافِ لابدَّ لَـوعةً   إذا جَعَلَتْ أقرانُهـا تَتَقطَّعُ» (٣) .

وفى السنة الثالثة عشرة كانت وقعة البويب ، وفيها قُتل مهران قائد الفرس وامتلأت جنبتا البويب بعظام جنده . فتذكر الأعور العبدى ذلك اليوم وهو يحن إلى عشيرته من

١ – تاريخ الطبرى ج٣، ص ٣٦٢ .
٢ – الدر المنثور فى طبقات ربات الخدور ص ١٨٣ / شرح ديوان الخنساء بالإضافة إلى مراثى ستين شاعرة من شواعر العرب ص ١٤٦ .
٣ – الدر المنثور ص ١٨٤ / وشرح ديوان الخنساء ص١٤٦ .

عبد القيس ويذكر ما حلّ بداره من حزن لفراق من مات منهم . وفيها يذكر كيف سار المثنى إليهم فقتل الزحف وسما لقائدهم والجيش الذى معه حتى أبادهم عن آخرهم .
ولعل هذا الفخر يدفع عنه ما يحس به من انكسار وحزن :

« هاجتْ لأعْوَرَ دارُ الحيِّ أحزانا ... واستبْدَلتْ بعدَ عبدِ القَيسِ خَفَّانا
وقد أرانا بها والشَّمْلُ مُجتَمعٌ ... إذ بالنُّخَيلة قتلى جُنْدِ مِهرانا
أزمانَ سارَ المُثَنَّى بالخُيولِ لهم ... فقَتَّلَ الزَّحْفُ مِن فُرْسٍ وجِيلانا
سَما لِمهرانَ والجَيْشِ الَّذى معه ... حتَّى أبادَهمُ مَثْنَى ووُحْدانا ». (١)

ويمتزج حزن القعقاع بن عمرو على صديق له ـ وهو حزن شخصى ـ بالحزن العام على قتلى المسلمين يوم عماس ، ويزغ فى ثنايا هذا الحزن الرغبة فى الثأر والتصميم على الانتقام :

« سَقَى اللّهُ ياخَوصاءُ قبر ابْنِ يَعْمَرٍ ... إذا ارتَحلَ السُّفارُ لم يَترَحَّلِ
سَقَى اللّهُ أرضاً حَلَّها قبرُ خالدٍ ... ذهابَ غَوادٍ مُدْجِنات تُجَلجِلُ
فأقسمتُ لا ينفكُّ سَيفِى يَحُسُّهم ... فإنْ زَحَلَ الأقوامُ لم أتَزَحَّلِ ». (٢)

ويوم الجسر قُتل أبو عبيد بن مسعود الثقفى قائد المسلمين تحت أقدام الفيلة وقُتل معه عدد كبير من المسلمين فى أقسى هزيمة لحقت بهم فى حروبهم ضد الفرس . وقد صور حسان بن ثابت هذه الهزيمة ، وتلهف على دماء المسلمين فيها وهى تجرى كالأنهار ، وعلى رجال ماتوا بها وهم من خيرة الرجال كأبى جبر سعد بن عبيد بن النعمان وهو أول من جمع القرآن من الناس :

« لقد عَظُمتْ فينا الرَّزِيَّةُ إننَّا ... جِلادٌ على رَيبِ الحَوادثِ والدَّهرِ
على الجِسْرِ يومَ الجِسْرِ لَهفِى عَلَيْهِمُ ... فَيَالَهْفَ نَفْسِى لِلْمُصَابِ عَلَى الجِسْرِ
يقولُ رِجالٌ مالِحَسّانَ باكِياً ... ومالِىَ لا أبكِى على المَعْشَرِ الزُّهْرِ

---

١ — تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٤٧٠ ص ٤٧١ / والأخبار الطوال لأبى حنيفة الدينورى ت . عبد المنعم عامر (مكتبة المثنى ـ بغداد بدون تاريخ) ص ١١٥ مع اختلاف فى الرواية وقد نسبها إلى عروة بن زيد الخيل .

٢ — تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٥٥٩ . وفى البيت الثانى إقواء .

ومالىَ لا أبكى على خيــــرِ فتيَةٍ بيارُوسَما أضحتْ دماؤهمُ تجـــرى
فإنّى لباكٍ ماحَييتُ ولوبكــــــى على الميْتِ مَيْتٌ جُدْتُ بالدَّمعِ في قبرى
فلَهْفِي على الأجْلا سَلِيطٍ ورَهْطِهِ ولَهْفِي على لَيْثِ العَريــنِ أبى جبرِ » (١) .

ومن العجيب أن هؤلاء قد قتلوا فى شهر رمضان وبالتحديد فى الليلة التى يغلب عليها أن تكون ليله القدر :

« أُصيبُوا وفى شَهرِ الصِّيام بَقيَّةٌ لسبْعِ ليالٍ تلكمُ ليلةُ القدْرِ » .

وإن كان حسان قد رثى هؤلاء ولم يشهد ما حل بهم ، رثاء الغائب ، فإن أبا محجن الثقفى كان ممن شارك فى القتال وشهد بعينه ما حل بالمسلمين :

« أنّى تَسدَّتْ نحوَنا أمُّ يوسُــــفٍ ومِن دونِ مَسْراها فَيافٍ مَجاهِـلُ
إلى فتيةٍ بالطَّفِّ نِيلَتْ سَــــرَاتُهُمْ وغُودِرَ أفراسٌ لهم ورواحـــــلُ
وأضحَى أبو جَبْرٍ خَلاءً بُيوتُـــــه بما كان يَعفوها الضِّعافُ الأرامــلُ
وأضحى بنو عَمْرٍو لدى الجِسْرِ منهمُ إلى جانبِ الأبياتِ جُودٌ ونائلُ »(٢) .

واعتذر عن بقائه بعدهم بأن منيته لم يكن قد حان وقتها ؛ فلكل أحل كتاب ، وأنه ما تقهقر إلا حين رأى مهرته مزوئرة ، وقد تسدت نحوها السهام من كل مكان وأحاط به الفرس ومزقوا جلده حتى فاضت أباجله بالدماء وكان - كما يدعى - فى آخر الرائحين:

« وما لُمْتُ نَفْسِي فيهمُ غيرَ أنَّها لها أجَلٌ لم يأتِها وهو آجِــــلُ
وما رِمْتُ حتَّى خرَّقوا برماحِهم ثِيابِي وجادَتْ بالدِّماءِ الأباجِــلُ
وحتَّى رأيتُ مُهــرَتى مُزوئِرَةً لدى الفيلِ يَدْمَى نَحْرُها والشَّواكِلُ
ومارُحْتُ حتَّى كنتُ آخِرَ رائحٍ وصُرِّعَ حَوْلِي الصَّالِحونَ الأماثِلُ » .

وحين أخذته الحمية والأنفة من الفرار أخذ يدور وسط رحال الأنصار ، يحرضهم على القفول .ولم يفته أن يلعن كل من يسرهم موته ولا يدرون ما الله فاعل به وبهم :

---

١ - ديوان حسان ص ١١٥ .

٢ - ديوان أبى محجن ت . لود فيكوس ابل (بريل ١٨٨٧ م) ص ١٤ .

وهى مع اختلاف طفيف - بالأغانى جـ ١٩ ص ٩ ، ١٠ . واعتمدنا رواية الديوان .

« مررتُ على الأنصارِ وسْطَ رِحالِهم فقلتُ : ألاهل منكمُ اليومَ قافِلُ
وقرّبتُ رَوَاحــــاً وكُوراً ونُمْرُقاً وغُودِرَ فى أَلّيــسَ بكرٌ ووائلُ
ألا لَعَنَ اللّهُ الّذين يَسُرُّهــــــم رَداىَ وما يَدْرون ما اللّهُ فاعِلُ » .

وتجتمع فى رثاء أخى الأعور بن قطبة للأعور يوم أغواث مشاعر متضاربة منها الفرح والحزن ؛ فهو حزين على فقد أخيه من ناحية ، وفرح له من ناحية أخرى لأنه قبل أن يموت قتل قائداً من قواد الفرس كما أنه أدى واجبه ومات شهيداً فى سبيل الله:

« لم أرَ يوماً كان أحْلَى وأمرّ مِن يومِ أغْوَاثٍ إذ افترّ الثَّغَرْ
مِن غيرِ ضَحْكٍ كان أسْوا وأبرّ » (١) .

٦ – أما الشمردل فيحتسب عند الله موت أخيه ؛ فقد اغتيل فى دار فرقة ، وهو يدافع عن ثغر من ثغور المسلمين ، وعاد سيفه وحمائله يحملان النبأ اليقين بمقتله ؛ فقد عادا من دونه حين عاد الناس :

« لعَمْرِى لئنْ غالَتْ أخى دارُ فُرْقَةٍ وآبَ إلينا سيفُه وحَمـــــائلُهْ
وحلّتْ به أثْقالها الأرضُ وانتهــى بمثواهُ منها وهــــو عفٌّ مآكلُهْ
لقد ضُمّنتْ جَلْدَ القُوَى كان يتّقى به جانبُ الثّغْرِ المَخُوفِ زَلازِلُهْ
....
أقولُ وقد رَجّمْتُ عنه فأسْـرَعتْ إلىّ بأخبارِ اليَقينِ مَحـــاصِلُه
إلى اللّه أشكو لا إلى النّاسِ فَقْدَه ولَوْعَةَ حُزْنٍ أوجعَ القَلْبَ داخِلُهْ
وتَحْقِيقَ رُؤْيا فى المنامِ رأيتُهــــا فكان أخى رُمْحاً تَرَفّضَ عـامِلُهْ
سقَى جَدَثاً أعـــرافُ غَمْرةَ دُونَه وَبِيشَةَ دِيمـاتُ الرَّبِيعِ ووابِلُهْ » . (٢)

---

١ — تاريخ الطبرى جـ ٣ ص ٥٤٧.
مروج الذهب للمسعودي ت . محمد محيي الدين عبد الحميد (المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة ١٩٦٤ م) جـ ٢ ص ٣٢٢ .
٢ – الأغانى (ط . الدار) جـ ٣ ص ٣٥٣ ، ٣٥٤ / أمالى اليزيدى ط ١ (جمعية دائرة المعارف العثمانية - حيدر أباد الدكن الهند ١٣٦٧ هـ ١٩٧٦ م) ص ٣٢ . مع اختلاف يسير فى اللفظ .

ومثل هذا الموقف المشحون باللهفة والحزن وخيبة الأمل حين ينتظر الشاعر عزيزاً عليه فلا يجده بين العائدين ويتيقن عند ذلك من موته نجده عن منقذ الهلالى . غير أنه لا يستطيع التماسك فضلاً عن الاحتساب . ويرسل نفسه على سجيتها فيذكر الشرب والضيفان والحروب ، فمن لهذا كله بعد مقتل أخيه ؟ بل من له هو نفسه وقد أصبح من بعده كصقر كُسِرَ منه الجناح ؟

« آبَ الغَزِىُّ ولم يَؤُبْ عَمْرُو ... لله ما وارى به القَبرُ
يا عَمْرُو للضِّيفانِ إذ نزلُوا ... والحربِ حينَ ذَكَا لها الجَمْرُ
يا عَمْرُو للشَّربِ الكرام إذا ... أَزَمَ الشِّتاءُ وعَزَّتِ الخَمْرُ
أصبحتُ بعدَ أخي ومَصْرَعِه ... كالصقْرِ خانَ جَناحَهُ الكَسْرُ » (١) .

وتلتفت عمرة الخثعمية بحس المرأة إلى ما تخلفه الحروب من سلبيات حين تطأ بكلكلها الرجال فتعنس النساء وتتزلزل أركان البيوت المفتوحة بهم . تقول فى رثاء ابنين لها قُتلا فى بعض الغزوات:

« لقد ساءَنِى أنْ عَنَّسَتْ زَوْجَتاهُما ... وأنْ عُرِّيَتْ بعدَ الوَجَى فَرَساهُما
ولن يلبثَ العَرْشانِ يُسْتَلُّ منهما ... خِيارُ الأواسِى أنْ يَمِيلَ غَماهُما » . (٢) .

ويؤكد أبو ذؤيب الهذلى ما جاء به القرآن فى أكثر من موضع من أن الموت لا يُقَدَّمُ ولا يؤخر ولا يمكن دفعه إذا حانت لحظته ، ولا يغنى فيه مكان عن مكان ولو كان المرء فى برج محصن :

« يقولونَ لى لو كان بالرَّمْلِ لم يَمُتْ ... نُشَيْبَةُ والطُّرَّاقُ يكذبُ قِيلُها
ولو أنّنى اَسْتَوْدَعتُه الشَّمْسَ لارْتَقَتْ ... إليه المَنايا عَيْنُها ورَسولُها » (٣) .

---

١ - الوحشيات لأبى تمام . ت . عبد العزيز الميمنى ص ١٤٤ . ويقال إنها لابن أراكة الثقفى فى أخيه عمرو .

٢ - شرح ديوان الخنساء بالإضافة إلى مراثى ستين شاعرة من شواعر العرب ص ١٦٩ ، ولها فى « الدر المنثور » ص ٣٥٣ ثلاثة أبيات على الوزن نفسه والقافية فى رثاء أخوين لها قُتلا فى بعض الغزوات فلعل البيتين المذكورين منها .

٣ - ديوان الهذليين جـ ١ ص ٣٣ .

ويقف فى عينيته الشهيرة [1] مع الموت وقفات طويلة يؤكد فيها حتميته ، ويرسم صوراً ثلاث للصراع بين الموت والحياة ؛ إحداها لفارسين باسلين مدججين بالسلاح ، وذلك فى رثائه لبنيه الخمسة أوالسبعة الذين قتلوا فى عام واحد - وقيل فى يوم واحد - أثناء الفتوحات الإسلامية فى مصر .

ويشير ابن قطبة العذرى فى رثائه لعلقمة بن مجزز - وكان عمر قد أرسله إلى الحبشة فمات هناك مسموماً مع بعض من معه حتى لقد همَّ عمر بغزوهم لولا أن ذكّروه بحديث للنبى ﷺ - إلى عادة من العادات الإسلامية المتبعة مع الشهداء ، وهى دفنهم فى الثياب دون غسل لتشهد لهم دماؤهم عند الله يوم القيامة :

« إنَّ السَّلامَ وحُسْنَ كلِّ تَحيَّةٍ تغدو على ابنِ مُجزِّزٍ وتَروحُ
فإذا تَجرَّدَ حافِراكَ وأصبحتْ فى الفجرِ نائحَةٌ عليكَ تنوحُ
وتَخيَّروا لكَ مِن جيادِ ثيابِهم كَفَناً عليكَ مِن البَياضِ يَلوحُ
فهناكَ لا تُغْنى مَودَّةُ ناصحٍ حَذَراً عليكَ إذا يُسَدُّ ضَريحُ » [2] .

أما عروة بن زيد الخيل فيعطى تصوراً واضحاً ورائعاً فى الوقت نفسه للمثاليات التى يقاتل من أجلها المسلمون فى حركة الفتوحات ؛ فهم يقاتلون جهاداً فى الله ورغبة فى نشر دينه لا حرصاً على الدنيا أو جمع الثروات واكتساب الذكر ؛ إذ كيف يحرصون على الدنيا وهم معرضون للموت فى كل لحظة ، والمنايا تحيط بهم من كل اتجاه ؟ يقول من قصيدة له فى معركة نهاوند

« وكم كُربَةٍ فَرَّجتُها وكَـــريهةٍ شَدَدْتُ لها أزرِى إلى أنْ تَجلَّتِ
وقد أضحتِ الدّنيا لدىَّ ذَميمَةً وسَلَّيتُ عنها النَّفْسَ حتَّى تَسلَّتِ
وأصبحَ هَمِّى فى الجهادِ ونِيَّتى فللَّه نَفْسٌ أدْبَــــرتْ وتَولَّتِ
فلا ثَروةُ الدُّنيا نُريدُ اكْتِســابَها ألا إنَّها عن وَفْرِهــا قد تَجلَّتِ
وماذا أُرَجِّى مِن كُنوزٍ جمعتُها وهذِى المَنايا شُرَّعاً قد أظَلَّتِ » [3]

---

١ - ديوان الهزليين جـ ١ ص ١ : ٢١.
٢ - الأغانى جـ ٢٢ ص ١٥٤ ، ١٥٥ .
٣ - الأخبار الطوال للدينورى ص ١٣٨ .

لقد صارت الدينا لديه ذميمة ، بعد أن فقد من فقد من الأحباب ، فسلى نفسه بالجهاد حتى يلحق بهم ، وكم تمنى أن يجمع الله شملهم فى الجنة . أما أبو الزهراء القشيرى فيدفعه مثل هذا الموقف إلى معاقرة الخمر وإدمان الشراب ولا يكفه عن ذلك إقامة عمر للحد عليه وعلى من عاقرها معه :

« ألم تَرَ أنَّ الدهـــــــرَ يعثُرُ بالفتَى … وليسَ على صَرْفِ المَنونِ بقادِرِ
صبرتُ ولم أجزعْ وقد ماتَ إخوتى … ولستُ عنِ الصَّهْباءِ يوماً بصابرِ
رمـاها أميرُ المؤمنيــــــنَ بحتْفِـها … فخلَّا نُها يبْكُونَ حولَ المَعاصِرِ »(١)

وعجيب أمر هذا الشاعر الذى ينصرف عن رثاء الشهداء إلى رثاء الخمر ، وهو لون جديد من ألوان الرثاء . لكن ربما كان إحساسه بقرب الموت ، و تعرضه للخطر فى كل لحظة ، ورؤيته لمن معه يتساقطون أمام عينيه الواحد تلو الآخر ، والقحط والجدب والمجاعة التى حلت بالمسلمين فى ذلك العام ، والطاعون الذى انتشر بعمواس، وإدمانه من قبل للشراب دافعاً له وراء هذا التصرف العجيب والإصرار على مواصلة الشراب.

وفى طاعون عمواس الذى انتشر على الأغلب الأعم فى السنة الثامنة عشرة للهجرة بالشام والذى راح ضحيته أعداد هائلة من الفاتحين وعلى رأسهم أبو عبيدة بن الجراح أمير الجيوش ومعاذ بن جبل ويزيد بن أبى سفيان والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وعتبة بن سهيل وغيرهم من أشراف الناس يقول المهاجر بن خالد بن الوليد :

« مَن يسكُنِ الشّامَ يُعَرِّسْ به … والشّامُ إنْ لم يُفْنِنا كـــــارِبُ
أفْنى بنى رَيطَةَ فُرْســــانُهـم … عِشرُونَ لم يُقصَصْ لهم شارِبُ
ومِن بنى أعمامِهــم مثلَهـم … لِمثْلِ هذا أُعجبَ العـــاجِبُ
طَعْناً وطاعُـــوناً مَناياهُــمُ … ذلك ما خَطَّ لنا الكــاتبُ » (٢) .

١ - تاريخ الطبرى جـ ٤ ص ٩٧ ، ٩٨ . وهى مع اختلاف يسير فى الألفاظ والترتيب بديوان أبى محجن الثقفى ص ١٢ لأبى محجن بينما نسبت فى الإصابة جـ ١ ص ٤٨٠ لذى الكلاع الحميرى .

٢ - تاريخ الطبرى جـ ٤ ص ٦٥ .

ويقول أبو عامر بن غيلان فى رثاء ابنه الذى هلك فى هذا الطاعون ـ وكان يتمنى ألا يخرج ولو استطاع لخبأه تحت الضلوع ، وهو شعور الأب ، لكن الموت يدرك كل حى ، وهذا شعور المؤمن بقضاء الله المحتسب فى المصاب ـ :

« عينى تجودُ بدمعِها الهتّان   سَحّاً وتَبكى فارسَ الفرسانِ
لو أستطيعُ جعلتُ منّى عامراً   تحتَ الضُّلوعِ وكلُّ حيٍّ فانِ » (١) .

٧ — ومن أشكال الرثاء الشائعة فى حركة الفتوحات ـ وهى أشكال جديدة من ناحية الكثرة لا الاستخدام كما سبق أن ذكرت ـ رثاء النفس والأعضاء . ومن الأولى قصيدة لأبى ذؤيب الهذلى بكى فيها نفسه بكاء حاراً وذكر بناته من بعده وهن يضربن رءوسهن بالنعال وصدورهن بالجلود ، والرجال وهم يحثون له عن بئر يلقونه فيها ليواروا جثته وقد سربلوه بالأكفان ووسدوه ساعده :

« أعاذلَ أبْقِي للمَلامَةِ حَظَّها   إذا راحَ عنّى بالجَليّةِ عائدِى
فقالُوا تركناهُ تَزلْزَلُ نفسُه   إذا أسندُونى أو كذا غيرَ ساندِ
وقامَ بناتِى بالنّعالِ حَواسِراً   وألصقْنَ ضَربَ السِّبتِ تحتَ القلائدِ
يَوَدُّون لويَفْدُوننى بنفُوسِهم   قَليباً سَفاهاً كالإماءِ القَواعِدِ
مُطَأْطَأةً لم يُنْبِطوها وإنّها   لَيَرْضَى بها فُرّاطُها أُمّ واحدِ
قَضَواما قَضَوا من رَمِّها ثمّ أَقبَلُوا   إلىّ بِطاءَ المَشى غُبْرَ السّواعدِ
فكنتُ ذَنُوبَ البِئرِ لَمّا تَبَسَّلَتْ   وسُرْبِلتُ أكفانى ووُسِّدتُ ساعِدِى » (٢)

ولعله كان يستشعر قرب الموت وهو غريب عن دياره ، أو لعله الإحساس بتفاهة الحياة وعدم جدواها بعد فراق أصحابه هو الذى دفعه إلى هذا اللون من الرثاء ؛ فهو يرثى نفسه فى معرض رثائه للآخرين ، ولا يتوجه إلى الحديث عن نفسه إلا بعد أن يذكرهم فى أبيات يبين فيها ما آلوا إليه وما خلفوه فيه .

وكذلك يفعل الشماخ بن ضرار فى رثائه لبكير بن شداد الليثى . لكنه يبدأ بنفسه

---

١ — الإصابة فى تمييز الصحابة ـ لابن حجر العسقلانى جـ ٣ ص ١٤ .
٢ — ديوان الهذليين جـ ١ ص ١٢٠ : ١٢٣ .

ويكاد حديثه عنها يستغرق القصيدة كلها وينسيه رثاء صاحبه ، فهو لا يذكره إلا في بيتين اثنين فقط ، وكأنه بهما يعلل رثاءه لنفسه ؛ فما جدوى الحياة بعده وقد أسلمته الخيول بموقان وقد تُسلمه هو أيضاً في يوم قريب ! فليشرب الآن وليكن بعدُ ما يكون:

« ألا يا أصبحاني قبلَ غارةِ سِنجالِ ... وقبلَ مَنايا باكِراتٍ وآجالِ
وقبلَ اختلافِ القومِ من بينِ سالبٍ ... وآخرَ مَسلوبٍ هَوَى بينَ أبطالِ
وقلتُ لهمْ خذُوا له برماحكم ... بنازحةِ العُوّادِ خفّاقةِ الآلِ
فَبكّوا قليلاً ثمّ ولّوا وودّعوا ... وقدْ غادرُوا في اللّحْدِ لَحْمي وأوصالي
لقدْ غادرَتْ خيلٌ بمُوقانَ أسلَمتْ ... بُكَيْرَ بني الشّدّاخِ فارسَ أطْلالِ
فتًى كان يَرْوِي سيفَه وَسِنانَه ... مِن العَلَقِ الآني لدَى المُجْحَرِ التّالي »(١)

وفي رثاء كثير النهشلي لشهداء المسلمين في الجوزجان سنة اثنتين وثلاثين التي مطلعها :

« سقَى مُزْنُ السَّحابِ إذا استَهلّتْ ... مَصارِعَ فِتْيةٍ بالجُوزَجانِ » (٢)

ينتقل من الحديث عن هؤلاء القتلى وعما أصابهم على يد الفرس وما أظهروه من حسن البلاء إلى رثاء نفسه ، أو إلى مدحها والفخر بها فخراً ربما يعوضه عن بعض ما يحس به من الحزن والعجز والانكسار :

« فإنْ أهْلِكْ فلم أكُ ذا صُدوفٍ ... عن الأقرانِ في الحربِ العَوانِ
ولم أُدلِجْ لأطْرُقَ عِرسَ جارِي ... ولم أجعلْ على قومِي لِساني
ولكنّي إذا ما هايَجُوني ... مَنيعُ الجارِ مُرْتَفِعُ البَنانِ
وتكرَهُني إذَا استَبْسلْتُ قِرْني ... وأقضِي واحداً ممّا قَضاني
فلا تَستَبْعِدا يومِي فإنّي ... سأُوشِكُ مرّةً أنْ تَفقِداني
ويُدْرِكُني الّذي لابدَّ منه ... وإنْ أشفقتُ مِن خَوفِ الجَنانِ
وتَبْكيني نَوائحُ مُعْوِلاتٌ ... تُرِكَن بدارِ مُعْتَركِ الزّمانِ

---

١ - ديوان الشماخ ت .د صلاح الدين الهادي (دار المعارف ـ القاهرة ص ١٩٦٨ م) ص ٤٥٦

٢ - الأغاني (ط . الدار) جـ ١١ ص ٢٧٨ .

حَبائسُ بالعــــراقِ مُنَهنِهاتٌ سَواجِي الطَّرْفِ كالبَقـرِ الهِجانِ » .

وقـد شـاركت المرأة فى مـثل هذا اللون من الرثاء ومن ذلك قـصيـدة الخـولة بنت الأزور الكندى قالتها حـين أسرت فى فتح مصر (١). كـمـا ابتكرن لوناً جديداً لا يرثين فيـه الموتى وإنما يرثين فيـه الغائبـين من الأحيـاء وأكثرهم ممـن غيبـهم الأسر فى حـركة الفتوحات (٢) .

ومن رثاء الأعـضاء - وهى جـزء من رثاء النفس - رثاء ابن مظعون لعينه ،وكـان قد فقدها إثر لطمة، فقال يحتسبها عند الله ويذكر ما عوضه به من ثواب :

« فإنْ تكُ عيني فى رِضا الرَّبِّ نالَها يَدا مُلْحِدٍ فِي الدِّينِ ليسَ بِمُهتَدِ

فقدْ عَوَّضَ الرَّحمنُ عنها ثـــوابَهُ ومَنْ يُرْضِه الرَّحمنُ ياقوم يَسْعَدِ »(٣).

ورثاء عفـاق - وهو أحد بنى كاهل بـن أسد - لرجله وكان قـد أصيب بها فى قـتال الفرس . وفيها يقول :

« صَبْراً عِفَاقُ إنَّها الأساوِرَهْ صَبْراً ولا تَغْرُرْكَ رِجْلٌ نادِرَهْ » (٤) .

وقد مات من إصـابته فى اليوم نفسه ، وبقيت كلمـته لنفسه بالصبر فى قـتال الفرس نبراساً لمن بـعده ، يرددونها ويهتدون بـها فى كل شدة حتى تزول ، وكـان هذا الصبر وذلك الإصرار وتلك المثابرة وراء ما حققوه من نصـر فى تلك البلاد حتى فتـحها الله لهم البلد تلو الآخر ، وأعقبهم بعد كل شدة ،فرجاً وبعد كل هزيمة نصراً عظيماً .

ومثل هذه الروح الصابرة المحتسبة نجدها عند علباء بن جحش العجلى الذى انتثرت أمعاؤه يوم أغواث فأدخلها بيده فى بطنه وظل يقاتل وهو يقول :

« أَرْجُو بِهَا مِنْ رَبِّنا ثَوَابَا قَدْ كُنْتُ مِمَّنْ أَحْسَنَ الضِّرَابَا (٥) .

---

١ - شرح ديوان الخنساء ص ١٤٧ ، ص ١٤٨ .

٢ - المصدر نفسه ص ١٢٧ ، ص ١٨١ / الدر المنثور ص ١٨٦ .

٣ - حليـة الأولياء وطبقـات الأصفـياء لأبى نعيم الأصبهـانى (مطبعة السعادة - القـاهرة ١٩٣٢م) جـ ١ ص ١٠٤ .

٤ - تاريخ الطبرى جـ ٣ ص ٥٥٨ .

٥ - تاريخ الطبرى جـ ٣ ص ٥٤٦ .

ونجدها أيضاً عند عبد الله بن سبرة الجرشى فى رثائه ليده ، وهى من أروع ما قيل من رثاء الأعضاء فى حروب المسلمين :

« ويْلُ امِّ جارٍ غداةَ الجسْرِ فارَقَنِي أعْزِزْ عليَّ به إذ بانَ فانقَطَعا
يُمنَى يدىَّ غدتْ منِّى مُفارِقَةً لم أسْتطِعْ يومَ خِلْطاسٍ لها تَبَعا » (١) .

وفيها يذكر حزنه ، لا لفقده لها وإنما لأنه لم يرزق الشهادة ، وقد كان حريصاً على أن ينالها فيستريح ، ولكنها استراحت وتركته ليواجه وحده ما خط له من مصير :

« وما ضَنِنْتُ عليها أنْ أُصاحِبَها لكنْ حَرَصتُ على أنْ نَسْتَريحَ معا » .

ويذكر لوم اللائمين وعتابهم له ، وهو عتاب مصدره الإشفاق عليه ؛ فما ضره لو ترك القائد الرومى وابتعد عنه وهو من هو شجاعة وبسالة وقوة ؟ وكان الشاعر قد تعرض له واختلف معه الطعنات فأرداه قتيلاً ولكن بعد أن أفقده القائد الرومى يده :

« وقائلٍ غابَ عن شأنِي وقائلَةٍ هلا اجْتَنَبْتَ عدوَّ اللهِ إذ صُرِعا
فكيفَ أتْرُكُه يَمْشِي بمُنْصُلِه نَحْوِى وأجْبُنُ عنهُ بعدَما وَقَعا
ما كان ذلك يومَ الرَّوْعِ مِن خُلُقِي وإنْ تَقارَبَ مِنِي الموتُ فاكْتَنَعا » .

ويصف اللقاء والمبارزة وصفاً دقيقاً ولا يبخل على خصمه بأن يخلع عليه ما يستحق من الوصف؛ فيذكر بطولته واستماتته فى القتال فى الوقت الذى فرت فيه كتيبته عنه ، وكأنه بذلك يعتذر عن فقده ليده على يديه ، أو يبين بطريق غير مباشرة مدى قوته هو وشجاعته حيث لم يجبن أمام هذا الخصم بل ظل يقاتله حتى أطاح برأسه . ثم يقول إنْ كان ذلك القائد الرومى - ويصرح باسمه - قد قطع يده فإنه بدوره قد مزق جسده بتلك اليد قبل أن تقطع وإن من فضل الله عليه أن لا تزال بها ما يقيم به صدر القناة إذا ما تعرضوا للقتال مرة أخرى وليواصل بها مع الفاتحين جهادهم فى سبيل الله .

« فإنْ يكُنْ أَطْرَبونُ الرُّومِ قَطَّعَها فقدْ تركتُ بها أوصالَه قِطَعا
وإنْ يكُنْ أطْرَبونُ الرُّومِ قَطَّعها فإنَّ فيها بحَمدِ اللهِ مُنْتَفَعا
بَنانَتانِ وجُذْمورٌ أُقِيمُ بِه صَدْرَ القَناةِ إذا ما آنَسوا فَزَعا » .

---

٢ - الوحشيات لأبى تمام - ت . عبد العزيز الميمنى ص ٢٥ .

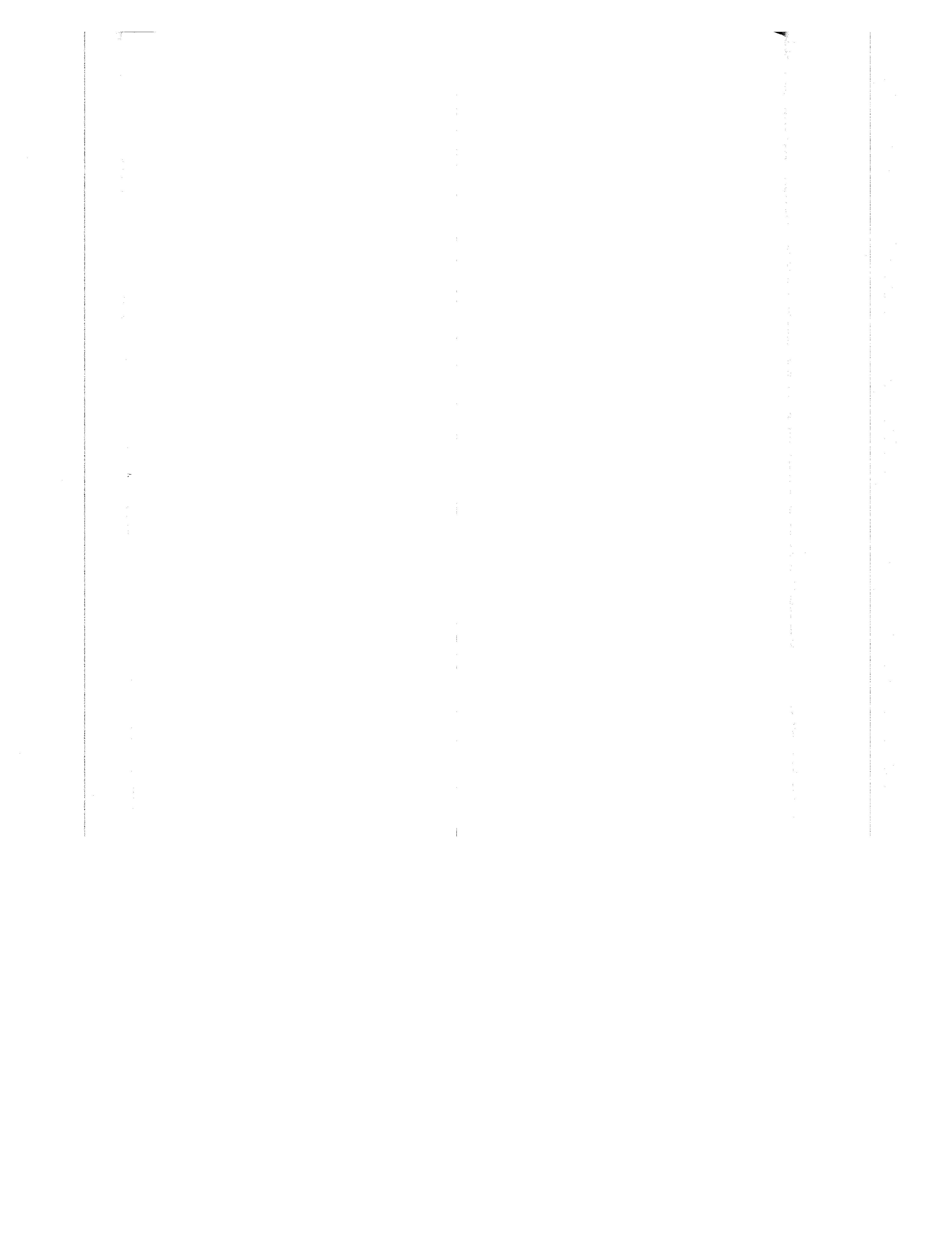
ونخلص مما تقدم إلى أن ما قيل من رثاء فى حروب الردة ، أو بالأحرى ماوصل إلينا منه قليل وأنه على قلته يصور بعض جوانب الصراع الذى دار بين المسلمين والمرتدين بحيث لا نستطيع أن نغفله ويسجل مادار فى تلك الفترة من أحداث داخلية كادت تودى بالدولة الإسلامية الناشئة وتعصف بها لولا عزم الصديق وما قيده الله له من جند مخلصين وقادة أكفاء كخالد بن الوليد . ولعل سرعة القضاء على الردة كان وراء قلة ما قيل فيها من رثاء . بالإضافة إلى عودة المرتدين إلى الإسلام مرة أخرى بحيث يصبح من العار عليهم التغنى بقتلاهم فيها والاعتزاز بما صنعوه أو الاحتفاظ حتى بما قالوه أثناء الصراع من جانبهم والتنديد بهم من جانب سائر المسلمين .

على أن ما وصلنا من رثاء فى تلك الفترة يمتلئ بالبكاء والتأبين على طريقة الجاهليين بالنسبة للمرتدين الذين لم يتعمق الإسلام نفوسهم وكانت حياتهم امتداداً للحياة التى درجوا عليها منذ الجاهلية لم يتغير فيها شىء إلا النذر اليسير . أما شعراء المسلمين فقد صوروا ما حل بالأمة من شدة واستغاث بعضهم أبا بكر وتغنى آخرون بتمجيد قتلاهم على ما نالوه من شرف الشهادة وعظيم الأجر .

وهذا الشعر الذى قيل فى الردة يصور جزءا من السياسة الخارجية؛ حيث ارتطم المسلمون بدول أخرى مجاورة وأزالوا ممالك وقضوا على كثير من العروش . وكان الرثاء فى تلك الحركة سجلاً رائعاً للانتصارات التى حققوها والهزائم التى لحقت بهم والبطولات الفردية للشهداء والمثاليات التى قاتلوا عليها واستشهدوا من أجلها ، وما واجههم فى تلك البلاد من العقبات وما صاحبهم من الحنين الجارف والإحساس بالغربة وقرب الموت ، وما رأوه فى البيئات الجديدة من المشاهد التى لم يألفوها فى بلادهم والأجواء التى لم يعتادوها .

وقد أكثر الشعراء فى حركة الفتوحات من رثاء النفس والأعضاء ، وهى أشكال لم يشع وجودها من قبل ولم تستخدم على هذا النحو الكبير . كما رثوا الأسرى والمفقودين واحتسبوا عند الله عز وجل موتاهم وعزوا أنفسهم بما ينتظرهم من نعيم وخلد وأجر عظيم .

* * *



(أبى بكر وعمر)

١ - كانت وفاة النبى كارثة أصيب بها المسلمون ومحنة كادت تعصف بهم حتى لقد شك بعضهم فى موته ، وثار بعضهم ، وتوعد عمر بن الخطاب بقتل كل من يقول بموته ، وكان فيما قال : « من قال إن محمداً قد مات قطعت بسيفى عنقه » . حتى صعد أبو بكر المنبر وتلا قول الله عز وجل : « وما محمدٌ إلا رسولٌ قد خَلَتْ مِن قبلهِ الرُّسُلُ أفئِنْ ماتَ أو قُتِل انقَلَبْتم على أعقابِكُم) . وقوله (إنَّك ميِّتٌ وإنَّهم ميِّتونَ) وأخذ يردد : « من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت » . فهدأ من روع الثائرين ، ورد الذاهلين إلى نفوسهم ، وتيقن الشاكون موته . لكن الفجيعة كانت أكبر من أن تزول ، والحزن أعمق من أن ينتهى أو تخمد نيرانه بتلك الكلمات الرائعة التى كان يرددها أبو بكر رضى الله عنه . بل ربما زادت الأحزان فى القلوب بما أكدته من حقيقة الموت .

ولم يكن حزنهم غضباً أو تمرداً على قضاء الله ؛ فهم أكثر الناس تسليماً بقضائه وإنما ألماً لفقده ولوعة لفراقه . وراح الشعراء يرثونه بمراث عديدة . وهم فى رثائهم له إنما يصدرون عن هذا الشعور العميق بالحزن ، خاصة ما قيل إبان المصيبة ، حتى عد الدكتور شوقى ضيف هذا الرثاء فى باب الندب ، بينما وضع رثاء الخلفاء فى باب التأبين[1] .

والحقيقة أن رثاء الشعراء للنبى لا يخلو من عزاء وتأبين ، وكذلك رثاء الخلفاء لا يخلو من ندب . ووضع أى من اللونين فى باب دون الآخر هو من قبيل التغليب .

والذى نريد أن نخلص إليه أو نقرره منذ البداية أن رثاء النبى - مع كثرة ما فيه من حزن لم يكن مجرد ندب أو بكاء . وقد لاحظ ذلك الدكتور الشايب من قبل حين قال : « وكانت مراثى رسول الله ﷺ ذات ظل سياسى كذلك »[2] .

---

١ - فى كتابه الرثاء ط ٣ (دار المعارف بمصر ١٩٧٩) ص ٣٥ ، ٥٥ .

٢ - تاريخ الشعر السياسى ص ١٠١ .

وهذا الظل السياسى الذى يذكره هو ما نبحث عنه فى هذا الجزء من البحث .

٢ – كان الأنصار أكثر الناس رثاء للنبى . وكان حسان أكثر هؤلاء الأنصار ؛ فقد رثاه بقصائد عديدة تتفاوت طولاً وقصراً كماتتفاوت من ناحية العمق. وربما كان مرد هذا التفاوت ما وضع على لسان حسان من شعر من ناحية، وبُعد الفترة الزمنية أو قربها من الحادث نفسه واختلاف المواقف واستعداده الخاص فى كل مرة يقول الشعر فيها من ناحية أخرى . فى قصيدته الدالية ـ التى بلغت ستة وأربعين بيتاً وهى أطول مراثيه على الإطلاق ـ يذكر حسان طيبة وما فيها من آثار تدل على النبى ﷺ وتذكره به فى كل حين ؛ منبره ، ومصلاه ، ومسجده ، والحجرات التى كان ينزل فيها الوحى.

وكأنه بذكر هذه الآثار يؤكد بقاء عهد النبى ﷺ حتى بعد موته؛ فهو لم يزل ولن يزول :

« بطَيْبَةَ رَسْمٌ للرَّسُولِ ومَعْهَــــدٌ	مُنِيرٌ وقد تَعْفو الرُّسومُ وتَهْمَـــدُ
ولا تَنْمَحى الآياتُ مِن دارِ حُرْمَةٍ	بها مِنْبرُ الهادى الّذى كان يَصْعَدُ
وواَضِحُ آثارٍ وباقِى مَعالــــــــمٍ	وربَعٌ له فيه مُصَلّى ومَسْجِـــــدُ
بها حُجُراتٌ كان يَنزِلُ وَسْــطَهـا	مِن اللّهِ نُورٌ يُسْتَضاءُ ويُوقَـــدُ
مَعارِفُ لَم تُطْمسْ على العَهْدِ آيُهـا	أتاها البِلَى فالآىُ منها تَجَـدَّدُ »(١) .

وتحرك هذه الآثار الماثلة أمام عينيه مواجعه ؛ فيبكى الرسول بكاء حاراً ، يظهر فيه مدى التفجع والوجد . ويقف عند دفنه وهم يهيلون عليه التراب ، ويذكر القبر وما غيبوا فيه ، ثم ما راحوا به من حزن :

« لقد غَيَّبوا حِلْماً وعِلْماً ورَحمةً	عَشيَّةَ عَــــلَّوه الثَّرى لايُوسَّدُ
وراحُوا بحُزنٍ ليس فيهم نبيُّهــم	وقد وَهَنَتْ منهم ظُهُورٌ وأعْضُدُ ».

فقد فَتَّ موتُ النبى فى عضدهم ، ولاغرو ؛ فإن هلكه لا يعدله هلك ورزيتهم فيه لا تعدلها رزية ؛ فبموته انقطع الوحى ، وهو النور الذى كان يستضيئون به فى دروب الحياة الشائكة وينقلون على هديه خطاهم :

---

١ – ديوانه ص ٢٧٧ ، ٢٧٨ .

« يبكون من تبكي السموات يومه ... ومن قد بكته الأرض فالناس أكمد
تقطّع فيه منزل الوحي عنهم ... وقد كان ذا نور يغور وينجد ».

ويرسم حسان بعد ذلك صورة للنبي تتضمن بعضاً من صفاته الحسية والمعنوية ، لتكون هذه الصورة ماثلة أمام أعين من يخلفونه في الحكم ومن يترسمون خطاه :

« يدلّ على الرحمن من يقتدي به ... وينقذ من هول الخزايا ويرشد
إمامٌ لهم يهديهم الحقّ جاهداً ... معلّم صدقٍ إن يطيعوه يسعدوا
عفوٌّ عن الزلّات يقبل عذرهم ... وإن يحسنوا فالله بالخير أجود » .

فهو هادٍ وقدوة ومنقذ وإمام ومعلم صدق يعفو عن الزلة ويقبل العذر ، وييسر على رعيته ما وسعه التيسير ، ويحمل عنهم ما يعجزون عن حمله وينوء كاهلهم به . ويفيد حسان من القرآن الكريم فيما وصف به النبي ؛ فقد وصفه الله عز وجل بقوله: (عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) (1) فأخذ حسان هذا المعنى في قوله :

« عزيزٌ عليه أن يجوروا عن الهدى ... حريصٌ على أن يستقيموا ويهتدوا
عطوفٌ عليهم لا يُثنّي جناحه ... إلى كنفٍ يحنو عليهم ويمهد » .

ويذكر بعد ذلك ما حل بالأمة بعد فقدها لنبيها وقائدها ومؤسسها ورافع بنيانها ، فقد خطفه الموت من بينهم فأوحشت البلاد وصارت من بعده كالقفار :

« فبيناهمُ في ذلك النور إذ غدا ... إلى نورهم سهمٌ من الموت مُقصِدُ
فأصبح محموداً إلى الله راجعاً ... يبكّيه حقّ المرسلات ويحمد
وأمست بلاد الحَرْم وحشاً بقاعها ... لغيبة ما كانت من الوحي تعهد
قفاراً سوى معمورة اللحد ضافها ... فقيدٌ يبكّيه بلاطٌ وغرقد ».

ويتخذ من ذلك كله ذريعة للبكاء فيبكيه حتى آخر القصيدة . ولكنه في ثنايا ذلك يواصل رسم الصورة التي بدأها من قبل فيذكر عفته ووفاءه بالعهد وكرمه وبذله وقرب نائله وشرفه وسؤدده .

---

1 – التوبة من الآية ١٢٨ .

وفى دالية ثانية وبعد البكاء والجزع والتلهف يذكر حسان أثر موت النبى على أمته وبخاصة الأنصار ، فقد ضاقت بهم البلاد واسودت وجوههم حتى صارت كلون الإثمد ، ولا غرابة فهم أخواله ، وبينهم قبره يذكرهم به فى كل حين ، وله عليهم فضل عظيم :

« ضاقَتْ بالأنصارِ البلادُ فأصبحوا ... سُوداً وُجوهُهُم كَلونِ الإِثْمِدِ
ولقد ولَدْناهُ وفينا قَبْرُهُ ... وفُضولُ نِعْمَتِه بنا لم يُجْحَدِ »(١)

ويعجب كيف يحيا وقد اسودت الدنيا من بعده وتغير أهل المدينة ، فليته لم يولد ولم يشهد ذلك اليوم :

« أأقيمُ بعدَكَ فى المدينةِ بينَهم ... يالَهْفَ نفسِى لَيْتَنى لم أُولَدِ » .

ويتمنى الموت لنفسه ، بل يتمناه لكل من معه فلعلهم يلقون بذلك النبى فى العالم الآخر .

وفى دالية ثالثة يقسم بالله ما حملت أنثى ولا وضعت مثل النبى ، ويصفه بالرحمة والهداية والوفاء بذمة الجار والعهد ، ويجعله نوراً يستضاء به ، كما يصفه بالحزم والرشاد والبركة وكلها صفات خلقية بوأت النبى ﷺ أعظم مكانة فى الوجود . ثم يصور أثر موته فى نفسه وحال نسائه - وهن أمهات المؤمنين - من بعده :

« خيرَ البَرِيَّةِ إنِّى كنتُ فى نَهَرٍ ... جارٍ فأصبحتُ مِثلَ المُفْرَدِ الصَّادِى
أمسى نساؤُكَ عطَّلْنَ البُيوتَ فما ... يَضْرِبنَ فوقَ عَرَى سِتْرٍ بأوتادِ
مِثْلَ الرَّواهِبِ يَلْبَسن المُسوحَ ... وقد أيقَنَّ بالبؤسِ بعدَ النِّعْمةِ البادِى »(٢) .

أما عن المنهج فقد كان ﷺ :

« مُصَدِّقاً للنبيِّينَ الأُلى سَلَفوا ... وأبْذَلَ النّاسِ للمعْروفِ للجادِى » .

٣ - ولعل أبرز من رثى النبى ﷺ من قريش أبو سفيان بن الحرث بن عبد المطلب ،

---

١ - ديوانه ص ٢٠٩

٢ - ديوانه ص ٢٠٨ .

وهو ابن عمه . وقد رثاه بقصيدة لامية بدأها بذكر ما اعتراه من أرق وحل به من هم بعد أن نزل المصاب به وبالمسلمين ، فقد طال الليل وامتد البكاء ، على أن هذا البكاء - مهما كثر - قليل إذا ما قيس بعظم المصيبة :

« أرِقتُ فباتَ لَيْلِي لايَزُولُ   وليلُ أخِي المُصيبةِ فيه طُولُ
وأسْعَدنِي البُكاءُ وذاك فيما   أُصيبَ المسلِمونَ به قَلِيلُ » . (١)

وصور حال المسلمين وما اعتراهم عشية أعلن الناعون خبر موته ﷺ ، فقد أحيط بهم وأصابهم ما يشبه الذهول . بل إن الأرض نفسها اضطربت وكادت تميد بهم :

لقد عَظُمَتْ مُصيبتُنا وجَلَّتْ   عَشيَّةَ قِيلَ قد قُبِضَ الرَّسولُ
وأضحتْ أرضُنا مِمَّا   عَراها تكادُبنا جَوانِبُها تَميلُ » .

ففقد النبى ﷺ هو انقطاع للوحى ووقف للتنزيل وذلك أحق ما سالت عليه النفوس وأريقت من أجله الدماء :

« فَقَدْنا الوحْىَ والتَّنزيلَ فينا   يروحُ به ويغدو جِبْرَئيلُ
وذاك أحقُّ ما سالتْ عليه   نُفوسُ النَّاسِ أو كادت تَسيلُ » .

كان وقع المصاب عليهم عظيماً ؛ لأنه لم يكن رجلاً عادياً بل كان نبياً من أعظم الأنبياء ؛ كان يجلو الشك عنهم عندما ينزل عليه الوحى بالقول الفصل فيما يختلفون فيه ، وكان دليلهم ، يهديهم فلا يخافون الضلال . وخلاصة القول أنه ﷺ ليس له نظير فى الأحياء ولا فى الموتى :

« نبىٌّ كان يَجْلو الشكَّ عنَّا   بما يُوحَى إليه وما يقولُ
ويَهْدينا فلا نَخْشى ضَلالاً   علينا والرَّسولُ لنا دَليلُ .
فلم نَرَ مِثْلَه فى الناس حَيّاً   وليس له مِن المَوْتى عَديلُ »

---

١ - أسد الغابة فى معرفة الصحابة لعز الدين بن الأثير . ت . محمد إبراهيم البنا - محمد أحمد عاشور (كتاب الشعب سنة ١٩٧٠ م) جـ ٦ ، ص ١٤٧ - الروض الأنف للسهيلى جـ ٤ ، ص ٢٧٥ / الاستيعاب لابن عبد البر جـ ٤ ص ٨٤ / السيرة النبوية لابن كثير (ط الحلبى - القاهرة سنة ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م) جـ ٤ ص ٥٥٨ .

ثم يتوجه إلى فاطمة ابنته بالعزاء ويدعوها إلى الصبر لتنال ثواب الله ، ويقرر في الختام أن قبر أبيها سيد كل قبر لاشتماله على الرسول ﷺ سيد الناس أجمعين . (١)

وترثيه صفية أم المؤمنين رضى الله عنها بأبيات هي أقرب للشهادة - تضعها بين يدى التاريخ - منها إلى الرثاء . وفيها تذكر بره بأمته وأهله ورحمته لهم وحرصه على هدايتهم وتعليمهم وصدقه فى تبليغ الرسالة عن ربه ، وموته - وقد أدى الأمانة كاملة - منير الوجه صلب العود . وتتوجه بالخطاب إلى النبى ﷺ وكأنه ماثل أمامها يسمع منها وينصت لما تقول . وتشير فى ثنايا ذلك إلى ما كانت تخشاه على الأمة من الفتنة والاختلاف :

« ألا يارسولَ اللَّهِ كنتَ رَجاءنا ... وكنتَ بنا بَرّاً ولـم تَكُ جافيا
وكنتَ رَحيماً هادياً ومُعَلِّماً ... لِيَبْكِ عَلَيْكَ اليَوْمَ مَنْ كَانَ بَاكِيَا
لعَمْرُكَ ما أبكِي النبيَّ لِفقْدِه ... ولكن لما اخْشى مِن الهَرْجِ آتيا

---

١ - هذه القصيدة عدتها عشرة أبيات فى الروض والاستيعاب والبداية والنهاية والسيرة لابن كثير . وزاد ابن الأثير : « فلم نر مثله ...» وقد نقلناه عنه - وبيتين آخرين قبل البيت الأخير . وأضاف الدكتور على صافى حسنين فى كتابه « المديح النبوى فى القرن الأول الهجرى » (القاهرة ١٩٨٦م) ص ٨٩ ، ص ٩٠ ستة أبيات أخرى فبلغت عنده تسعة عشر بيتاً . ولم يشر إلى مصادره ، ولا أعرف من أين استقى هذه الأبيات الزائدة . ولعلها موضوعة بآخرة ومنها بعد قوله : « لقد عظمت ... » :

« فظَلَّ النّاسُ مُنْقَطِعِينَ فيها ... كأنَّ النّاسَ ليس لهم حَوِيلُ
كأنَّ النّاسَ إذ فَقَدُوه عُمْـيٌ ... أضَرَّ بلُبِّ حازِمِهم غَليلُ » .

واكتفى ابن حجر فى الإصابة (جـ ٤ ص ٩١) بالإشارة إلى القصيدة وأورد منها بيتاً واحداً هو قوله : « لقد عظمت ...» ومن الغريب أن ابن عبد البر وابن حجر ينقلان عن ابن إسحق ويصرحان بذلك فى تقديمهما للأبيات . والسيرة التى بين أيدينا تخلو منها تماماً ، مما يدل دلالة قاطعة - إن قصدا بإشارتهما لابن إسحق هذا الكتاب - وأظنهما يقصدانه فعلاً - على أن ابن هشام قد تصرف فيها بالحذف كما تصرف فى مواضع عديدة بالزيادة . ويؤكده قولُ السهيلى فى مقدمة كتابه الروض (جـ ١ ص ٣) إن ابن هشام قام بتلخيص السيرة .

....

صَدَقْتَ وبلَّغتَ الرِّسالةَ صادقاً   ومِتَّ صليبَ العُودِ أبْلَج صافياً » (١) .

وكذلك تفعل مولاته أم أيمن فى رثائها له ، فتبكى فيه صفات الخير والرحمة والبر ، وتبين عن طيب عنصره وأصله الكريم ، وما اختصه الله به من دون الناس بالوحى ، ومن دون الأنبياء بأن جعله خاتمهم (٢) .

أما فاطمة ابنته فقد رثته بمراثٍ عديدة ، فضلها ابن رشيق على مراثى الكميت لما فيها من حرارة وصدق. (٣) ومن مراثيها فيه تلك النونية القصيرة التى تبين فيها أثر موته فى أمته بل فى الوجود كله والكائنات ؛ فقد اغبر أفق السماء وكورت الشمس وأظلم العصران ، وغطت الأرضَ الكآبةُ وأصابها الرجفان :

« اغبَرَّ آفاقُ السَّماءِ وكُوِّرَتْ   شمسُ النَّهارِ وأظْلَمَ العَصْرانِ

فالأرضُ مِن بعدِ النبىِّ كئيبةٌ   أسَفاً عليه كَثِيرةُ الرَّجَفانِ » (٤) .

١ – الاستيعاب جـ ١ ص ٢١ . وهى فى الطبقات الكبرى لابن سعد (بيروت ١٩٥٧م) المجلد الثانى ص ٣٢٥ ، ٣٢٦ - مع اختلاف يسير فى الألفاظ وترتيب الأبيات - لأروى بنت عبد المطلب والصحيح نسبتها لصفية . قال الزبير حدثنى عمى مصعب بن عبد الله قال حدثنى أبى عبد الله بن مصعب قال رويت عن هشام بن عروة لصفية بنت عبد المطلب ترثى رسول الله ﷺ .. » الأبيات . الاستيعاب جـ ١ ص ٢١ .

٢ – الطبقات الكبرى - المجلد الثانى ص ٣٣٢ ، ٣٣٣.

٣ – العمدة لابن رشيق ط ١ (القاهرة ١٩٥٢ م) جـ ٢ ص ١٢٣ .

٤ – شعر الدعوة الإسلامية فى عهد النبوة والخلفاء الراشدين ص ٣٨٩ ، ٣٩٠ .

وفى الروض الأنف (جـ٤ ص ٢٧٣) قصيدةٌ عينية فى رثاء النبى ﷺ ينسبها السهيلى لعمر بن الخطاب . وأشك فى هذه النسبة . وهى لا ترقى إلى مستوى المراثى المذكورة ويبدو عليها آثار الوضع والانتحال .

وبالطبقات الكبرى (المجلد الثانى ص ٣١٩:ص٣٣٢) مراث أخرى عديدة تسير فى الإطار نفسه وبعضها لأبى بكر الصديق وأروى بنت عبد المطلب وعاتكة بنت عبد المطلب وصفية وهند بنت الحارث وهند بنت أثاثة وعاتكة بنت زيد. ومن رثاء هند بنت أثاثة له

« قد كان بَعْدَك أنباءٌ وهَنْبَثةٌ   لو كنتَ شاهِدَها لم تَكْثُر الخُطَبُ» .

وفيه تشير إلى ما كان بعد موته ﷺ من اختلاف بين المهاجرين والأنصار حول الخلافة . ولعلها تعنى بالخطب تلك التى دارت فى سقيفة بنى سعد وإن لم تصرح بذلك.

لم يكن موته ﷺ كارثة حلت بأهله فحسب ، ولا بعشيرته من بنى هاشم أو قبيلته من قريش ، وإنما هى كارثة عامة أصيبت بها الأمة فى شرقها وغربها وفى قبائلها كلها من قحطان ومضر :

« فَلْيَبْكِهِ شرقُ البلادِ وغربُها   ولْتَبْكِهِ مُضَرٌ وكلُّ يَمانِى
ولْيَبْكِهِ الطَّوْدُ المُعَظَّمُ جُودُهُ   والبيتُ ذو الأستار والأركانِ »

وعلى هذا المنوال تسير مراثيها . وهى فى جملتها تميل إلى البكاء والندب أكثر مما تميل إلى التأبين ، وتظهر فيها مرارة الفقد ولهفة الفراق ، ويغلفها دائماً حزن عميق .

ولعل هذا مرتبط بالفترة القصيرة التى عاشتها بعد النبى ﷺ ، فلم يمهلها القدر حتى تهدأ أحزانها أو تبرد نيرانها فتشوب إلى عقلها وتصدر عنه كما تصدر عن الوجدان . فمصابها فيه لا يعدله مصاب ، وفجيعتها ليس لها حدود .

* * *

٤ — ولأن المحنة فى وفاة النبي ﷺ كانت عامة فقد شارك شعراء القبائل فى رثائه . ومن هؤلاء الذين رثوه أبو ذؤيب الهذلى . وقد أشار فى رثائه له إلى ما حل بالكون من كسوف للنجوم وتزعزع للجبال ، وكأنه يرمز بذلك إلى ما حل بالأمة نفسها من ذهول كاد يعصف بها . يقول أبو ذؤيب

« كُسِفتْ لَمصْرعِه النُّجومُ وبَدْرُها　　وتَزعْزعتْ آطـــامُ بطنِ الأبْطَحِ

وتَزعْزعت أجبالُ يَثْربَ كـــلُّهَا　　ونَخيلُها لحُلولِ خَطْبٍ مُفْدحِ » . (١)

ورثاه من الأزد عامر بن الطفيل ، وأشار أيضا إلى ما اعترى الوجود إثر مصرعه ووصفه ﷺ بالنور ، وأشار إلى دوره فى بناء الدولة الإسلامية ولم شتات الأمة ؛ حيث هدى الناس إلى الحق ووضع لهم منهاجاً يسيرون عليه وكانوا لا يعرفون المنهاج :

« بكَتِ الأرْض والسَّماءُ عَلَى النُّورِ الَّذِى كَانَ لِلْعِبَادِ سِرَاجَاً

مَنْ هُدِينَـــا بِهِ إلَى سُبُلِ الحَقِّ وَكُنَّا لاَ نَعْرِفُ المِنْهَاجَا » (٢) .

أما عمرو بن سالم الخزاعى فيرى أن ما حل بالأمة من مصاب أعظم وأجل من كل بكاء :

« فيا حَفْصَ إنَّ الأمرَ جَلَّ عن البُكا　　غداةَ نَعَى النَّاعِى النبىَّ فأسْمعا » (٣) .

ويصف عبد الله بن أنيس موته ﷺ بأنه « خطب جليل» وأنه قد ترك فى النفوس فوق ما تحتمل وأنه قد فجع الخلائق كلها وأبقى الناس فى حيرة وقد استكت منهم المسامع غداة نعاه الناعون . ونراه يميل فى آخرها إلى الخلافة وما اعترى المسلمين حيالها من الاضطراب ، ويرشح ثلاثة - كلهم من قريش - لا يرى لهم رابعاً ، لفضلهم ومكانتهم فى الإسلام ؛ أبا بكر وعلياً وعمر . ويدعوهم إلى المسارعة فى حسم هذا الأمر لرد المطامع وسد الطريق أمام الأهواء . ومنها :

« فياليتَ شِعْرى مَن يقومُ بأمرنا　　وهل فى قريشٍ مِن إمامٍ يُنازعُ

١ — الروض الأنف للسهيلى جـ ٤ ص ٢٧٥ وأورد له (ص ٢٧٤) بيتين آخرين فى رثاء النبى ﷺ زعم أنه سمع بها هاتفاً فى المنام . ولم أجد هذه ولا تلك فى ديوانه .

٢ — الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٢ ص ١٩ .

٣ — الحماسة البصرية ت . عادل جمال (رسالة دكتوراه بجامعة القاهرة تحت رقم ٨٥٣ بالمكتبة العامة) حماسية رقم ٤٤٢ .

ثلاثةُ رَهْطٍ مِن قريشٍ همُ هــمُ   أزِمّةُ هذا الأمرِ واللّهُ صــانعُ
عليٌّ أو الصّدّيقُ أو عمرٌ لهــا   وليس لها بعدَ الثّلاثةِ رابــعُ
فإنْ قالَ منّا قائلٌ غيرَ هــذه   أبَيْنا وقُلْنا : اللّهُ راءٍ وسـامعُ
فيالقريشٍ قَلِّدوا الأمرَ بَعضَهم   فإنَّ صَحيحَ القولِ للنّاسِ واقعُ
ولا تُبْطِئوا عنها فُواقاً فإنّهــا   إذا قُطِعتْ لم يُمْنَ فيها المَطامعُ » . (١) .

وهكذا نجد أن الشعر الذى رثى به النبى ﷺ يدور فى محورين رئيسين ؛ أحدهما يبين أثر موته ويتعرض لما حدث للدولة الناشئة من اهتزاز ، والثانى يرصد صفاته ﷺ وخاصة ما اتصل منها بالجانب الخلقى والسلوكى ليكون نبراساً يهتدى به الناس ويقتدى به الخلفاء وأولو الأمر فى قيادتهم للأمة من بعده . وهما المحوران اللذان سوف يظهران فى رثاء الخلفاء أيضاً أبى بكر وعمر .

٥ – وفى رثائه لأبى بكر يقول خفاف بن ندبة :

« ليسَ لشيءٍ غيرِ تَقوى جَداءْ   وكلُّ شيءٍ عُمْرُه للفَناءْ
والمُلْكُ فى الأقوامِ مُسْتَودَعٌ   عاريَةٌ فالشَّرْطُ فيه الأداء » .(٢)

بداية رائعة من خفاف فى خليفة عرف بالتقوى والزهد ، فكل شيء لا يجدى صاحبه غير ما قدمه من عمل صالح صدر فيه عن التقوى ، حتى لو كان ملكاً ؛ فالملك لا يدوم وإنما هو عارية مستودعة عنده ولابد للوديعة من أن تؤدى إلى صاحبها ، وكل حى مصيره للفناء .

إذن فالملك لا يدوم وكذا الحياة وما دام الأمر كذلك فلا شيء ينفع غير تقوى الله ، وهو ما صدر به الكلام . وتلك نظرة إسلامية جديدة للملك أو الخلافة ؛ فهما وديعة من الله من ناحية ولابد أن يقترنا بالتقوى من ناحية ثانية . وكان أبو بكر رضى الله عنه نموذجاً عملياً لتلك النظرة فى خلافته ، لذلك عم الرخاء فى عهده ، وأتعب من بعده ـ على حد قول عمر بن الخطاب ـ فلم يستطع أحد أن يدانيه فى حكمه أو يحقق للأمة أياماً

---

١ – الطبقات الكبرى ـ المجلد الثانى ص ٣٢٠ ، ٣٢١ ، وبالحماسة البصرية (مخطوط) حماسية رقم ٤٤١ .

٢ – شعراء إسلاميون ـ جمعة وحققه د. نورى حمودى القيسى ط ٢(مكتبة النهضة العربية بيروت ١٤٠٥ هـ ١٩٨٤ م) ص ٥٠٩.

كتلك الأيام التي عاشتها في ظل هذا الخليفة العظيم ، ولو حاول فسوف يبوء بالعجز .

يقول خفاف :

« إنَّ أبا بكرٍ هو الغَيْثُ إذ لم تَشمَلِ الأرضَ سَحابٌ بماءْ
تاللّه لايُدْرِكُ أيَّامَـــه ذو طُرَّةٍ حافٍ ولا ذو حِـذاءْ
مَن يَسْعَ كي يُدْرِكَ أيامَه يَجْتهِدِ الشَّدَّ بأرضٍ فَضـاءْ ».

ثم ينتقل الشاعر بعد ذلك إلى الحكمةُ ويستمد من الموقف - على ما فيه من جزع - ما يعينه على تقرير بعض الحقائق حول الموت ؛ فهو يقف للمرء بالمرصاد ، ينتظره ، والمرء يسعى إليه ، تنذره العين فلا يلتفت ويظل يسير إلى قدره المحتوم .

أما حسان فيؤبن أبا بكر رضى الله عنه بأربعة أبيات يذكر فيها تقواه وعدله وحسن قيامه بالأمر بعد النبى ﷺ وخيريته وما اختص به رضى الله عنه من كونه (ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ) وأول من صدق بالنبى ﷺ فصدق من خلاله بالرسل جميعاً ، وأنه رضى الله عنه عاش حياته حامداً لله محموداً من الرعية متبعاً لنهج رسول الله ﷺ :

« إذَا تَذَكَّرْتَ شَجْواً مِنْ أخِي ثِقةٍ فاذْكُرْ أخَاكَ أبَا بـكْرٍ بِمَا فَعَلا
خيرَ البَرِيَّةِ أتْقاهـا وأعْدَلَهـا بعَدَ النبيِّ وأوفاها بما حَمَـلا
والثَّانيَ الصادِقَ المَحْمودَ مَشهدُه وأوَّلَ النَّاسِ منهم صَدَّقَ الرُّسلا
عاشَ حَميداً لأمرِ اللّهِ مُتَّبِعاً بهَدْيِ صاحِبِه الماضِي وما انْتَقلا» .(1) .

ولعل خير ما قرره حسان فى رثائه لأبى بكر بالنسبة لأمور الحكم والقيام بأمر الرعية هو اتباعه للنبى ﷺ ، وهو المبدأ نفسه الذى قرره أبو بكر رضى الله عنه يوم تولى الحكم حين قال : « إِنَّمَا أنَا مُتَّبِعٌ ولَسْتُ بِمُبْتَدِعٍ » . فكانت خلافته كلها تطبيقاً عملياً لهذه المبدأ ، وهو ما شهد له به حسان ، بالإضافة إلى ما ذكرت من الأسس التي يقوم عليها الحكم فى الإسلام كالعدل والتقوى والوفاء بعهد الله ورسوله .

٦ - كان مقتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه مدعاة لمراث كثيرة تنضح بالمرارة واللهفة والحزن ؛ للطريقة التي قتل بها من ناحية ، ولما قدمه - رضى الله عنه - من أعمال

---

١ - ديوان حسان ص ٢١١ ، ص ٢١٢ .

عظيمة للإسلام والمسلمين من ناحية ثانية . فهو أول خليفة يغتال فى تاريخ المسلمين ، وكان اغتياله عملية مدبرة شارك فيها المجوس واليهود والنصارى ، (١) وتم على يد غلام فارسى يدعى أبا لؤلؤة - كان غلاماً للمغيرة بن شعبة - وهو واحد من هؤلاء الفرس الذين استكن فى قلوبهم الحقد لعمر حين أخضع دولتهم وأزال ملكهم القديم . وكان مقتله رضى الله عنه بداية لسلسلة من المتاعب التي شهدها المسلمون والفتن التى أطاحت برأس عثمان رضى الله عنه . وقد أشار إلى هذا المعنى أحد بنى ضرار (٢) - ونسبها بعضهم للجن - فقال فى رثائه لعمر :

« جزى اللهُ خيْراً مِن أميرٍ وباركتْ	يدُ اللهِ فى ذاكَ الأديمِ المُمَزَّقِ
فمَنْ يَسْعَ أو يَرْكَبْ جَناحَيْ نَعامةٍ	ليُدرِكَ ما قدّمتَ بالأمسِ يُسْبَقِ
قَضَيتَ أموراً ثمَّ غادَرْتَ بَعْدَها	بَوائجَ فى أكْمامِها لم تُفَتَّقِ
أبَعْدَ قَتيلٍ بالمدينةِ أظلمتْ	له الأرضُ تَهتزُّ العِضاهُ بأسْوُقِ
تظلُّ الحَصانُ البِكْرُ يُلْقِي جَنينَها	نَثا خَبَرٍ فوقَ المَطيِّ مُعلَّقِ

١ - طائفة النصيرية تاريخها وعقائدها - د . سليمان الحلبى (المطبعة السلفية ومكتبتها - القاهرة ١٩٧٩ م) ص ١٦ : ص ١٩ .

٢ - أورد الدكتور/صلاح الدين الهادى هذه الأبيات فى ملحق ديوان الشماخ وشفعها ببحث واف لما قيل عنها من صحة نسبتها إلى الشماخ أو أحد أخويه جزء أو مزرد أو الجن، وقال فى آخر بحثه: « وبعد فهذه هى قصة نسبة هذه الأبيات فى المصادر المختلفة ، وهى تدل على أن الاختلاف فى نسبتها لواحد من الإخوة الثلاثة قديم يرجع أصله إلى أيام عائشة رضى الله عنها كما رأينا . رواها أو روى جزءاً منها لكل واحد من الإخوة رواة ثقات .. إلا أننا نميل إلى أن هذه الأبيات ليست للشماخ وإنما نسبت كلها أو بعضها له فى المصادر لأنه أشهر بنى ضرار. ويعزز هذا ما نقلناه من نصوص تنفى نسبتها إليه. هذا وليس لجزء ابن ضرار ديوان فيما نعلم كما أن ديوان مزرد الذى بين أيدينا ناقص ومن ثم لا نستطيع أن نقول بنسبة هذه الأبيات لمزرد أو لجزء وإن كنا نميل إلى نسبتها لجزء بناء على ما سبق من نصوص تصحح نسبتها إليه » . ديوان الشماخ بن ضرار ت . د . صلاح الدين الهادى (دار المعارف بمصر ١٩٦٨) ص ٤٤٨ : ص ٤٥١ . كما أنه لم يجد من ينفيها عن جزء فى الوقت الذى وجد فيه من الرواة الثقات من ينفيها عن الشماخ ومزرد ص ٤٤٨ .

وما كنتُ أخشى أنْ تكونَ وَفاتُه بكَفَّى سَبَنْتَى أزرقِ العينِ مُطْرِقِ » (١) .

وهى بداية جديدة تستمطر رحمة الله لا السحاب ، وتدعو بالخير والبركة بعد أن كانوا يدعون بالسقيا ونزول الغيث . ويشير الشاعر إلى ما أصاب جسده رضى الله عنه من التمزيق ، وإلى ما قدمه للإسلام فى حياته وفى خلافته مما لا يستطيع أحد من بعده أن يأتى بمثله ، وإلى ما خلّفه مقتله من دواهٍ لا تزال فى أكمامها لم تفتق وكأنه كان يراها من خلف حجاب أو يستشعر بها قبل وقوعها ويعجب كيف يثمر شجر العضاه أو تهتز له أسؤق بعدما حدث من مصاب . لقد فجع المسلمون به فجيعة توقف الخير عن النمو ، فها هو ذا النبات يكف عن الحركة ويصيبه الموت ، وها هى ذى الأجنة تسقط من بطون النساء . ولعل أكثر ما يحرك فى نفسه الأشجان ويصيبه باللوعة والحزن أن يكون مقتله على يد غلام مجوسى مسترخى الجفن من ذوى العيون الزرقاء .

ويؤبنه حسان رضى الله عنه بكثرة تلاوته للقرآن ، وحسن إنابته ، ورحمته بذوى قرباه من المسلمين وغلظته على الأعداء ، وتحمله للنائبات ، ونجابته ، وتصديق فعله للقول وسرعته فى الخير وطاعته لأمر الله ومساواته وعدله بين الرعية :

« فَجَعْنَــــا فَيْرُوزُ لادَرَّ دَرُّه بأبيضَ يَتلو المُحْكَمات مُنِيبِ

رءوفٍ على الأدنى غَليظٍ على العدا أخى ثقةٍ فى النّائبات نَجيبِ

متى ما يَقُلْ لا يكْذِبُ القولَ فعــلُه سَريعٍ إلى الخيرات غيرِ قَطوبِ

مطيعٍ لأمرِ اللّهِ بالحقِّ عـــــارفٌ بَعيدُ الأنامِ عندَه كقَريبِ » (٢) .

وهى تشمل كثيراً من الخصال التي ينبغى أن يتصف بها الحاكم المسلم والتى وضعت عمربن الخطاب في مكان عال متميز لأنه التزم بها التزاماً شديداً فى خلافته للمسلمين ، ومنها جمعه رضى الله عنه بين الشدة واللين ووضع كل منها فى موضعه الصحيح وتحمله للنائبات حتى يخرج بالأمة منها ، تماماً مثلما حدث فى عام الرمادة ، وأن يكون الفعل مصدقاً للقول ، وألا يمل من العمل لصالح رعيته ، وألا يميز أحداً عن آخرلقرابته منه أو

---

١ ـ للأبيات مصادر كثيرة وقد اعتمدنا فى نقلها على كتاب شرح الحماسة للتبريزى ، جـ ٣ ص ١٠٧ ، ١٠٩ وهى تختلف من مصدرلآخر من ناحية النسبة وعدد الأبيات والترتيب وبعض الألفاظ .

٢ – ديوان حسان ص ٢١٢ .

بعده عنه

ورثته عاتكة بنت زيد وكانت تحته (١) . كما رثاه الحطيئة برغم ما كان بينهما (٢) إلا أن هذا الرثاء يغلب عليه الندب والبكاء . وفى أبيات عاتكة إشارة إلى تكفينه رضى الله عنه وقد أفاد من ذلك الفقهاء أن الشهيد فى غير حرب يكفن مثل سائر الأموات . وفى أبيات الحطيئة إشارة إلى من تولوا دفنه ومنهم على والعباس .

وهكذا وضح الشعراء فى رثائهم لأبى بكر وعمر الصورة المثلى للحاكم المسلم والمنهج الصحيح الذى ينبغى أن يكون عليه وذلك من خلال تأبينهم لهما باتباع سنة النبى ﷺ وحسن قيامهما بأمر الرعية واتصافهما بالعدل والرحمة والصلاح والتقوى وجمعهما بين اللين والشدة ووضع كل منهما في موضعه وتحملهما للشدائد وصدق قولهما ومطابقة العمل له ورفضهما المحاباة وحمل ذوى القربى على أعناق الناس . كما أظهر الشعراء من خلال هذا التأبين مدى مصاب الأمة فيهما ، وكشفوا النقاب عما وراء مقتل عمر رضى الله عنه من تدبير وحقد . وما سوف يستتبعه هذا القتل من فتن لا تزال ـ على حد قول أحدهم ـ فى بواتقها لم تفتح بعد .

* * *

---

(١) تاريخ الطبرى جـ ٤ ص ٢١٩ .

(٢) ديوان الحطيئة ت . نعمان محمد أمين طه (مكتبة الخانجى بالقاهرة ١٩٨٧م) ص ٢٩٨ ومن هذا القبيل شعر لمجهول ـ نسبوه إلى هاتف زعموا أنهم سمعوه ليلة قتل عمر.

الفصل الثالث
فى الفتنة الكبرى

- فى مقتـــــل عثمــان (رضى الله عنه) .
- فى الصراع بين على و معاوية (رضى الله عنهما) .
- فى الصراع بين على (كرم الله وجهه) و الخوارج .



١ - لا يختلف الدارسون فى أن مقتل عثمان رضى الله عنه قد جر على الأمة شراً طويلا ، وأنه كان بداية لسلسلة من الصراعات المريرة التى مزقت وحدةالصف الإسلامى وأوقفت حركة الفتوحات وجعلت بأس المسلمين بينهم . وفى رأيى أن مقتله رضى الله عنه لم يكن بداية الفتنة ، وإنما كان ثمرة من ثمراتها ؛ فقد قتل على أيدى مجموعة من الثوار اجتمعوا من كل صوب وحدب ، وتم القتل وفق خطة مرسومة أعد لها قبل مقتله بسنوات إعداداً دقيقاً محكماً ، وساعدت الظروف الاجتماعية والتغيرات التي طرأت على الدولة فى عهده ولِينُه رضى الله عنه فى المواضع التي كان ينبغى فيها الشدة على نجاح هذه الخطة بدرجة لم يكن يتصورها حتى من خططوا لها ، ثم تتطور الأحداث وتتوالى بشكل مخيف لا يبعث إلا الأسى فى النفوس.

حين تولى عثمان رضى الله عنه الخلافة واجهته عدة مشكلات ، منها القصاص من عبيد الله بن عمر الذي قتل الهرمزان وجفينة النصرانى وابنةَ أبى لؤلؤة بعد أن تأكد لديه مشاركتهم فى قتل أبيه . وقد طالب الصحابة وعلى رأسهم على بن أبى طالب بضرورة التحقيق فى أمر عبيد الله والاقتصاص لهؤلاء القتلى منه . ولَمَّا لم يكن للهرمزان وليٌّ ولم يكن الآخران مُسْلِمَيْنِ فقد اعتبر عثمان نفسه - وهو الحاكم - ولياً للهرمزان . وقضى بالدية ، ودفعها رضى الله عنه من ماله الخاص إلى بيت مال المسلمين . إلا أن هذا التصرف العظيم أحنق بعضهم . وذهب آخرون فى تأويله مذاهب بعيدة واعتبروه ضعفاً من عثمان أو ممالأة للعرب على حساب الموالي .

وكان عمر رضى الله عنه يمنع كبار الصحابة من المهاجرين ومن أعلام قريش من الخروج أو الانسياح فى بلاد المسلمين إلا بإذن منه ولمدة محدودة ، كما منعهم من المشاركة فى الغزو واحتفظ بهم فى المدينة واتخذ منهم مستشارين له فى أمور الحكم وسياسة الرعية . وكان رضى الله عنه يخشى منهم وعليهم ؛ يخشى منهم التفاف الناس حولهم ، ويخشى عليهم إقبالهم على الدنيا وإقبال الدنيا عليهم . وكثيراً ما كان يقول لهم كلما طالبوه بالمشاركة فى الغزو والفتوحات يكفيكم غزوكم مع رسول الله ﷺ .

وقد ضاق بعضهم بتصرف عمر واعتبروه تشدداً . فلما جاء عثمان استبشروا به وبعهده وتطلعوا إلى تغيير هذه السياسة معهم .وقد أجابهم رضى الله عنه إلى ما تطلعوا إليه ،

فسمح لهم بالانسياح في الأرض ونقل إليهم فيئهم ، وأغدق عليهم في العطاء وأقطعهم القطائع ، واشترى بعضهم بساتين وتملكوا الأرض والضياع في البلاد المفتوحة . ويرى بعض المحدثين (١) أن هذا التصرف من قِبَلِ عثمان قد ساعد على إيجاد طبقة جديدة في المجتمع الإسلامي ، طبقة مرفهة تجمع إلى طيب الأصل والعنصر ثراء واسعاً وممتلكات ضخمة وأتباعاً كثيرين ، إلى جانب الطبقة المتوسطة وطبقة المعدمين .

وقد استغل الثائرون هذا التحول الاجتماعي في التأليب على عثمان وجمع العامة حولهم . وراحوا يقارنون بين حال الناس في عهده رضي الله عنه وحالهم في عهد رسول الله ﷺ وعهد خليفتيه أبي بكر وعمر ، واتهموه بمحاباة قريش وخاصة أقاربه وكان رضي الله عنه وصولاً لهم باراً بهم (٢) .

ومما استحدثه عثمان من العقوبات في عهده نفي المخالفين له إلى الولايات البعيدة ، وكذلك نفي المخالفين لولاته إلى ولايات أخرى .(٣) وقد كان هؤلاء المخالفون يؤلبون الناس عليه في مواطنهم الجديدة ويجمعونهم حولهم وحول الثائرين من أمثالهم . وكان ابن سبأ يلتقي بهم كلما أمكنه ذلك ويوغر صدورهم . وقد التقى بأبي ذر في الشام وحرضه على معاوية ، كما التقى بأبي الدرداء وعبادة بن الصامت . (٤) الا أنهم كانوا أجل من أن ينقادوا له ، فأخفق معهم في الوقت الذي نجح فيه في استقطاب آخرين من ذوي المكانة في قبائلهم كالأشتر النخعي وحكيم بن جبلة وصعصعة بن صوحان وكنانة ابن بشر (٥) . وتبعه خلق كثير في الأمصار التي كان يتنقل بينها ويشيع فيها أفكاره .

(١) منهم الدكتور طه حسين في كتابه : « الفتنة الكبرى - علي وبنوه » (دار المعارف بمصر سنة ١٩٥١ م) ص ١٠٣ وما بعدها .

والدكتور محمد مصطفى هدارة : اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ط ١ (المكتب الإسلامي - بيروت سنة ١٩٨١ م) ص ٥٧ .

والدكتور النعمان القاضي : الفرق الإسلامية في الشعر الأموي (دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٠م) ص ٣٤، ٣٥ .

(٢) تاريخ الطبري جـ ٥ص١٠٣/ الخراج لأبي يوسف (ط السلفية سنة ١٣٥٢ هـ) ص٦٠:٦٢ .

(٣) الفتنة ووقعة الجمل : رواية سيف بن عمر الضبي . جمعها وصنفها أحمد راتب عرموش ط ٦ (دار النفائس - بيروت سنة ١٩٨٦ م) ص ٣٥ : ص ٤١ « نفي المخالفين من أهل الكوفة » ، وص ٤٢ : ص ٤٤ « نفي المشاغبين من أهل البصرة » .

(٤) تاريخ الطبري جـ ٥ ص ٦٦ .

(٥) حوار مع الشيعة - عبد المتعال الجبري ط ١ (دار الصحوة للنشر - القاهرة - سنة ١٩٨٥ م) ١٠٤ : ص١٠٨ .

وكانت خطته فى التأليب على عثمان ترتكز على :

أ - الإشاعات الكاذبة كإشاعة الأشتر - وهو أحد مكاتبيه - فى أهل الكوفة حيث وقف فى الناس يوم جمعة وزعم أنه جاء من عند عثمان وترك سعيداً - أميرهم - « يريده على نقصان نسائهم إلى مائة درهم ورد أهل البلاء منهم إلى ألفين » . (١) .

ب - تحريض أهل الأمصار على عمال الخليفة وتشكيكهم فيهم بدعوى أن عثمان يولى أقاربه وهم ليسوا أهلاً للولاية ويغدق عليهم فى العطاء فيفرض لمروان أو لأخيه من الرضاع سعد بن أبى سرح خمس غنائم إفريقية . وهى رواية مضطربة غير صحيحة (٢) .

جـ - تشويه صورة عثمان وإظهاره فى صورة المغتصب لحق علي فى الخلافة . من هنا كان قوله بأن النبى ﷺ أوصى لعلى بالأمر من بعده . وفى كتاب الفتنة إشارة صريحة إلى ذلك وإلى أنه كان يوصى أتباعه بأن يبدءوا بالطعن على الأمراء تحت بند الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ثم ينتقلوا بعد ذلك إلى الطعن فى عثمان نفسه . (٣)

ويدخل تحت هذا المرتكز كل ما أشيع حول عثمان من شبهات كرده للحكم بعد أن نفاه رسول الله ﷺ ، وإعتلائه درجة فوق الدرجة التي كان يقف عليها رسول الله ﷺ ، ونفيه لأبى ذر وإجلائه لأبى الدرداء عن الشام وضربه لعمار حتى فتق أمعاءه . وهى الشبهات التي أجاب عنها أبو بكر بن العربى أروع إجابة فى كتابه العواصم من القواصم(٤)

د - تزوير الكتب على كبار الصحابة من أمثال علي وطلحة وعائشة والزبير وإرسال هذه الكتب المزورة إلى الأمصار وفيها دعوة صريحة إلى الثورة والإطاحة بعثمان . (٥).

هـ - بث الدعاة في الأقاليم المختلفة ومكاتبتهم ومكاتبة أتباعه فى تلك الأقاليم سراً (٦).

---

(١) الفتنة ووقعة الجمل ص ٤٥ .

(٢) العواصم من القواصم لأبى بكر بن العربى ص ١١١.

(٣) الفتنة ووقعة الجمل ص ٤٨ ، ص٤٩ .

(٤) ص ٧٦ : ص ١٥٠ .

(٥) الفتنة ووقعه الجمل ص ٦٠ / حوار مع الشيعة ص ١٤٦ .

(٦) الفتنة ووقعة الجمل ص ٤٩ .

و - الإعداد المسلح بكل ما يلزمه من توفير للسلاح وتجنيد للأفراد وتوزيع للقيادة وتقسيم للمهام .وهى الخطوات العملية التي ظهرت ثمرتها فى اجتماعهم بالموسم سنة خمس وثلاثين ؛ فقد جاءوا من الكوفة والبصرة ومصر فى صورة فرق مسلحة وإن كانوا قد أظهروا للناس أنهم ما خرجوا إلا لأداء فريضة الحج ، ونزلت كل طائفة من هذه الطوائف الثلاث بالقرب من مقر الخلافة ، وكانت كل طائفة تتكون من أربع فرق ، على كل فرقة رئيس ، ولكل من هؤلاء الرؤساء الأربعة قائد أعلى يدبر أمر الطائفة كلها (١).

وقد نصح غير واحد من الولاة عثمان بمواجهة هؤلاء الثائرين والشدة عليهم قبل أن يستفحل أمرهم . (٢) غير أنه كان يؤثر الرفق ويأمر ولاته أن يعاملوا الناس به فى كل شيء إلا فى حدود الله ، (٣) مماجرأهم عليه ومكن لهم حتى قتلوه .

٢ - كثرت مراثى عثمان كما لم تكثر مراثى أحد من الخلفاء قبله . وقد خصه حسان وحده بثمان مراث (٤) وكانت تجمعه به علاقة شخصية طيبة فى حياته لعلها ترجع إلى اليوم الذى آخى فيه النبى ﷺ بينهما حين آخى بين المهاجرين والأنصار . وكان عثمان رضى الله كثير الإحسان إليه .(٥) فظل حسان وفياً له بعد موته . وربما دفعه الولاء إلى شيء من التعصب له فامتنع عن بيعة على فيمن امتنع من الأنصار،(٦) ومال إلى

---

(١) الفتنة ووقعة الجمل ص ٥٧ ، ٥٨ .	(٢) المصدرنفسه ص ٥١.

(٣) المصدر نفسه ص ٥١ ، ص ٥٢ .	(٤) ديوان حسان ص ٢١٢،ص ٢١٨.

(٥) مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٥٦ . وذهب الدكتور عباس الجرارى في تعليل العلاقة الطيبة بين حسان وعثمان إلى تجاوبهما في موضوع الخلافة بعد وفاة رسول الله ﷺ : « فحسان من الأنصار ، وعثمان لم يكن يرى رأى أبى بكر وعمر فى اختيار الخليفة من المهاجرين » فى الشعر السياسى ط ١ (منشورات دار الثقافة - الدار البيضاء - سنة ١٩٧٤م) ص ٤٨ وأضاف : « ثم إنه لا ينبغى أن ننسى التهمة الموجهة للأنصار فى المساعدة على قتل عثمان، فلعل ابن ثابت - وهو أنصارى متطرف - أراد أن يخفف من وطأة التهمة فانحاز لجانب عثمان ورثاه بأكثر من قصيدة » ص ٤٨ .

وهذا التعليل الأخير ليس له ما يؤيده ؛ فقد هاجم حسان الأنصار كثيراً واتهمهم أكثر من مرة بالتهاون والتقصير وخذلانهم للخليفة فى رثائه له .

(٦) تاريخ الطبرى جـ ٤ ص ٤٢٩ .

بنى أمية على حساب بنى هاشم حتى قال أبو الفرج الأصفهانى إن حسان بن ثابت والنعمان بن بشير وكعب بن مالك كانوا عثمانية وكانوا يقدمون بنى أمية على بنى هاشم . (١) ووصفه المسعودى بأنه كان « عثمانياً منحرفاً عن غيره ». (٢) .

ونلمح فى مراثيه له ما يؤيد هذه الدعوة فهو يقول فى قصيدته التي مطلعها :

« مَن سَرَّه الموتُ صِرفاً لا مِزاجَ له فليَأتِ مَأسَدةً فى دارِ عثمانا »

بعد أن يذكر الدار وما كان فيها ويصف المحاصرين له :

« وقد رَضِيتُ بأهلِ الشّامِ زافِرةً وبالأميرِ وبالإخوانِ إخوانـــا

إنّي لمنهم وإنْ غابوا وإنْ شَهِدوا حتّى المَماتِ وما سُمِّيتُ حَسّانا » (٣) .

ثم يدعو إلى الصبر حتى تنجلى الغمة ، وينزاح عن الأمة ما حل بها :

« صَبْراً فِدًى لكمُ أمّي وما ولَدتْ قد ينفعُ الصَّبرُ فى المَكْروهِ أحيانا » .

غير أنه لا يلبث أن يعود فيشير بإصبع الاتهام - مجرد إشارة - إلى علي كرم الله وجهه فى صورة استفسار . وهذا الاستفسار فى حد ذاته يدل على أن الأمر لم يكن واضحاً حتى عند من شهدوا الأحداث وعاصروها ، فهو لا يستطيع الجزم فى توجيهه التهمة له :

« ياليتَ شِعْرى وليتَ الطَّيرَ تُخبِرُني ما كان شأنُ عليٍّ وابنِ عفّانا » .

ويعود إلى الحديث بصيغة الجمع عمن اغتالوه . ويستخدم فى ذلك ضمير الغيبة ، ويعجب كيف ضحوا به على كثرة سجوده لله وقيامه الليل وقراءته للقرآن :

« ضحّوا بأشْمَطَ عُنْوانُ السُّجودِ به يُقطِّعُ اللَّيلَ تَسْبيحاً وقُرآنا » .

ثم يختم جازماً بالثأر ، وفى الثأر انتصار للحق ؛ فهو يأتى مصحوباً بالتكبير . ويصدر هذه البشارة بالقسم :

لَتَسْمَعَنَّ وَشيكاً فى ديارِهمُ اللّهُ أكبرُ ياثاراتِ عثمانا » .

---

(١) الأغانى (ط . الدار) جـ ١٦ ص ٢٣٣ . وعبارته : « لما بويع لعلى بن أبى طالب عليه السلام بلغه عن حسان بن ثابت وكعب بن مالك والنعمان بن بشير - وكانوا عثمانية - أنهم يقدمون بنى أمية على بنى هاشم .. » .

(٢) مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٥٦ .

(٣) ديوان حسان ص ٢١٥ ، ص ٢١٦ .

وهذا الثأر الذي يتحدث عنه هو الذي يدفعه إلى تحريض معاوية أمير الشام في مقطوعة ثانية ينسى فيها عصبيته للأنصار ، بل يضع الثأر على عينيه غشاوة تدفعه إلى اتهام الأنصار كما اتهم من قبل علياً بالمشاركة فى دمه :

« أبلغْ مُعاويةَ بنَ حَرْبٍ مألُكاً	ولكلِ أمـــــرٍ يُستَرادُ قرارُ
لا تَقْبلَنَّ دنيَّةً أُعطيتَهـــــا	أبداً ولمَّا تألَمِ الأنصـــارُ .
حتّى تُبارَ قَبيلةٌ بقَبيلــــــةٍ	قَوَداً وتَخْرَبَ بالدِّيارِ ديارُ
وتَجيءُ من نَقْبِ الحجازِ كَتيبةٌ	وتَسيلُ بالمُستَلْئمينَ صِرار » . (١)

ويؤكد هذاالاتهام في مقطوعة ثالثة يتوجه فيها بالخطاب إلى زيد بن ثابت - وهو من سادات بني النجار ، وكان قد آنس فيه رشداً - أن يتدارك قومه ، وأن يدفع عنهم تلك الفتية الثائرة ، فهى فتية ضالة مضلة ، تتحرك على غير بصيرة ، وتجر من خلفها القبيلة إلى البوار والهلاك :

« يازَيدُ ياسيِّدَ الأنصارِ إنَّ لمـــــا	أحدثَ قومُكَ في عثمانَ لي خَبَرا
وإنَّ لي حاجةً يازَيدُ أذكرُهـــــا	لم أقضِ منها إلى أشياعنا وَطَـرا
إنِّي أرى لهمُ رأياً سيُهلكُهـــــم	وفِتْيَةً لم يُصيبوا فيهمُ البَصَـــرا
يا زَيدُ هل لك فيهم قبلَ مُوبِقـــةٍ	تُسعِّرُ النّاسَ في أفنائهم سَعَـــرا
يازَيدُ أهْدِ لهم رأياً يُعاشُ بـــــه	يا زَيدُ زَيدَ بنى النَّجارِ مُقْتصِـرا
يا زَيدُ أخرجْ بنى النَّجّارِ إذ عَمِيَت	وارْفُضْ طَوائفَ غَسّانٍ لها الأُخَرا » .(٢)

ونلاحظ أنه فى هذه المقطوعة يخص بنى النجار بالخيانة ، وهو نفسه ما يصنعه فى قصيدة أخرى حيث يتهمهم مرة ثانية فى الوقت الذي يبرئ فيه بطوناً أخرى من الأنصار . ثم يفصل القول فى اتهامه فيذكر أنهم قد تخاذلوا عنه ونسوا وصية النبى ﷺ به وهو صهره ، وتركوه - وحده - يواجه الغوغاء الذين قدموا من الأمصار فرداً أعزل ،

(١) ديوان حسان ص ٢١٧ .

(٢) ديوان حسان ص ٢١٧ ، ص ٢١٨ .

يدعوهم فلا يستجيبون له ويستغيث بهم ولا مغيث (١) .

وفى الحق أن عثمان هو الذي عزم على الصحابة - من المهاجرين والأنصار- بذلك وكأنه كان يرى قلتهم فى مواجهة جيوش الغوغاء وقلة استعدادهم ، ولعله نفس بهم عن الموت فى الوقت الذي حرص فيه أشد الحرص على الشهادة ، فليمت وحده دون أن تراق من حوله دماء الأخيار من صحابة رسول الله . وربما لم يخطر ببال هؤلاء الصحابة أن الغدر سوف يصل بالغوغاء إلى قتله ، وأن الحصار سوف يرفع بمجرد أن تجيء جنود الشام فسبق قدر الله ما ظنوا ، ونال عثمان الشهادة راضياً .

وفى بكائيات متتالية يذكر حسان الدار - دار عثمان - وقد أمست خاوية « باب صريع وباب محرق خرب » . ويطلب من الناس أن يبدوا ذات أنفسهم حيث لا يستوى عند الله الصدق والكذب ، وأن ينيبوا لأمر الله قبل أن تحل فيهم كتائب الثأر . (٢) ويتسائل فى لهفة ماذا أرادوا بقتله وتمزيق جسده الطاهر ، وهو ولي الله والقائم على أمر أمته ولم يعرف عنه غير الجهاد والوفاء والصدق والخير والرشد ؟ فهلا رعوا ذمة الله فيه ووفوا بعهد نبيهم ﷺ !! (٣) .

ويعجب ممن يبكى على الدمن ويترك البكاء على أمين الله المضطهد حيث صار رهين القبر والكفن ، ذاك الإمام الأمين المسلم الفطن الذى لم يُقتل على ذنب ألم به أو معصية اقترفها وإنما قتلوه ظلماً وتقولوا عليه إفكا وزوراً . (٤) .

وهو بهذه البكائيات كلها يثير فى الناس العواطف الدينية ويحرك مشاعرهم ليثوروا على من ظلم الخليفة ، أو على أقل تقديرلا يقفوا في وجه من سوف يخرجون من بعد طالبين بالثأر ، وهم بنو أمية . من هنا كان وصف القدماء له بالعثمانية ومناصرة بنى أمية.

٣ - وممن ضجوا لعثمان وسخطوا على قاتليه كعب بن مالك . وهو أيضاً من

---

(١) ديوان حسان ص ٢١٤ وفى هذه القصيدة يتهم أيضاً بنى بكر بن عبد مناة بن كنانة فقد كانوا فى رأيه ممن أعان على عثمان .

(٢) المصدر نفسه ص ٢١٢ ، ص ٢١٣ .

(٣) المصدر نفسه ص ٢١٣ .

(٤) المصدر نفسه ص ٢١٣ ، ص ٢١٤ .

الأنصار . وقد وصفه أبو الفرج الأصفهاني بالعثمانية والميل إلى بني أمية كما وصف حساناً . إلا أنه في رثائه لعثمان كان أهدأ من حسان وأشد تحفظاً في توجيه الاتهامات .
ويُروى أنه دخل على عليٍّ مع النعمان بن بشير وحسان وجادلوه في أمر عثمان وكان هو المتكلم بلسان من معه ، وكان فيما قال :

« يا أمير المؤمنين أخبرنا في عثمان أقُتل ظالماً فنقول بقولك أو قتل مظلوماً فنقول بقولنا ونكلك إلى الشبهة فيه » ؟ (١) وأنشد كعب بين يديه :

« فكَفَّ يَدَيْه ثمَّ أغْلَقَ بابَـــــه ... وأيقنَ أنَّ اللَّهَ ليسَ بغافـــلِ
وقالَ لمن في دارِه لا تقاتلـــوا ... عفا اللّهُ عن كلِّ امرِىءٍ لم يقاتِلِ
فكيفَ رأيتَ اللّهَ صبَّ عَلَيْهِمُ الـ ... ـعَداوةَ والبَغْضاءَ بَعْـدَ التَّوَاصُلِ
وكَيْفَ رَأَيْتَ الخيرَ أدبرَ عنهـــمُ ... وولَّى كإدبارِ النَّعـــامِ الجَوافلِ » .(٢) .

وهو يشير في هذه الأبيات إلى أمر عثمان لأتباعه بعدم القتال . وهذا ما لم يذكره قط حسان في مراثيه لعثمان على كثرتها ، لأنه كما سبق أن ذكرت كان يتهم بعض بطون الأنصار بالمشاركة في قتله . ويشير كعب أيضاً إلى ما حل بالأمة بعد مقتله من العداوة والبغضاء وذهاب الخير .

وهذا المعني الأخير نراه أيضاً عند ابن الغريزة النهشلي حيث يقول :

« لَعَمْرُو أبيكَ فلا تَذْهَلَنْ ... لقد ذهبَ الخيرُ إلا قليـــلا
وقد فُتِنَ النّاسُ في دينهِم ... وخَلَّى ابنُ عفّانَ شرّاً طويلا » . (٣) .

فقد انقسم الناس من بعده ، وحل الصراع بين بني هاشم وبني أمية ، وظهرت الأحزاب السياسية المختلفة وهو ما سوف نتحدث عنه في جزء تال.

وترثيه ليلى الأخيلية بأربعة أبيات تعجب فيها من أمر الأمة وكيف ترجو الخير بعدما امتدت أيد آثمة واغتالته رضي الله عنه ، وتذكر ما قدّمه لهذه الأمة في حياته من عطاء

---

(١) الأغاني (ط . الدار) جـ ١٦ ص ٢٣٣ .
(٢) ديوان كعب بن مالك ت . سامي مكي العاني ص ٢٦٤ .
(٣) الكامل للمبرد جـ ٣ ص ٢٩ وسماه ابن الغريزة الضبي / الإصابة جـ ١ ص ٣١٠/ الاستيعاب جـ ١ ص ٣٩٤وجـ ٣ ص ٨٤ / معجم الشعراء ص ٢٤٠ . مع اختلاف بينها في بعض الألفاظ .

جم وما جلبه لهم من رخاء :

« أَبَعْدَ عثمانَ ترجُو الخيرَ أُمَّته وكان آمَنَ مَن يَمشى على ساقِ

خليفةُ اللّهِ أعطاهم وخوَّلهم ما كان مِن ذَهَبٍ جُومٍ وأوراقِ » (١) .

إلا أن ما حدث لا يدفعها إلى اليأس أوالتشاؤم كما دفع غيرها وإنما يدفعها إلى مزيد من الثقة بالله ، والتسليم بأن ما يجرى إنما يجرى بقدر الله :

« فلا تُكذّبْ بوَعْدِ اللّهِ واتّقه ولا تَوكّلْ على شيءٍ بإشفــاقِ

ولا تقولَنْ لشيءٍ سوف أفعلُه قد كتبَ اللّهُ ما كلُّ امرىءٍ لاقِى » .

وتذكر نائلةُ زوج عثمان أنه رضى الله عنه كان خير الناس بعد الرسول ﷺ وأبى بكر وعمر . وتصرح باسم قاتله وكانت قد شهدته بعينيها وأرادت دفعه قبل أن يصيب عثمان بمشقصه فقطع أصابعها وغمزها فى عجيزتها ، (٢) إنه التجيبى كنانة بن بشر :

« ألا إنَّ خيرَ النّاسِ بعــدَ ثلاثةٍ قتيلُ التُّجيبىِّ الّذى جاء مِن مِصْرِ

ومالِيَ لا أَبْكِي وتَبْكي قرابَتِي وقد غُيِّبتْ عنّا فُضولُ أبى عَمْرِو ؟ (٣) .

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ت . أحمد محمد شاكر ط ٣ (دار التراث العربي ـ القاهرة سنة ١٩٧٧ م) جـ ١ ص ٤٥٦ . والكامل للمبرد جـ ٣ ص ٢٨ وفيه : « قد قدر الله ما كل امرىءٍ لاقى » .

ولها فيه رضى الله عنه مرثية أخرى تحرض فيها معاوية تحريضاً صريحاً على الثأر له والانتقام من قاتليه ، وتغريه بالخلافة ، فهو الذي يدعى من بعد عثمان « أمير المؤمنين » وتشير إلى الفتنة التى وقع فيها المسلمون وأوشكت أن تودى بهم ؛ فقد ضاع أمرهم ، وتشتتت سبل الرشاد :« قُتِلَ ابْنُ عفّانَ الإمامُ (م) وضاع أمرُ المسلمينــا

وتَشتَّتت سُبُلُ الرَّشاد (م) لِصَادِرينَ ووارِدِنـــا

فانهضْ مُعاوِىَ نَهْضَةً تَشْفِى بها الداءَ الدَّفينا

أنتَ الّذى مِن بَعْــدِه تُدْعَى أميرَ المؤمنينـــا » .

الاستيعاب لابن عبد البر جـ ٣ ص ٨٣ .

(٢) الفتنة ووقعة الجمل لسيف بن عمر ص ٧٢ ، ص ٧٣ .

(٣) الأغاني (ط . الدار) جـ ١٦ ص ٣٢٤ . مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٥٥ والبيت الثانى فيه : « .... وقد غيبوا عنى ....» . الإصابة لابن حجر العسقلانى جـ ٣ ص ٦٣٨ وفيه ينسبان إلى الوليد بن عقبة . نسب قريش ص ١٠٥ البيت الثاني فقط . الكامل للمبرد جـ ٣ ص ٢٨ للوليد بن عقبة وفيه : « ... وتبكى أقاربي / وقد حجبت ...» .

وتذكر بعض الروايات أن عثمان عندما اشتد عليه الحصار أطل على الثوار وذكَّرهم بأنه لا يحل سفك دم مسلم إلا في ثلاثٍ : كفر بعد إيمان ، وزنا بعد إحصان ، أو قتل نفس بغير حق . ثم قال : « فهل أنا وفي واحدة منهن » ؟ وحين لم يجيبوه واصل رضى الله عنه « : أنشدكم الله هل تعلمون أن رسول الله ﷺ كان على حراء ومعه تسعة من أصحابه أنا أحدهم فتزلزل الجبل حتى همت أحجاره أن تتساقط فقال له النبي ﷺ : « اسْكُنْ حِراءُ فَمَا عَلَيْكَ إِلاَّ نَبِيٌّ أَوصِدِّيقٌ أَوْ شَهِيد » ؟ قالوا : « نعم » . قال : شهدوا لي ورب الكعبة » . فصور هذا المشهد أحد الشعراء المجهولين ، واستعظم ما صنعوه بعثمان ، وتنبأ لهم بحرب مبيرة تذهب بهم كما ذهبت من قبل بالظالمين :

« ألا قلْ لقومٍ شاربِى كأسِ عَلْقَمٍ ... بقتلِ إِمَامٍ بِالْمَدِينَةِ مُحْرِمِ
قتلتُم أمينَ اللّهِ في غيرِ رِدَّةٍ ... ولاحَدٌّ إحصانٍ ولا قتلِ مُسلِمِ
تعالَوا ففاتُونا فإنْ كان قتلُه ... لِواحِدَةٍ منها يَحِلُّ لكمْ دمى
وإلا فأَعْظِمْ بالّذى قد أَتَيْتمُ ... ومَن يأتِ ما لم يَرْضَهُ اللّهُ يَظْلِمِ
فلا يُهْنِينَّ الشَّامِتينَ مُصابُه ... فَحظُّهُمُ مِن قتلِه حربُ جُرْهُمِ » . (١) .

ومثل هذا نجده عند أيمن بن خريم ، حيث يصور مشهد قتله ، ويعمد إلى الإثارة فى التصوير ؛ فهم أولاً قد ذبحوه ، وثانياً ذبحوه فى الشهر الحرام كما تذبح الأضاحى ، وسنوا بذلك سنة سوء يبقى وزرها على كاهلهم حتى يوم القيامة إذ فتحوا الباب للجرأة على كل سلطان :

« تَفاقدَ الذّابحو عثمانَ ضاحيةً ... أىُّ قتيلٍ حَرامٍ ذَبَّحوا ذُبِحوا
ضَحَّوا بعثمانَ في الشَّهرِ الحَرامِ ولم ... يخشَوا على مَطْمَحِ الكَفِّ الّذى طَمَحوا
فأىُّ سُنَّةِ جَوْرٍ سَنَّ أَوَّلُهم ... وبابِ جَوْرٍ على سُلْطانِهم فَتَحوا » ؟ (٢) .

---

(١) الكامل للمبرد جـ ٣ ص ٢٩ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣٠ . الاستيعاب جـ ٣ ص ٨٣ مع اختلاف فى الألفاظ والترتيب والزيادة والنقصان . وشبيه بهذا الرثاء قول القاسم بن أمية بن أبي الصلت في عثمان كذلك :

« ضَحَّيتُم بِهِ لَعَمْري لِبِئْسَ الذَّبح وخُنْتُم رسولَ اللهِ في قتلِهِ » الاستيعاب جـ ٣ ص ٨٣ .

وفيه يضيف خيانتهم لرسول الله بجرأتهم على قتل خليفته . وتضيف زينب بنت العوام فى =

ويتساءل بعد ذلك ماذا أرادوا بهذا الصنيع ؟ وهو التساؤل الذى كان يدور على ألسنة كثير ممن عاصروا الأحداث . وقد أجاب عن هذا التساؤل حنظلة الكاتب حين قال :

« عجبتُ لما يخوضُ النّاسُ فيه ... يرومونَ الخلافةَ أنْ تزولا

ولو زالتْ لزالَ الخيرُ عنهم ... ولاقَوا بَعْدَها ذُلاً ذَليلا

وكانوا كاليهودِ أوالنّصارى ... سَواءٌ كلُّهم ضلّوا السَّبيلا ».(١).

وهكذا نجد أن الرثاء قد شارك مشاركة قوية فى تصوير الفتنة التى حلت بالأمة وراح ضحيتها عثمان ، وأنهم فى مراثيهم له قد عبروا عن حالة السخط العام على الثائرين ، وأشاروا بإصبع الاتهام إلى من تخاذلوا عنه أو قصروا فى الدفاع ، وتجرأ بعضهم فرمى علياً بذلك ، ورمى بعضهم الأنصار ، وتحفظ آخرون فلم يشتطوا فى إلقاء التبعة على الصحابة وإن تساءلوا مع الباقين عما أريد بقتله ، وكان هذا التساؤل يتردد على ألسنة الكثيرين ، وتختلف الإجابة عنه باختلاف المشارب والأهواء ، لكنها لا تختلف فى أن مقتله رضى الله عنه كان كارثة فتحت على الأمة باب شر طويل .

وقد أبنوه رضى الله عنه بما هو أهل له من التأبين ليبرزوا فداحة المصاب فيه . وركزوا فى تأبينهم له على اتصافه بما ينبغى أن يتصف به الحاكم المسلم من الزهد والتقوى وحب الخير والرحمة والقيام بأمرالله . ولم يكفوا عن استفظاع ما حل به وكيف أن الثائرين قد حاصروه ومنعوا عنه الماء وحالوا بينه وبين الرعية ثم تطاولوا عليه فقتلوه ومزقوا جسده وهو قائم بالليل يتلو كتاب الله ويطلب ممن حوله أن يكفوا أيديهم ويستقبل الموت فى تسليم . وكانوا يهدفون من وراء هذا إثارة مشاعر الأمة للثأر له والتنديد بالقاتلين .

٤ – بعد مقتل عثمان واجه المسلمون مشاكل كثيرة ، منها إعادة الأمن مرة أخرى ،

= رثائها له قسوتهم ومبالغتهم فى تعذيبه قبل قتله ؛ فقد عطشوه فى جوف داره ومنعوا عنه الماء ، وتذكر أن ما حل به قد أطار النوم من عينيها وأقلقها وأقلق معها المسلمين :

« وعطَّشتُمُ عثمانَ فى جَوْفِ داره ... شربتُم كشُرْبِ الهِيمِ شُربَ حَميم

فكيفَ بنا أم كيفَ بالنّومِ بَعْدَ ما ... أُصيبَ ابْنُ أروَى وابْنُ أُمِّ حكيم » ؟

الاستيعاب جـ ٣ ص ٨٣ .

والأشعار فى ذلك ـ كما يقول ابن عبد البر ـ « كثيرة جداً يطول بها الكتاب » .

(١) الفتنة ووقعة الجمل ص ٦٧ المصدر نفسه والصحيفة .

والثأر لعثمان ، وقبل هذا وذاك مسألة الخلافة ؛ فقد ظلت المدينة بلا خليفة ، يدبر شئونها الغافقيُّ ، ويُحكم الثوار قبضتهم على كل شيء فيها . (١) حالة طوارىء كتلك التي نراها عقب الانقلابات العسكرية في عصرنا الحديث. أما الأنصار فقد اعتادوا أن يكون الأمر في قريش منذ تولى أبو بكر الخلافة ثم تولاها من بعده عمر فعثمان ، وأما المهاجرون فقد ترقبوا ما سوف تسفر عنه الأحداث . وقد وضح منذ البداية أن الثوار لا يريدونها لأنفسهم ؛ لأن المسلمين لن يقروهم على ذلك ، وهم ليسوا لها بأهل . ووضح أيضاً أن الأمر سوف يكون محصوراً في ثلاثة من قدامى المهاجرين ومن كبار قريش : عليّ وطلحة والزبير ؛ فهم الذين تبقوا من الستة أصحاب الشورى بعد موت عبد الرحمن بن عوف - وكان قد مات في خلافة عثمان - واعتزال سعد بن أبي وقاص . وكان عليّ أقرب الثلاثة ، وكان هوى أهل مصر معه . غير أنه رضي الله عنه رفض أن يتسلمها من يد الثوار لما في ذلك من شبهة ، ولأن هؤلاء الثوار ليسوا من أهل الحل والعقد وهم الذين تجرى على أيديهم البيعة . وكذلك فعل طلحة والزبير ، فقد كانا يختبئان ويلوذان - مثلما لاذ عليّ - بحيطان المدينة وبساتينها . يطلبهم الثائرون فلا يجدونهم ، ويرسلون إليهم الرسل فيباعدونهم ويتبرأون من مقالتهم . (٢) « ولما كان يوم الخميس على رأس خمسة من مقتل عثمان رضي الله عنه جمعوا أهل المدينة .. فلمااجتمع لهم أهل المدينة قال لهم أهل مصر : أنتم تعقدون الإمامة ، وأمركم عابر - أي جائز - على الأمة ، فانظروا رجلاً تنصبونه ونحن لكم تبع . فقال الجمهور: علي بن أبي طالب، نحن به راضون »(٣) . وفي رواية أنه أمهلوهم يومين وهددوهم بقتل علي وطلحة والزبير وأناس كثيرين إن لم يفرغوا من هذا الأمر خلالهما ، فبايع الناس علياً وبايع طلحةُ والزبير(٤) وهكذا فرغ

(١) الفتنة ووقعة الجمل ص ٩١ .
(٢) المصدر نفسه والصحيفة .
(٣) المصدر نفسه ص ٩٢ ، ص ٩٣ .
(٤) المصدر نفسه ص ٩٣ وفيه أنهما بايعا مجبرين . وهذا يتفق مع رجوعهما عن البيعة بعد ذلك . ويؤيده شهادة أسامة بن زيد ص ١٢٨ وشهادة أخرى لعلى ١٢٩ . أما أبو بكر بن العربي فقد قال في كتابه العواصم من القواصم ص ١٤٨ : « فإن قيل بايعا مكرهين قلنا حاشا لله أن يُكرها ، لهما ولمن بايعهما . ولو كانا مكرهين ما أثر ذلك لأن واحداً أو اثنين تنعقد البيعة بهما وتتم ، ومن بايع بعد ذلك فهو لازم له ، وهو مكره على ذلك شرعاً . ولو لم يبايعا ما أثرذلك فيهما ولا في بيعة الإمام » .

المسلمون أو كادوا من مشكلة الخلافة ، أوهكذا ظن كثير منهم لأنهم ؛ لم يكونوا يعلمون أن بعض الأقاليم سوف ترفض هذه البيعة ، وأن بعض من بايع سوف ينكث بيعته.

واتجهت الأنظارصوب على ترقب ما سوف يصنع مع قتلة عثمان ، وفي الحق أن الظروف لم تكن مواتية أمام علي للتحقيق والقصاص ولما تأته البيعة من الأقاليم كلها ويحكم قبضته على المدينة ويخرج الثائرين منها ويصبح خليفة بالفعل . فلم يكد رضى الله عنه يبدأ التحقيق مع محمد بن أبي بكر وتثبت له براءته حتى يحتج عليه الثوار ويحولون بينه وبين المضى مع الآخرين ممن ثارت حولهم الشكوك وامتدت إليهم أصابع الاتهام.فيضطر إلى التأجيل . ويستأذن طلحة والزبير فى أداء العمرة ويبدو أنهما لم يقتنعا برأيه في تأجيل القصاص ورأيا فى ذلك تعطيلاً لحد من حدود الله ، وظنا في أنفسهما القدرة على تنفيذ هذا الحد (١) . فاحتالا للخروج بهذا الإذن فأذن لهما .

وفى مكة التقيا بعائشة وكانت تحض الناس على الثأر لعثمان وتلعن قاتليه . كما التقيا بواليين من ولاة عثمان الذين خلعهم عليّ ؛ عبد الله بن عامر بن كريز والى البصرة ، ويعلى بن أمية والى اليمن ، وكانا قد جاءا بمال كثير . وانضم إليهم الفارون من بنى أمية وفيهم سعيد بن العاص والوليد بن عقبة . « واجتمع ملؤهم بعد نظر طويل فى أمرهم على البصرة » (٢) فخرجوا إليها . ويبدو أن الذي أغراهم بها عبد الله بن عامر بن كريز واليها السابق حيث قال إن له بها صنائع ولهم فى طلحة هوى . (٣) . أما على فقد توجه إلى الكوفة بعد أن أفلته اللحاق بهم . وكان رضى الله عنه ينوى إعادتهم . فلما لم يتمكن من ذلك استنفر أهل المدينة فتثاقلوا عنه ، ولم يجبه غير قليل منهم لأنه تحرجوا مـــن من

---

(١) اقترح طلحة على عليّ أن يخرج للبصرة وفيها أتباع كثيرون له ثم يقدم عليه بالمدينة ومعه جيش كبير يستعين به فى القصاص وفى إخراج هؤلاء الثائرين من المدينة بعد أن رفضوا الخروج . وكذلك اقترح عليه الزبير أن يخرج إلى الكوفة ويفعل مثلما فعل طلحة . ولكنه رضى الله عنه خشى من التفاف الناس حول هذين الرجلين وتفرق أمر الأمة ـ وقد جاء فى بعض الروايات أنهما بايعا مكرهين ـ فرفض الإذن لهما بذلك وأجرى عليهما ما أجراه على قريش . الفتنة ووقعة الجمل ص ٩٨ ، ص ٩٩ .

(٢) الفتنة ووقعة الجمل ص ١١٣ .

(٣) المصدر نفسه ص ١١٤ ، نسب قريش ص ١٤٨ .

قتال بعضهم بعضاً . وكان فيمن تحرج عبد الله بن عمر رضى الله عنه فرفض الخروج معه وكان من قبل قد منع أخته حفصة أم المؤمنين من الخروج مع عائشة (١) .

وكاتب عليّ أصحاب الجمل وكاتبوه ، ومشى الرسل بين هؤلاء وهؤلاء ، وكاد بعضهم يصل إلى حل يرضى الأطراف جميعاً وتصان فيه الدماء بعد أن وجد نية الإصلاح لدى الجميع ، وهو القعقاع بن عمرو ، ذلك الصحابى الجليل ، لولا ما خططه السبئيون وبيتوا له بليل من إشعال نار الحرب بتعجيل القتال والخروج عن أمر علي ليبدو أمام أهل البصرة مضمراً للحرب ، وليعجل هؤلاء البصريون فى الرد عليهم فيندلع القتال وتبوء كل محاولة لدفعه بالفشل وتذهب أصوات السلم أدراج الرياح (٢) .

٥ – كان الندم هو السمة الغالبة فى المراثى التي قيلت يوم الجمل ؛ الندم على القتال الذي وقع بين المسلمين أنفسهم ، وتحول تلك السيوف التي أعدت لجهاد الأعداء منذ عهد النبى ﷺ إلى صراع داخلى تحصد فيه رقاب المسلمين من صحابة وتابعين؛ فها هوذا علي بن أبى طالب يسير بين القتلى بعد انتهاء المعركة، وكلما تعرف على واحد من أنصاره أو خصومه توجع وأنّ وشكا إلى الله عز وجل ما حل بالأمة وأسف على تلك الأحداث :

« إليكَ أشكُو عُجَرِى وبُجَرِى ... ومَعْشَــراً عَشَوا عليَّ بَصَرِى
قتلتُ منهـــم مُضَراً بمُضَرِى ... شَفَيتُ نَفْسِى وقتلتُ مَعْشَرِى » . (٣)

وها هوذا طلحة بن عبيد الله يتمثل مثله ومثل الزبير وقد أصابه سهم فى ركبته لم يعرف راميه ، وقيل إن بنى أمية هم الذين قتلوه خوفاً من تحول الأمر إليه بعد انسحاب الزبير إذا ما لحقت الهزيمة بعلى :

« فإنْ تكنِ الحوادثُ أقْصَدتْنى ... وأخْطَأهنَّ سَهْمِى حينَ أرمِى
فقد ضُيِّعتُ حينَ تَبِعتُ سَهْماً ... سَفَاهاً ما سَفِهتُ وضَلَّ حِلمِى

---

(١) الفتنة ووقعة الجمل ص ١١٦ ، ص ١١٨ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٤٤ : ص ١٤٩ ، ص ١٥٥ : ١٥٧ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٦٧ . والذي في اللسان (٦:٢١٦) عن محمد بن يزيد فى تفسير «عجرى وبجرى » : « معناه همومى وأحزانى . وقيل : ما أبدى وأخفى . وكله على المثل» وقال : « وأصل العجر العروق المنعقدة فى الصدر ، والبجر : العروق المنعقدة فى البطن خاصة » .

نَدِمتُ نَدامةَ الكُسَعِيِّ لَمّا شَرَيْتُ رضا بنى سَهْمٍ برَغْمى
أطعتُهمُ بفُرْقَـةِ آلِ لَأْيٍ فألْقَوا للسِّباعِ دمى ولحمى ».(١)

ويذهب ابن جرموز إلى عليّ ليبشره بقتل الزبير ، وكان قد قتله غدراً حين انصرف الزبير عن القتال ، فإذا بعليّ يتجهم ويبشره بالنار فيخرج من عنده خائباً وهو يردد :

« أتيتُ علياً برأسِ الزُّبير أبغِي بـــــه عنَه الزُّلْفَهْ
فَبَشَّرَ بالنَّار يومَ الحساب فبِئستْ بِشارةُ ذى التُّحْفَهْ » (٢) .

وتشير عاتكة بنت زيد فى رثائها للزبير - وكان زوجها - إلى غدر ابن جرموز به ، وتبشره هى الأخرى بالنار لأنه قتل مسلماً متعمداً وكأنها تنظر إلى قول الله عز وجل ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيـــهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً ﴾.(٣) وتروى هذه الأبيات لأسماء بنت أبى بكر وكانت هى الأخرى زوجاً للزبير :

« غدَر ابنُ جُرمُوزٍ بفارسِ بُهْمةٍ يومَ اللِّقاءِ وكان غـيرَ مُسَدَّدِ
يا عَمْرو لـو نَبَّهْتَـه لوَجَدْتَـــه لا طائشاً رَعِشَ الجَنانِ ولا اليدِ
هَبِلَتْكَ أُمُّكَ إنْ قتلتَ لمسلماً حلَّتْ عليكَ عُقوبةُ المُتعمِّدِ ».(٤)

وترثيه أخته زينب وترثى معه ابنها عبد الله بن حكيم بن حزام . ويذكرها مقتله بمقتل عثمان رضى الله عنه ، فتعجب لحال الأمة وتنعى على الإسلام مقتل هذين الشخصين الجليلين :

« أعينىَّ جُودا بالدُّموعِ فأفْرِغا على رجلٍ طَلْقِ اليدينِ كـريمِ
زُبَيـراً وعبدَ اللهِ ندعُو لحادثٍ وذى خَلَّةٍ منّا وحَمْلِ يتيـــمِ
قتلتُم حَوارِيَّ النبيِّ وصِـهْرَه وصاحِبَه فاستَبْشِروا بجحيـمِ
وقد هدَّنى قتلُ ابنُ عَفانَ قبلَه وجادتْ عليهِ عَبْرتى بسُجُـومِ

(١) الفتنة ووقعة الجمل ص ١٥٨ .
(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد - ت . محمد أبو الفضل إبراهيم جـ ١ ص ٢٣٦ / الاستيعاب جـ ١ ص ٤٨١ . مع اختلاف طفيف فى الألفاظ .
(٣) سورة النساء - آية رقم ٩٣ .
(٤) مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٧٣ وصدر البيت الثالث فيه : « هبلتك إن قلت لمسلماً » هكذا. وهو لا يستقيم / شرح ديوان الخنساء ص ١٦٥ .

وأيقنتُ أنَّ الدِّينَ أصبـــح مُدْبراً فكيفَ نُصَلّى بعدَهُ ونصـــومُ
وكيفَ بنا أمْ كَيْفَ بِالدِّينِ بَعْدَ مَا أُصِيبَ ابْنُ أرْوَى وابن أمِّ حكِيم » .(١)

ونلاحظ أنها فى هذه الأبيات تعمد إلى الإثارة ؛ إثارة المشاعر بنقل المصاب إلى الدين نفسه ، وبما خلعته على الزبير من صفات ؛ فهو صاحب النبى ﷺ ، وتلك مرتبة عامة ، وصهره ، وتلك مرتبة خاصة ، ثم هو حواريه ، وتلك مرتبة من أخص خصائصه رضى الله عنه وقد أشار إلى ذلك النبى ﷺ حين قال : « إنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيٌّ وَإِنَّ حَوَارِيَّ الزُّبَيْرُ » .(٢)

ولزيد الخيل فى مقتله رضى الله عنه :

« لَمَّا أتى خبرُ الزُّبيرِ تواضعـــتْ سُورُ المدينةِ والجبالُ الخُشَّعُ » .(٣)

وهو يشير إلى ما حل بعاصمة الخلافة من فراغ سببه مقتله ، واهتزاز وخشوع .

وترثى ابنة عمرو بن يثربى أباها وكان قد قتل عدداً كبيراً من فرسان على وهو يقاتل بين يدى عائشة ويحول بينهم وبين الوصول إلى الجمل ، وتشير فى رثائها له إلى مكانته بين القبائل وإلى إسلام قومه له ودفاع الأزد عنه :

« ياضَبُّ إنَّكِ قد فُجِعتِ بفارسٍ حامِى الحقيقةِ قاتـلِ الأقْرانِ
عَمْرو بنِ يَثْربَ الَّذى فُجِعتْ به كلُّ القبائلِ مِن بنى عَدْنـــانِ
لم يَحْمِهِ وَسْطَ العَجــاجةِ قومُهُ وحَنَتْ عليه الأزْدُ أزْدُعُمانِ » .(٤)

٧ — وإلى جانب الندم نجد الثورة ؛ الثورة على كلا الطرفين أو أحدهما . فها هى ذى امرأة من عبد القيس - قتل زوجها وابناها وأخوان لها فى المعركة - تتحسر على تلك

---

(١) نسب قريش ص ٢٣٢ . وفى البيت الخامس إقواء / الإصابة جـ ٤ ص٣١٢مع اختلاف في الترتيب و الألفاظ

(٢) صحيح البخاري جـ٢ص ٣٠٢،جـ٣ص٣٣ / صحيح مسلم بشرح النووى جـ ١٥ ص ١٨٨ وفيه : « لكلِّ نبيٍّ حواريٌّ و حواريَّ الزُّبيرُ » .

(٣) شعراء إسلاميون ص ٢١٣ . وقد نسبه ابن سعد فى الطبقات وسيبويه فى الكتاب إلى جرير والمعروف أن زيد الخيل مات على عهد رسول الله ﷺ فلعله لابنه وكان قد عاصر الأحداث .

(٤) شرح نهج البلاغة جـ ١ ص ٢٦١ .

الفتنة التي أطاحت بخيار المسلمين ، وتتمنى ألا تكون عائشة قد خرجت من بيتها وارتحلت فوق ظهر جملها - وكان يسمى عسكراً - إلى بلدها في العراق :

« شَهِدتُ الحُروبَ فَشيَّبْنني — فلم أرَ يوماً كيـوم الجَمَلْ
أضرَّ على مؤمـنٍ فِتنةً — وأقتلَهُ لشُجاعٍ بَطَـلْ
فليتَ الظَّعيـنةَ في بيتِها — وليتَك عَسكرُ لم ترتَحِـلْ ».(١)

وإن كانت الثورة على عائشة في الأبيات السابقة لا تظهر إلا على استحياء أو تتخفى وراء العتاب والتمني المستحيل ، فهي صارخة في قول ربيعة العقيلي :

« يا أُمَّنـا أعقّ أُمّ نَعلمُ — والأمُّ تَغْذو وَلَداً وتَرْحَـمُ
ألا تَرَيْنَ كم شُجاعٍ يُكْلَمُ — وتُختَلى منه يَدٌ ومِعْصَمُ ؟ » (٢)

وصارخة أيضاً في رثاء أم مسلم لابنها حيث تقول في لهفة شاكية إلى الله ما حل بابنها

« لا هُمَّ إنَّ مُسْلِماً أتاهـمْ — مُستَسْلِماً للموتِ إذ دعاهمْ
إلى كتابِ اللّه لا يَخْشاهمْ — فرمّلوهُ مِن دمٍ إذ جاهـمْ
وأُمُّهم قائمـةٌ تَراهـمْ — يأتَمِرونَ الغَيَّ لا تَنْهاهـمْ »(٣) .

بل ربما نجد ما يشبه الثورة على النفس في رثاء علي لقتلى ربيعة ، على الرغم من إشارته إلى حسن طاعتهم وتبشيرهم بالمنزلة الرفيعة ، فقد أنزلت بهم تلك الطاعة ما أنزلت من تقتيل وشدة وبلاء :

« يا لَهفَ نَفْسي على رَبيعهْ — رَبيعةَ السّامِعةَ المُطيعهْ

---

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٧٨ .

(٢) الفتنة ووقعة الجمل ص ١٦٣ وهما بشرح نهج البلاغة جـ ١ ص ٢٦٤ مع اختلاف طفيف. في البيت الأول : « ولدها » والثاني « أما ...وتختلى هامته والمعصم » . وبالأخبار الطوال مع اختلاف كذلك في الرواية - ص ١٥٠ وقد نسبهما لعمرو بن الأشرف فارس أهل البصرة . وفيه « .. يا خير أم نعلم ..» ولعلها أصل الرواية ثم حرفت علي أيدى الخصوم.

(٣) الفتنة ووقعة الجمل ص ١٦٩ ، وكان علي قد أرسله إلى جيش عائشة يدعوهم إلى كتاب الله فرشق بالسهام مثلما رشق كعب بن سود ، حامل مصحف عائشة .

قد سَبَقَتْنى فيهـــمُ الوَقِيعةْ دَعا علىٌّ دَعْوةً سَمِيعةْ

حَلُّو بها المَنْزِلَةَ الرَّفيعةْ »(١) .

ومثل هذه الثورة نجدها فى رثاء القاتل للمقتول ؛ فقد كان ابن طلحة وهومن المشهود لهم بالعبادة والنسك كلما حمل عليه رجل قال : « نشدتك بحاميم ». فينصرف الرجل عنه ، حتى شد عليه قاتله ولم ينثن حين ذكره بها . ونراه فى رثائه له يذكره بخير الصفات فهو: « قوام بآيات ربه »،«قليل الأذى » ، « مسلم » . وكأنه يتحسر على قتله له . غير أن ثورته لا تلبث أن تتحول إلى المقتول نفسه، فهلا تلا هذه الآيات قبل القتال؟ وهلا صرفته عن أصحابه وأعادته إلى الحق المتمثل - فى رأيه - فى علىّ ومن معه ؟

« أَشْعثَ قَوّامٍ بآيـــــاتِ ربِّه قليلِ الأذى فيما تَرَى العينُ مُسْلِمِ

هتَكْتُ له بالرُّمْحِ جَيْبَ قَميصِه فخرَّ صَـريعاً لليدينِ وللفـــمِ

يُذَكِّرُنى حاميم والرُّمح شـــاجِرٌ فهـلا تلا حاميمَ قبـــلَ التَّقَدُّمِ

على غيرِ شىءٍ غيرَ أنْ ليسَ تابعاً علياً ومَن لا يَتبعِ الحقَّ يَنْـدمِ »(٢) .

ويكثر الرجز يوم الجمل حتى ليقول أبو الحسن المدائنى ومحمد بن عمر الواقدى :« ما حفظ رجز قط أكثر من رجز قيل يوم الجمل ». (٣) ويعود مقتل عثمان ليشغل حيزاً كبيراً من هذا الرجز بين مؤيد لقتله وثائر على قاتليه . والبداية عادة من الثائرين لتحميس إخوانهم وإلهاب مشاعرهم . والرد على المؤيدين للدفاع عن أنفسهم ودحض حجج الثائرين . والذي يعنينا هنا هو الشكل الأول لأنه يجيء غالباً فى صورة رثاء ، وهو ما كان يرتجز به أهل البصرة ومنه قولهم :

« يا أَيُّها الجُنْدُ الصَّلِيبُ الإيمانْ قُوموا قياماً واستَغيثوا الرَّحمنْ

إنِّي أتاني خَبَرٌ ذو ألـــــوانْ أنَّ علياً قتلَ ابْنَ عفـــــانْ

رُدُّوا إلينـــا شَيخَنا كما كانْ يارَبِّ وابْعَثْ ناصراً لعثمـانْ

يقتلُهم بقوةٍ وسُلْطانْ »(٤) .

---

(١) الفتنة ووقعة الجمل ص ١٣٨ .

(٢) الفتنة ووقعة الجمل ص ١٦٥ ونسب قريش ص ٢٨١ والاستيعاب جـ ٣ ص ٣٥٠ ، ص ٣٥١ ومعجم الشعراء ص ١١٤ . مع اختلاف فى ترتيب الأبيات وبعض الألفاظ .

(٣) شرح نهج البلاغة جـ ١ ص ٢٥٣ . (٤) شرح نهج البلاغة جـ ١ ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

وهو يتهم علياً صراحة بقتل عثمان . ويضرع إلى الله أن ينتقم من قاتليه بقوة وسلطان لعلهما قوة أصحاب الجمل وسلطانهم اللذان كان يؤمل فيهما الراجز ويعول عليهما في الانتقام .

ومنه قول بعض بني ضبة :

« نحنُ بني ضَبَّةَ أصحابُ الجَمَلْ	نُنازِلُ الموتَ إذا الموتُ نَزلْ
نَنْعَى ابنَ عفّانٍ بأطرافِ الأسَلْ	رُدُّوا علينا شيخَنا ثُمَّ بَجَلْ
الموتُ أحْلى عندَنا مِن العَسَلْ	لا عارَ في الموتِ إذا حانَ الأجلْ
إنَّ علياً هو مِن شرِّ البَدَلْ	إنْ تَعْدِلوا بشيخِنا لا يَعْتَدِلْ

أينَ الوِهادُ وشَماريخُ القُلَلْ »(١)

وواضح أنهم لا يرضون بعثمان بدلاً ولو كان علياً ، وأنهم لن يكفوا عن القتال حتى يعود شيخهم - وهذا أمر مستحيل - أو يأخذوا القصاص كاملاً، وهو ما خرجوا من أجله.

ومما مر نستطيع أن نقول إن الرثاء في معركة الجمل كان يحمل سمتين أساسيتين إحداهما الندم لتحول بأس المسلمين عن الأعداء اللذين يتربصون بهم إلى صراع داخلي عنيف تحصد فيه رقاب المسلمين من خيار الصحابة والتابعين . والثانية هي الثورة على من أشعلوا نار القتال سواء في ذلك الثورة على الطرفين أو أحدهما دون الآخر أو أفراد معينين أو حتى على النفس وهي في هذه الحالة الأخيرة ترتبط بالسمة الأولى ارتباط النتيجة بالأسباب .

وقد كثر الرجز كثرة بالغة وكان أكثره في التحضيض والإثارة والتنديد . وكان يتردد على الألسنة عند التحفز للقتال والتهيؤ للهجوم أو الدفاع وقبل المبارزة وأثناءها . وكان في كثير من الأحيان يأخذ شكل مساجلة بين الطرفين المتصارعين ؛ فأحدهما يحاول تبرير موقفه وخاصة أصحاب الجمل بمطالبتهم بالقصاص لعثمان والتنديد بقاتليه ، والآخر يحاول تفنيده وهدم الأساس الذي يقوم عليه .

---

(١) شرح نهج البلاغة جـ١ص ٢٥٤ . وتاريخ الطبري - مع اختلاف في الأبيات - جـ ٤ ص ٥١٨ ص ٥٣١ .

١ - ما كاد عليّ يفرغ من أصحاب الجمل ويعود إلى الكوفة حتى تجهز وجهز أصحابه لملاقاة معاوية بالشام . وكان معاوية قد رفض إعطاءه البيعة وأبى أن يستجيب لعزل عليّ له عن الشام كما عزل سائر الولاة الذين عينهم عثمان أو أقرهم على ولاياتهم في عهده وكانوا سبباً من الأسباب التي أدت إلى ثورة الغوغاء فى الأمصار عليه ، تلك الثورةالتي انتهت بمقتله وما أعقب مقتله رضى الله عنه من أحداث .

واتخذ معاوية من قرابته لعثمان ومكانته القوية فى الشام وسيلة للمطالبة بالقصاص له وذريعة لرفض البيعة والعزل حتى يسلم له القاتلين . ولم يكن من السهل على عليّ تنفيذ القصاص ، وهو لا يعرف له قاتلاً بعينه ، وإنما توزع دمه فى كل من شارك فى الثورة عليه ، وقد رجع هؤلاء الثائرون إلى بلادهم واحتموا بمالهم فى تلك البلاد من العصبية والسلطان . وشارك بعضهم فى جيش علي بالعراق وحاربوا معه أصحاب الجمل ، وكان لبعضهم مراكز مرموقة فى الجيش كالأشتر النخعي . وكان لوجود هؤلاء فى جيش علي أثر فى اتهام أهل الشام له . ففسروا تباطؤه فى تنفيذ القصاص بالتخاذل ، ومعايشته للثائرين بالرضا عنهم ، ومحاربته لأصحاب الجمل بالوقوف فى وجه كل من يقول بالقصاص والحيلولة دون تحقيقه . (١) كما فسروا معارضته لعثمان فى حياته ، ووجوده فى المدينة أثناء الحصار وعجزه عن الدفاع عنه وهوى أهل مصر فيه وترشيحهم له بالممالأة عليه والطمع فى الوصول إلى الخلافة . بل إن بعضهم اتهمه صراحة بالقتل .

وكان معاوية رضى الله عنه يعبئ الناس فى الشام ويهيج مشاعرهم بخطبه الثائرة وحججه الكثيرة الواضحة - التي لم تكن الأحداث إلا لتزيدها وضوحاً فى نظر أهل الشام - وبقميص عثمان الملطخ بالدماء ، وأصابع نائلة .

أما عليّ كرم الله وجهه فكان يعلم - كما يعلم كل من رأى الأحداث عن كثب أو نظر إليها بعين محايدة - أنه برىء من دم عثمان ، وهو الذى كان يوصل إليه الماء فى محبسه ويدفع عنه بلسانه ويده ما وسعه الدفاع ، ويجند ابنيه للوقوف ببابه ، ويستنكر

---

(١) وكان أصحابة الجمل قد كاتبوا معاوية بالشام أنا قد اقتصصنالعثمان بالبصرة كما كاتبوا أهل الكوفة واليمامة والمدينة وطلبوا منهم أن يحذوا حذوهم . الفتنة ووقعة الجمل ص ١٣٢،ص١٣٣ .

قتل الغوغاء له ويرفض تنصيبهم له بالخلافة حتى يبايعه أهل الحل والعقد من المهاجرين والأنصار . كما كان رضى الله عنه يرى لنفسه عذراً فى تأجيل القصاص حتى يتمكن منه وتأتيه البيعة من الأمصار كلها بما فى ذلك الشام ويستجيب معاوية - كما استجاب غيره من الولاة - لقراره بالعزل .

وهكذا اجتهد كل من الرجلين . فأصاب أحدهما وأخطأ الآخر خطأ المجتهد المثاب على اجتهاده برغم الخطأ . ويبين ابن العربي وهو أحد القضاة وجه الخطأ فى اجتهاد معاوية وما وقع بين الرجلين بقوله : « أما وجود الحرب بينهم فمعلوم قطعاً ، وأما كونه بهذا السبب فمعلوم كذلك قطعاً ، وأما الصواب فيه فمع علي ؛ لأن الطالب للدم لا يصح أن يحكم ، وتهمة الطالب للقاضى لا توجب عليه أن يخرج عليه ، بل يطلب الحق عنده فإن ظهر له قضاء وإلا سكت وصبر ، فكم من حق يحكم الله فيه .. ولئن اتهم على بقتل عثمان فليس فى المدينة أحد من أصحاب النبى ﷺ إلا وهو متهم به ، أو قل معلوم قطعاً أنه قتله لأن ألف رجل جاءوا لقتل عثمان لا يغلبون أربعين ألفاً » . (١) .

وإنما كان إمساكهم عن القتال بأمر عثمان حقناً للفتنة ، ولم يكن أحد منهم يعلم أن الغدر سوف يصل بالغوغاء إلى قتله ، وكان عثمان قد استغاث بجيش الشام فكان هؤلاء الصحابة وفيهم على ينتظرون مقدم هذا الجيش ويأملون رفع الحصار على يديه . ونضيف هنا - مما يقوى الرأى القائل بإصابة عليّ فى اجتهاده - أن البيعة قد تمت له بإجماع الصحابة فى مكة والمدينة ولم يتخلف عنها إلا قلة ، (٢) وامتناع القلة لا يقدح فى صحة البيعة بل يلزمهم عندئذ بيعة الأغلبية من أهل الحل والعقد الذين بايعوا من قبل أبا بكر وعمر وعثمان .

ويرجع بعض الباحثين الخلاف الذي وقع بين على ومعاوية إلى صراع قديم يمتد إلى الجاهلية بين بنى هاشم وبنى أمية ، وهما الفرعان الكبيران في قريش ، حيث كانا

---

(١) العواصم من القواصم ص ١٦٨ ، ص ١٦٩ .

(١) لم يتخلف ابن عمر وسعد بن أبي وقاص ومحمد بن سلمة وأسامة بن زيد كما هومشهور عن بيعته ، وإنما تخلفوا عن نصرته . العواصم من القواصم ١٥٠ . ونظن أن الذين تخلفوا عن بيعته وهم قلة كان أكثرهم من بنى أمية .

يتنافسان على السيادة ، ويرون فى انتصار بنى أمية أخر الأمر انتصاراً للأرستقراطية القرشية التي حاربها الإسلام والنبى ﷺ في بداية الدعوة .(١)

وأيا ما كان الأمر ، اختلاف مجتهدين ـ وهو الذى أميل إليه ويليق بهؤلاء الصحابة ـ أوتنافس البطون على السيادة ، والأقاليم على الملك ، فإن الأحداث لم تقف عند هذا الحد ، بل تطورت تطوراً خطيراً عندما خرج الجيشان ؛ جيش العراق بقيادة علي ، وجيش الشام بقيادة معاوية وعسكرا في صفين حيث دارت معركة من أشرس المعارك الداخلية بين أبناء الأمة الإسلامية الواحدة ، وراح ضحيتها ألوف القتلى من الجانبين ، وورثت الأحقاد فى النفوس ، ووسعت الهوة بين الطرفين فمزقت العالم الإسلامى وأوجدت الفرصة المناسبة لظهور الفرق المختلفة ، وأوقفت المد الإسلامى ، وعرضت الثغور وأطراف البلاد لأطماع الدول المجاورة حتى اضطر معاوية إلى موادعة الروم بالأموال . وهكذا صرف المسلمون بأسهم فيما بينهم ، وكان بأساً شديداً ، وصرفوه عن أعدائهم ، وكسر بعضهم سيفه واعتزل الفتنة .

* * *

---

(١) د . أحمد الشايب فى كتابه : « تاريخ الشعر السياسى » ص ١٦٦ .
د.النعمان القاضى :« الفرق الإسلامية فى الشعر الأموى ص ٤٥ ، ص ٧١، ص ٧٢ .

٢ - استمر القتال فى صفين حتى رفع جند الشام المصاحف فوق أسنةالرماح فاستجاب لهم القراء فى جيش على ورفعوا هم الآخرون مصاحفهم ، وكان ذلك بعد ليلة الهرير التى كاد يفر فيها معاوية ، ويتحقق النصر لعلىّ . لذلك عد كثير من الرواة والإخباريين رفع المصاحف حيلة من معاوية للإبقاء على جيش الشام والتقاط الأنفاس وقت الهدنة والتدبير للتحكيم . ونسبوا الاقتراح بها إلى عمرو بن العاص . وذهب الدكتور طه حسين إلى وجود تدبير مسبق بين عمرو بن العاص والأشعث بن قيس قائد الميمنة فى جيش على لهذا التحكيم . (١) وكان الأشعث ممن تحمسوا لوقف القتال . ولم يكن جيش الشام هو أول من ابتدع هذا الأمر فمن قبل رفع على مصحفاً يوم الجمل على يد أحد أتباعه ، ورفعت عائشة مصحفاً على يد كعب بن سود فقُتل الاثنان واستمرالقتال . أما يوم صفين فقد رُفع أكثر من أربعمائة مصحف فى جيش الشام، وكان القراء فى جيش على قد ملوا القتال وآثروا وقفه حقناً لدماء المسلمين ، وكانوا غير شاكين أن حكم الكتاب الذى يدعو إليه معاوية سوف لا يتخطاهم ما داموا على حق .

أما علىّ فقد نزل عند رأى الأغلبية بعد تردد فى قبول هذا الأمر . ونزل عند رأيهم مرة ثانية فى اختيار أبى موسى الأشعرى نائباً عنه فى التحكيم ، وكان قد اعتزل الفتنة ورفض أن يعين علياً فى قتاله يوم الجمل وحذر أهل الكوفة من مغبة الاشتراك فى تلك المعركة حتى عزله علىّ ، فتذكر أهل الكوفة موقفه ذاك وهم يخوضون للمرة الثانية فى دماء إخوانهم يوم صفين .

وكان أبو موسى رجلاً تقياً وقاضياً عدلاً . واختار أهل الشام عمراً . والتقى الرجلان فى الموعد المضروب والمكان المحدد على رأس فريقين وشهادة شهود ممن اعتزلوا الأمر من البداية كابن عمر، ومن اعتزلها بآخرة . وقد اضطرب الرواة اضطراباً شديداً فى أمر هذا التحكيم وما انتهى إليه . ورمى بعضهم أبا موسى بالغفلة وعمراً بالدهاء . وذكروا أنهما قد اتفقا على خلع الرجلين معاً وقدم عمرو أبا موسى فخلعهماثم تقدم هو فأقره على خلع على ثم ثَبَّتَ صاحبه .

وقد أنكر القاضى أبو بكر بن العربى رحمه الله هذه القصة وقال بصددها : « هذا كله كذب صراح ، ما جرى منه حرف قط ، وإنما هوشىء اخترعته المبتدعة ووضعته

(١) الفتنة الكبرى - على وبنوه ص ٨١ .

التاريخية للملوك فتوارثه أهل المجانة والجهارة بمعاصى الله والبدع ، وإنما الذى روى الأئمة الثقات الأثبات أنهما لما اجتمعا للنظر فى الأمر فى عصبة كريمة من الناس منهم ابن عمر ونحوه ، عزل عمرو معاوية » . (١) أى أنه قد اتفق مع أبى موسى فى ذلك، ولم يخالف عنه فى شيء ؛ لأنهما كانا قد اتفقا على خلع على فى كل الروايات . ويبدو أنهما كانا يريان الحق فى تجنيب الأمة القتال ، ولن يتحقق ذلك - حسبما أدى اجتهادهما - إلا بعزل الاثنين ؛ على عن الخلافة ، ومعاوية عن إمارة الشام . على أن يستمرا فى عملهما حتى يختارالصحابة خليفة جديداً ، ويحتكم إليه معاوية فى أمر عثمان .

وربما اختلفاأوأخفقا فى الوصول إلى تقديم تصور عام أو حكم يشمل نقاط الاختلاف كلها فيحسم الصراع بين الطرفين . وهذا ما أتصوره ، فإن أحداً لم يجتمع لاختيار خليفة جديد ، ولم يترك أحد الرجلين موضعه ، واستمركل منهمافى عمله غير راض عن خصمه ولا مسلم له بأحقيقته على ما هو عليه ، فلم يعترف معاوية بعلى خليفة ، ولم يتنازل على عن عزله لمعاوية . وازداد الصراع حدة وازداد نشاط كل من الفريقين . وكان معاوية هو المستفيد من التحكيم ؛ فقد وضعه نداً لعلى ، ومكن له فى الشام حتى عدوه خليفة لهم ، وانقادوا له وأطاعوه ، فمد نفوذه حتى شمل مصر وما يليها من جهة الغرب وكاد يسيطر على البصرة واليمن . أما على فقد تقلص نفوذه عن الأجزاء التى سيطرعليها معاوية ، وكادت بلاد أخرى تتفلت من قبضته ، مع ما ابتلاه الله به من شقاق أهل العراق ومروق فئة كبيرة كانت معه فقاتلها فى النهروان ، وظلت طوائف منها كالشوكة فى جانبه تستنفد قوته يوما بعد يوم وتصرفه أو تكاد عن معاوية وجيوش الشام حتى يأتيه الموت قبل أن يخرج لقتال معاوية مرة أخرى على يد أحد هؤلاء المارقين .

١ - عادت مراثى عثمان فى الصراع بين على ومعاوية مرة أخرى إلى الظهور أكثر عمقاً وأشد تفصيلاً وبخاصة عند شعراء الشام ؛ فهى المحور الذى ارتكزوا عليه فى تمردهم على الخليفة وصراعهم ضده وضد أتباعه بالعراق .

وقد رثاه كثيرون منهم ابن مقبل . وقد رسم فى رثائه الطريق أمام بنى أمية للبكاء ،

---

(١) العواصم من القواصم ص ١٧٩ ، ص ١٨٠ .

فهو عنده لا يكون إلا بالسيف :

« لِيَبكِ بنو عثمانَ ما دامَ جِذْمُهم عليهِ بأصلالٍ تُعرَّى وتُخْشَبُ » (١) .

ورثاه الوليد بن عقبة ، أخوه لأمه . وحرض معاوية في رثائه على الثأر له ، وعاتبه حين كاتب علياً واستقبل رسله بالشام . وكان فيما قال :

« ألا أبْلِغْ معـاويةَ بنَ حَـربٍ فإنَّكَ مِن أخي ثقةٍ مُليـمُ
قطعْتَ الدَّهرَ كالسَّـدِمِ المُعَنَّى تُهَدِّرُ في دِمَشْقَ فما تَريـمُ
وإنَّكَ والكتـابَ إلى عـليٍّ كدابِغَةٍ وقد حَلِمَ الأديـمُ
يُمَنِّيكَ الإمـارةَ كلُّ رَكْبٍ لإنقاضِ العراقِ بهارَسـيمُ
وليسَ أخو التِّراتِ بمَن تَواني ولكنْ طالبُ التِّرَةِ الغَشـومُ
ولو كنتَ القتيلَ وكـانَ حيّاً لجرَّدَلا ألَـفٌ ولا سَـؤومُ
ولا نَكِلٌ عن الأوتارِ حتَّـى يُبيءَ بها ولا بَـرِمٌ جَثُـومُ
وقومُكَ بالمدينةِ قد أُبِيـروا فهم صَرْعَى كأنَّهمُ الهَشيمُ » (٢)

وكان الوليد من أشد الشعراء ثورة على عليٍّ . وكان يرى أن دم عثمان في عنقه . وقد وسع دائرة الاتهام لتشمل بني هاشم جميعاً ؛ فهم الذين غدروا بعثمان ـ في تصوره ـ وسلبوا سلاحه :

« بني هاشمٍ رُدُّوا سِلاحَ ابنِ أُختِكم ولاتَنْهبُوه لا تَحِلُّ منـاهِبُهْ
بني هاشمٍ لا تَعْجَـلوا بإقادَةٍ لذي الحَقِّ يوماً حَقُّه فيُطالِبُـهْ
وإنَّا وإيَّاكم وما كان منـكُمُ كصَدْعِ الصَّفا لا يَرْأَبِ الصَّدْعَ شاعِبُهْ » (٣)

ويقول :

« بني هاشمٍ كيفَ التَّعاقُدُ بيننا وعندَ عليٍّ سَيْفُهُ وحـرائبُهْ
لَعَمْرُكَ لا أنْسَى ابنَ أرْوَى وقَتْلَه وهلْ يَنْسَيَنَّ الماءَ ما عاشَ شاربُهْ

---

(١) ديوان تميم بن مقبل ت.د. عزة حسن ، مطبعة الترقي ـ دمشق ١٣٨١هـ ١٩٦٢م)ص١١.

(٢) شعراء أمويون ـ د (نوري حمودي القيسي ، المجمع العلمي العراقي ـ بغداد سنة ١٩٨٢ م) جـ ٣ ص ٥٥ ، ص ٥٦ (شعر الوليد بن عقبة) .

(٣) المصدر نفسه ص ٤٣ ، ص ٤٤ .

همُ قتَلوهُ كي يكُونوا مكانَهُ كما غَدَرتْ يوماً بكِسرَى مَرازِبُه» (١) .

ولعله أول شاعر يلاحى بنى هاشم . وقد رد عليه شاعرهم . (٢) ولعله أيضاً أول من عاتب معاوية واتهمه بالتقصير في حق عثمان حين كاتب علياً وأراد موادعته . (٣) وكان ذلك مبالغة منه فى التحضيض على الثأر وإشعال القتال . وقد كاتب أخاه عمارة هو الآخر لنزوله الكوفة واستقبال أنصار عليّ له . (٤) .

وحرض معاوية فى قصيدة أخرى وأغراه بالخلافة ، ورسم له الطريق المؤدية إليها وهى المطالبة بالثأر واتهام عليّ بالممالأة على عثمان ونهب سلاحه . (٥) وممن حرضه على ذلك أيضاً واتهم بنى عبد المطلب بقتل عثمان الحجاج بن خزيمة بن الصمة الذى ذهب إلى معاوية بالشام وسلم عليه بإمارة المؤمنين فأفزعه بهذا التسليم وأنشد بين يديه :

« إنَّ بنى عَمِّكَ عبدِ المُطَّلِبْ همُ قتلوا شيخكم غيرَ الكَذِبْ
وأنتَ أولَى النّاسِ بالوَثْبِ فثِبْ وسِرْ مَسِيرَ المُحزَئلِّ المُتلَئِبّْ »(٦) .

وقالوا إن معاوية حين أتاه قتل عثمان بكاه بأبيات أظهر فيها فداحة المصاب وما تركه فيه من حيرة ، واتهم أهل المدينة بالمشاركة فى دمه قتلاً أو تسليماً وتوعد بالثأر والانتقام . فمنها :

« أتاني أمرٌ فيه للنّاسِ غُمّةٌ وفيه بكاءٌ للعُيونِ طَويلُ
وفيه فَناءٌ شامِلٌ وخَزايةٌ وفيه اجْتِداعٌ للأُنوفِ أَصيلُ

---

(١) شعراء أمويون جـ ٣ ص ٤٥ (شعر الوليد بن عقبة) .

(٢) مروج الذهب جـ ٢ص٣٥٦،ص ٣٥٧. وهو الفضل بن العباس بن عتبة بن أبى لهب. وفى شرح نهج البلاغة (جـ ١ ص ٢٧١) أنه عبد الله بن أبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب .

(٣) شعراء أمويون جـ ٣ ص ٥٨ ص ٥٩ (شعر الوليد بن عقبة) .

(٤) المصدر نفسه جـ ٣ ص ٤٩ .

(٥) المصدر نفسه ص ٤٢ ، ص ٤٣ .

(٦) الأخبار الطوال ص ١٥٥ / وقعة صفين لنصربن مزاحم ـ ت . عبد السلام هارون ـ ط ٣ (مكتبة الخانجى بمصر سنة ١٩٨١م) ص ٧٧ مع اختلاف يسير فى الرواية .

مُصابُ أميرِ المؤمنينَ وهَدَّةٌ ... تكادُ لها صُمُّ الجبالِ تَزولُ » . (١)

ومنها :

« تداعت عليهِ بالمدينةِ عُصْبةٌ ... فريقانِ منهـم قاتـلٌ وخَذولُ

دعاهم فَصَمُّوا عنه عندَ جَوابِه ... وذاكم على ما فى النّفوسِ دَليلُ ».

ونسب ابن مزاحم فى كتابه وقعة صفين أبياتاً أخرى لمعاوية يحضض فيها المعتزلين للفتنة كابن عمر وسعد بن أبي وقاص ويستميلهم إليه عن طريق المبالغة فى تصوير ما حل بعثمان واتهام على وبنى هاشم والأنصار بالمشاركة في دمه . (٢) .

ونسب كذلك شعراً إلى ابن المغيرة بن الأخنس ـ وكان أبوه قد قُتل مع عثمان يوم الدار ـ يفصل فيه القول فى قتلة عثمان ، ويذكر منهم حكيم بن جبلة وعمار بن ياسر ومحمد بن أبي بكر ومالك بن الحرث المعروف بالأشتر النخعى والمكشوح المرادى والزبير بن العوام ـ وربما يكون قد بالغ فى اتهام بعض هؤلاء كعمار والزبير وابن أبى بكر لما كان بينهم وبين عثمان فى حياته ـ أما علىٌّ فقد لزم داره غير آمر بقتله ولا ناه عنه . وقل مثل ذلك فى جميع أهل المدينة ؛ فكلهم آثم حيث قتل بين أيديهم وتحت أعينهم:

« حُكَيمٌ وعَمّارُ الشَّجا ومحمّـدٌ ... وأشترُ والمكْشوحُ جَرُّوا الدَّواهيـا

وقد كان فيها للزُّبيرِ عَجاجـةٌ ... وصاحِبُه الأدنى أشابَ النَّواصِيـا

فأمّـا علىٌّ فاستَغاثَ ببيتـه ... فلا آمِرٌ فيها ولم يَكُ ناهيـا

وقلْ فى جميعِ النّاسِ ما شئتَ بَعدَه ... وإن قلْتَ أخْطا النّاسُ لم تكُ خاطيا

وإنْ قُلْتَ عَمَّ القـومُ فيـه بفِتْنَةٍ ... فحَسْبُكَ مِن ذاك الّذى كان كافيـا

فقولا لأصحابِ النبيِّ محمّـدٍ ... وخُصّا الرِّجالَ الأقربينَ المَواليـا

أيُقْتَلُ عثمانُ بنُ عَفّانَ وَسْطَكـم ... على غيرِ شىءٍ ليسَ إلاَّ تَماديـا

---

(١) وقعة صفين ص ٧٩ ، ص ٨٠ وهي كذلك ـ مع بعض الاختلاف ـ فى الأخبار الطوال ص ١٥٥ .

(٢) وقعة صفين ص ٧٢ ، ص ٧٤ ، ص ٧٥ .

فلا نومَ حتَّى نَستَبيحَ حَريمكم ونخْضِبَ مِن أهلِ الشَّنانِ العَوالِيا » (١) .

ومثل هذا نجده عند خفاف بن عبد الله ؛ فقد اتهم أهل المدينة جميعاً حيث قال من قصيدة طويلة له فى رثاء عثمان :

« ليـــتَ شعْرِى وإنَّنى لسَؤولُ هل لِىَ اليومَ بالمدينة شافِ
مِن صِحابِ النَّبِىِّ إذ عَظُمَ الخَطْـ ـبُ وفيهم مِن البَرِيَّة كـافِ
أحَــلالٌ دمُ الإمــامِ بذنــبٍ أم حَرامٌ بُسنَّةِ الوَقّـافِ » ؟ (٢)

وقد مدح علياً فيها . مما يشير إلى تبرئته له . حتى شك معاوية فيه وظنه عيناً لعلىّ وأمر بإخراجه حتى لا يفسد أهل الشام . (٣) .

وممن برأ علياً من قتل عثمان كذلك عبيد الله بن عمر وكان يقاتل فى صفوف معاوية لكنه مال إلى اتهام آخرين كطلحة والزبير رضى الله عنهما .(٤)

وهكذا وجدنا أمر عثمان يطرق من جديد - وبشدة - فى الصراع الدائر بين علىّ ومعاوية ؛ لأنه كان أساس هذا الصراع . وكثرت مراثيه فى هذا الصراع كما لم تكثر من قبل . ومالت كما قلنا إلى شىء من التفصيل وإلقاء اللوم والتصريح فى الاتهام . وكان نصيب علىّ من هذه الاتهامات كثيراً ، وإنْ برأه بعض أهل الشام . وكأنهم كانوا يتواصون باتهامه لإثارة المشاعر ضده وتسويغ خروجهم عليه . وقد صار ذكر عثمان على كل لسان من ألسنة جنود الشام ، حتى كانوا يرتجزون بمقتله وما حل به وهم

---

(١) وقعة صفين لنصر بن مزاحم ص ٥٤ ، ص ٥٥ .
(٢) المصدر نفسه ص ٦٦ .
(٣) المصدر نفسه ص ٦٨ .
(٤) المصدر نفسه ص ٨٤ .

يتبارزون أو يدعون إلى البراز(١) .

٤ – لم يكتف الأمويون بمراثيهم في عثمان ، وراحوا يرثون كثيراً من القتلى وخاصة في صفين كعبيد الله بن عمر وعروة الدمشقي وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد وذي الكلاع وحوشب . وفي رثاء عبيد الله يقول كعب بن جعيل :

«ألا إنما تَبْكِي العيونُ لفارسٍ بصفِّينَ أَجلَتْ خيلُه وهو واقفُ
تَبدَّلَ مِن أَسْماءَ أسيافَ وائلٍ وأَيُّ فتىً لو أخطأته المتالفُ
تركْنَ عُبيدَ اللهِ بالقاعِ مُسْلَماً يَمُجّ دِماهُ والعروقُ نوازفُ
يَنوءُ وتَغْشاهُ شآبيبُ مِن دمٍ كما لاحَ في جَيْبِ القَميصِ الكَفائفُ» . (٢)

ثم يذكر القتال وما كان فيه ويدعو الله لقتلاهم .

وفي قطعة أخرى يبرز بطولته أثناء القتال وهو يصول ويجول ويحث قومه على الاستماتة والصبر . ثم يبين كيف خر مجدلاً صريعاً وخلف أطفالاً أذلة وعرساً : « تسكب الدمع أيما » . (٣)

وفي رثائه لعبد الرحمن بن خالد يذكرنا كعب بأبيه وبلائه العظيم في فتوح الشام . ويدعو عبدَ الرحمن فتى قريش . ويشير إلى نزول معاوية تلك البلاد ولم تكن له ببلاد . وكأنه يرى أن للقتيل فضلاً على معاوية ؛ فلولا أبوه ما نزل بها . يقول كعب :

« ألا تَبْكِي وما ظَلَمت قريشٌ بإعْوالِ البُكاءِ على فتاها
فلو سُئِلَتْ دِمَشْقُ وبَعْلَبَكٌّ وحِمْصٌ مَن أباحَ لها حِماها
فسيفُ اللهِ أدخلَها المَنايا وهَدَّمَ حِصْنَها وحَوَى قُراها

---

(١) وقعة صفين ص ١٧٨ ، ص ١٨١ ، ص ٢٢٨ ص ٢٢٩ ، ص ٣٤٧ ، ص ٣٥٤ ، ص ٣٩٩ ، ص ٤٠٠ ، ص ٤٣٠ .

(٢) الأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري ص ٢٧٨ . تاريخ الطبري جـ ٥ ص ٣٧ .
طبقات فحول الشعراء ص ٥٧٥ ، ص ٥٧٦ ـ معجم البلدان لياقوت الحموي (ط . بيروت . ١٩٩) جـ ٣ ص ٤٧١ ـ وقعة صفين ص ٢٩٨ ، ص ٣٦١ . مع اختلاف في الرواية .

(٣) وقعة صفين ص ٢٩٩ .

وأنزلَها معاويةَ بنَ حَرْبٍ   وكانتْ أرضُه أرضاً سِواها.»(١) .

وفى خبر هذه الأبيات ما يشير إلى أن معاوية كان يوجه شعراءه لرثاء قتلاه وحثهم على ذلك حثاً فقد : « زعموا أن معاوية قال لكعب بن جعيل بعد موت عبد الرحمن : ليس للشاعر عهد قد كان عبد الرحمن لك صديقاً فلما مات نسيته ؟ قال : ما فعلت ، ولقد قلت فيه بعد موته .. » ثم ذكر الأبيات .

وفى رثاء أخت الأجلح الكندى لأخيها تذكر جيش العراق وتصفه بالضلال وتدعو الله أن يشتفي لها لا من قاتله فحسب بل من أهل العراق جميعاً فقد أبادوهم ولم يخشوا الله ولم يرعوا دينه :

« أتانا اليومَ مقتلُه   فقد جُزَّتْ نَواصِينا
كريمٌ ماجِدُ الجَدَّيـنِ   يَشْفِى مِن أعادِينا
وممَّن قادَ جيشَهمُ   علىٌّ والمُضِلونا
شفانا اللّهُ مِن أهلِ ال   عِراقِ فقد أبادُونا
أما يَخْشَونَ ربَّهمُ   ولم يَرْعَوا له دِينا » ؟ (٢)

وفى مقتل عروة الدمشقى - وكان على قد قتله حين دعاه للمبارزة - يذكر ابن عمه تقواه وفقد الأرامل والأيتام له :

« كان لا يَشْتُمُ الجَلِيسَ ولا يَنْـ   كُلُ يومَ العظيمةِ النَّكْباءِ
أَمَنَ اللّهُ مِن عَدِىٍّ ومِن ابْـ   ـن أبى طالِبٍ ومِن عَلْباءِ
....
غادَرَتْه الكُماةُ مِن أهلِ بَدرٍ   ومِن التّابِعينَ والنُّقَباءِ ».(٣)

وفى البيت الأخير إشارة إلى مشاركة أناس من أهل بدر ومن النقباء يوم صفين فضلاً عمن شهدها من التابعين .

---

(١) نسب قريش ص ٣٢٥ .

(٢) وقعة صفين ص ١٧٨ .

(٣) وقعة صفين ص ٤٥٨ ، ص ٤٥٩ .

٥ – ولشيعة على فى صفين وما بعدها مراث كثيرة أيضاً تبرز جوانب متعددة من الصراع الذى دار بين الجانبين . وهى فى جملتها تنتصر لعلىّ وتدافع عن حقه فى الخلافة وتنال من معاوية وأنصاره وترميهم بنبذ يد الطاعة والشقاق وتمزيق الأمة إلى شيع وأحزاب طمعاً فى الملك ورغبة فى السلطان . وطالما رددوا أن قتلاهم فى الجنة وقتلى معاوية فى النار لأنهم يقاتلون على الحق ويقاتلهم الآخرون على الباطل ؛ ففى رثاء عمار ابن ياسر لأصحابه يذكر شرف ميتتهم ويرجو من الله أن يعجل له بالشهادة لينعم بما ينعمون به فى الجنان :

« ربِّ عَجِّلْ شَهادةً لى بقتـــل ... فى الَّذى قد أُحِبُّ قتلاً جميلاً
مُقْبِلاً غيرَ مُدْبِرٍ إنَّ للقتــــ ... ــلِ على كلِّ مِيتَةٍ تَفضِيــلا
إنَّهم عندَ ربِّهم فى جِنــــانٍ ... يشربُونَ الرَّحيقَ والسَّلْسَبِيــلا
مِن شَرابِ الأبرارِ خالَطَهُ المِسْـــ ... ــكُ وكأساً مِزاجُها زَنْجَبِيــلا » (١) .

وفى رثاء عبد الله بن هاشم بن عتبة لأبيه – وكان أبوه يحمل راية علىّ – يقول عبد الله بعد استعظام ما حل به وتصوير مقتله :

« أبْشِرْ بحُورِ العِينِ فى الأرائِــكْ ... والرَّوحِ والرَّيْحانِ عنــدَ ذلكْ » .(٢) .

وفيه أيضاً يقول أبو الطفيل عامر بن واثلة واصفاً أهل الشام بالضلال فى تركهم الحق واعتمادهم على الظن وعداوتهم للسنة داعياً الله له بالجنة وراجياً أن يصير إلى ما صار إليه :

« يا هاشِمَ الخيرِ جُزِيتَ الجَنَّـــهْ ... قاتلتَ فى اللَّهِ عــدوَّ السُّنَّهْ
والتَّارِكى الحَقِّ وأهلِ الظِّنَّـــهْ ... أعظِمْ بما فزتَ به مِن مِنَّـــهْ
صيَّرَنى الدَّهر كــــأنِّى شِنَّهْ ... ياليتَ أهلى قد عَلَوني رَنَّهْ
مِن حَوْبَةٍ وعَمَّةٍ وكَنَّهْ »(٣) .

وفى رثاء مالك بن تيهان ترمى أمينة الأنصارية قاتليه بالفسق والكفور . ويذكرها ماحل به وبمن معه بقتلى المسلمين يوم أحد :

(١) وقعة صفين ص ٣٢٠.
(٢) المصدر نفسه ص ٣٤٨ .
(٣) المصدر نفسه ص ٣٥٩ .

« مَنَــع اليومَ أنْ أذوقَ رُقادا ... مالكٌ إذ مضى وكان عِمادا
يا أبــا الهَيْثَم بنِ تَيهانَ إنّى ... صرتُ للهمّ مَعْدِناً ووِسادا
إذ غــدا الفاسقُ الكَفورُ عليهم ... إنّه كان مثلَها مُعْتــادا
أصبحوا مثلَ مَن ثَوى يومَ أُحُدٍ ... يرحمُ اللّهُ تلكمُ الأجســادا.»(١).

ويرثى النجاشى أبا عمرة بن عمرو بن محصن بقصيدة يذكر فيها فضائله وفجيعة الأنصار فيه ويؤبنه على طريقة الجاهليين بعَدٍّ خلال الخير والمرؤة فيه ومنها بطبيعة الحال الشجاعة والكرم ونصرةالعشيرة والمجد . ثم يتحول إلى الشامتين بمقتله من أهل الشام ويرد شماتتهم بكثرة من قتل فيهم من ذوى النباهة والشأن على أيديهم . ويعيرهم بفرار من فر منهم عند القتال . وهذا الفخر يأتى رد فعل لما يشعر به من هزيمة ومرارة . ومن الغريب أنه يفخر عليهم بقتل طلحة والزبير كذلك ، ولم يكونا من أهل الشام ولا من أنصار معاوية . لكنهما على أية حال كانا فى الصف المناوئ لعلىّ وقد قاتلاه يوم الجمل وجمعهما بأهل الشام حجة واحدة وهى المطالبة بثأر عثمان . لذلك ذكرهما النجاشى فيمن ذكر وهى طويلة منها :

« فمــنْ يكُ مسروراً بقتلِ ابنِ مِحْصَنٍ ... فعاشَ شقيّاً ثمّ ماتَ مُعَذَّبــا
وغُودِرَ مُنْكَبّاً لفــيه ووَجْهِــه ... يُعالجُ رُمْحاً ذا سِنانٍ وثَعْلَبــا
فإنْ تقتُلوا الحُرَّ الكريمَ ابنَ مِحصَــنٍ ... فنحنُ قتلنا ذا الكلاعِ وحَوْشَــبا
وإنْ تقتُلوا ابْنِى بُدَيلٍ وهاشــماً ... فنحنُ تَركنا منكمُ القَرْنَ أعْضَبــا
ونحنُ تَركنا حِمْــيَراً فى صُفوفِكــم ... لدى الموتِ صَرْعَى كالنَّخيلِ مُشَذَّبا
وأفْلَتَنا تحتَ الأسنّةِ مَرْثَــــدٌ ... وكان قديماً فى الفرارِ مُجَرَّبا » .(٢) .

وممن قتل بصفين مالك بن حرى التميمى فرثاه أخوه نهشل بأبيات كثيرة . لكنه لم يزد فى رثائه له على المعانى التقليدية من ذكر مااعتاده من هم وحزن وتأبين القتيل بصفات المروءة والكرم . وهو يبالغ فى هذه الصفات ولا يتطرق إلى الظروف السياسية أو الملابسات التى أدت إلى مصرعه وتحديد موقفه من هذا الصراع الذى أطاح بكثير من

---

(١) وقعة صفين ص ٣٦٥ .
(٢) المصدر نفسه ص ٣٥٨ .

أبناء قبيلته ومنهم أخوه (١) .

ويُقتل عمار بن ياسر رضى الله عنه . وبقدر مايصاب أهل العراق فيه نراهم يزدادون يقيناً بأنهم أصحاب حق وأن معاوية ومن معه هم الفئة الباغية لقول النبى ﷺ لعمار يوم الخندق :

« تقتلك الفئة الباغية» (٢) وطالما رددوا فى رثائهم له هذا المعنى وطالما احتفلوا به .

ومن هؤلاء الذين رثوه الحجاج بن غزية الأنصارى وفيه يقول من أبيات :

« قال النَبىُّ له تَقتلك شِرذِمةٌ ... سِيطَتْ لُحومُهمُ بالبَغْى فُجّـــارُ

فاليومَ يَعْرِفُ أهلُ الشّامِ أنّهمُ ... أصحابُ تلك وفيها النّارُ والعارُ »(٣) .

٦ – وهناك شعراء آخرون ثاروا على الفريقين معاً . ومنهم من ثار على الفريق الذى ينتمى إليه لاعتبارات قبلية . ومنهم من رأى أنهم قد شاركوا فى قتال لا ناقة لهم فيه ولا جمل ، وأن هذا القتال لم يجر عليهم غير الهلاك والدمار والفرقة والإحن .فها هى ذى امرأة من العراق تندب أولادها الثلاثة ، وتذكر فى حرقة أنهم لم يجنوا من هذه الحروب الدائرة بين فروع قريش غيرالقتل وما ضرهم إن غلب علىّ أومعاوية أو أى امرئ آخر من قريش ؟ !

« أعينيَّ جُودا بدمعٍ سَرِبْ ... على فِتيةٍ مِن خِيـــارِ العَرَبْ

وما ضرّهم غيرُ حَيْنِ النُّفوسِ ... بــأىِّ امْرِئٍ مِن قريشٍ غَلَبْ » (٤) .

---

(١) وقعة صفين ص ٢٦٥ : ص ٢٦٧ . أمالى المرتضى ت. محمد أبو الفضل إبراهيم ط ١ (دار إحياء الكتب العربية سنة ١٩٥٤ م) جـ ٢ ص ٢٢٦، ٢٢٧ . أمالى اليزيدى ص ٤٩ ، ص ٥٠ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى جـ ١٨ ص ٤٠ ، ص ٤١ . وفى رواية : « تَقتُلُكَ فِئةٌ باغِيةٌ» بالتنكير . وفى رواية أخرى : « تَقتُلُ عَمّاراً الفِئةُ الباغِيةُ » . بالإخبار عنه بدلاً من مخاطبته . والروايات جميعها بالصفحتين المذكورتين .

(٣) مروج الذهب للمسعودى ت . محمد محيى الدين عبد الحميد جـ ٢ ص ٣٩٢ .

(٤) مروج الذهب جـ ٢ ص ٤٠٥ .

وها هوذا معاوية بن خديج يردد فى أهل الشام بعد مقتل ذى الكلاع الحميرى وحوشب :

« يا أهل الشام ! قبح الله مُلكاً يملكه المرء بعد حوشب وذى الكلاع . والله لو ظفرنابأهل العراق بعد قتلهما بغيرمؤونة ما كان ظفراً .»[1] ويقول يزيد بن أنس مثل ذلك ويجادلهما معاوية بن أبى سفيان ويشتد الجدال ويقف الحضرمى فى وجه معاوية ويعلن فى غضب أن ما حل بأهل اليمن أكبر من أن تداويه الكلمات :

« قد نلنا ونيلَتْ سَـــراتُنا   وجُدِّعَ أحياءُ الكَلاعِ ويَحْصُبِ
بذى كَلَعٍ لايُبْعِدِ اللّـــهُ دارَهُ   وكلُّ يَمانٍ قد أُصيبَ بحَوْشَبِ
هما ما هما كانا مُعاوِىَ عِصْمَةً   متى ما أقُلْهُ جَهـــرةً لا أُكَذَّبِ
ولو قُبِلَتْ فى هالكٍ بذلُ فِـديةٍ   فَدَينا هُما بالنَّفْـسِ والأمِّ والأبِ » . [2]

ويغضب معقل بن نهيك بن يساف الأنصارى لمقتل عبد الله بن ذى الكلاع الحميرى فيرثيه بأبيات حارة ينال فيها من معاوية وعمرو بن العاص ومروان بن أمية :

« يا لَهْفَ نَفْسِى ومَن يَشْفِى حَزازَتَها   إذ أفلتَ الفاسقِ الضِّلِّيلُ مُنْطَلِقـــا
وأفْلتَ الخيلَ عَمْرٌو وهى شـــاحبةٌ   جُنْحَ الظَّلام يَحُثُّ الرَّكْــضَ والعَنَقـا
وافَتْ مَنِيَّةُ عبدِ اللهِ إذ لَحِقَـــتْ   قُبُّ البُطونِ به أعْجِزْ بمَن لُحِقـــا
وانْسابَ مَرْوانُ فى الظَّلْماءِ مُسْـتتِراً   تحتَ الدُّجَى كلَّما خافَ الرَّدَى أرِقـا»[3]

ومثلما غضب هؤلاء لليمن غضب نهشل بن حرى لقيس فى رثائه لأخيه مالك[4]. وإن لم يصل به الغضب إلى ماوصل إليه صاحباه وهما يذكران مصاب اليمن .

وهكذاكان الاعتبار القبلى واضحاً فى بعض مراثى صفين . وكان هذا الاعتبار يدفع إلى الثورة على الطرفين معاً كما ذكرت ، أوعلى الطرف الذى يشارك الراثى والمرثى فيه . وكأنه قد غرر به أو شارك مرغماً ، أو كأنه كان فى غفلة ولم يوقظه غير ما حل به وبعشيرته من مصاب .

---

(١) وقعة صفين ص ٤٥٥ .
(٢) المصدر نفسه ص ٤٥٦ .
(٣) المصدر نفسه ص ٣٦٤ .
(٤) أمالى المرتضى ت . محمد أبو الفضل إبراهيم جـ ٢ ص ٢٢٦ ، ص ٢٢٧ .

ويأتي التحكيم ويتردد صداه في مراثي تلك الفترة . وإن كانوا يذكرونه بصورة عابرة أو بشكل موجز ، أو بمجرد الإشارة إليه. نجد ذلك في رثاء كعب بن جعيل لعبيد الله بن عمر حيث يقول :

« فمابَرِحُوا حتَّى رأى اللهُ صبرَهم وحتَّى أُتِيحتْ بالأكُفِّ المَصاحِفُ » .(١)

فرفع المصاحف كان بداية الهدنة ووقف القتال . وفي قصيدتة لرفاعة بن شداد - يذكر فيها القتلى من الفريقين وما حل بالمسلمين من الخراب والدمار - دفاع عن فكرةالتحكيم ومحاولة للإقناع بها . وهذه المحاولة للإقناع تشير إلى ماكان بين أهل العراق من خلاف ولجاج حول قبول التحكيم أو دفعه . يقول رفاعة :

« وماذا علينا أنْ تَريحَ نفوسُنا إلى سُنَّةٍ مِن بَيضِنا والمَغافِرِ
ومِن نَصْبِنا وسَطَ العَجاجِ جباهَنا لوَقعِ السُّيوفِ المُرْهَفاتِ البَواترِ
وطَعْنٍ إذا نادى المُنادى أن ارْكَبوا صُدُورَ المَذاكِي بالرِّماحِ الشَّواجِرِ
أثَرْنا الَّتي كانت بصِفِّينَ بُكْرةً ولم نَكُ في تَسعيرِها بعَواثِرِ
فإنْ حكَمَا بالحَقِّ كانت سَلامةً ورأيٌ وَقانا منه مِن شُؤمِ ثائِرِ»(٢) .

---

(١) وقعة صفين ص ٢٩٩ .

(٢) المصدر نفسه ص ٤٨٩ .



١ — لم يواجه على الثائرين من أجل عثمان يوم الجمل ويوم صفين وماتلاه فحسب وإنما واجه كذلك طائفة كبيرة كانت معه ثم خرجت عليه عند عودته إلى الكوفة بعد فراغه من صفين ، وهى التى عرفت فى التاريخ بأسماء كثيرة أشهرها الخوارج. وكان رضى الله عنه يسمى أصحاب الجمل « الناكثين » ، وأصحاب الشام « القاسطين » ، أما هذه الفئةفقد أطلق عليها « المارقين » . وكأنه كان ينظر إلى قول رسول الله ﷺ فى حديث ذى الخويصرة حين استأذنه أحد الصحابة فى ضرب عنقه فقال: « دَعه فإنَّ له أصحاباً يَحقرُ أحدُكم صَلاتَه معَ صلاتِه وَصِيامَه معَ صِيامِه يَمْرُقونَ مِن الدِّينِ كما يَمْرُقُ السَّهْمُ مِن الرَّمِيَّةِ ... آيَتُهم رَجُلٌ إحدى يديهِ أو قالَ ثَدْيَيه مثلُ ثَدِى المرأةِ أو قال مثلُ البُضْعَةِ تَدَرْدرُ ، يَخرجون على حِينِ فُرقةٍ مِن النّاسِ» (١) .

وكانت الفرقة بين على ومعاوية فتأكد على من أن هؤلاء هم المعنيون بقول النبى ﷺ. ولذلك وجدناه يلتمس الرجل بين القتلى يوم النهروان ويبحث عنه بصفته التى أخبر عنها رسول الله ولا يهدأ حتى يخبروه أنهم قد وجدوه فيسجد لله يردد:« ما كَذَبْتُ ولا كُذِبْتُ » . ويزداد يقيناً مثلما ازداد يوم مقتل عمار بأنه على الحق لماذكره النبى ﷺ من أن هذه المارقة « يَقْتلُها أولَى الطّائفتينِ بالحَقِّ » (٢) .

وفى الحق أن ظهور الخوارج لم يتم بهذه الصورة الفجائية التى ترسمهاكتب التاريخ القديمة ، ولم يكن وليد لحظة أعلن فيها على قبوله التحكيم ، فمنهم من شارك فى قتل عثمان رضى الله عنه كحرقوص بن زهير (٣) ، وكان ذا مكانة بارزة فى صفوفهم حتى إنهم عرضوا عليه إمرتهم قبل عبد الله بن وهب الراسبى فرفض الإمارة . (٤) ومنهم من كانوا بالبصرة فانضموا إلى إخوانهم من أهل الكوفة بعد رفضهم التحكيم وخروجهم إلى

---

(١) متن البخارى بحاشية السندى جـ ٤ ص ١٩٨ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى جـ ٧ ص ١٦٨ .

(٣) الفتنة ووقعة الجمل لسيف بن عمر ص ١٣٢ .

(٤) تاريخ الطبرى ت . محمد أبوالفضل إبراهيم جـ ٥ ص ٧٥ .

المدائن .(١) ولولا استعدادات سابقة للخروج على عليّ وخلعه من الخلافة لما أتيح لهم الظهور بهذه الصورة المنظمة ، ولما أتيح لشعارهم « لا حكم إلا لله » الانتشار على هذا النحو الغريب ، فكأنهم قد تدارسوا الأمور بينهم من قبل حتى ليقول أحد الباحثين : « لا شك أن هؤلاء المخلصين الداعين بلاحكم إلا لله كانوا قوماً قد نضج فكرهم وفقههم الديني والسياسي فأدركوا خطأ التحكيم دينياً وسياسياً وقدروه حق قدره أو فوق قدره» (٢)

ولا يعنينا هنا مناقشة الرأى القائل بخطأ التحكيم دينياً وسياسياً بقدر ما يعنينا القول بوجود هذا النضج الذي جعلهم يرفضون التحكيم ويقفون في وجه على وقفة واحدة ويقررون معاً عدم دخول الكوفة معه ، ويعتزلون في حروراء . اثنا عشر ألفاً يتهمون علياً ومؤيديه بالمداهنة في أمر الله، وينادى مناديهم « إن أمير القتال شبث بن ربعى التميمى ، وأمير الصلاة عبد الله بن الكواء اليشكرى ، والأمر شورى بعد الفتح ، والبيعة لله عز وجل ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر» (٣) .

منذ هذه اللحظة يبدأ تاريخ الخوارج السياسي . ويدرك على رضى الله عنه بعد عودته إلى الكوفة خطورةالأمر فيرسل إليهم من يناقشهم. (٤) ويخرج إليهم بعد ذلك بنفسه ، وتدور محاورات بينه وبينهم يستطيع من خلالها إقناعهم بالعودة إلى الكوفة مرة أخرى ، فيعودون من عند آخرهم .(٥) إلا أنهم يعودون وفى نفوسهم شيء لم يستطيعوا البوح به وهو أن علياً سوف ينقض ما أبرمه مع معاوية من قبول التحكيم وينهى ما بينهما من موادعة ويخرج للقتال بعد أن يجبى المال ويسمن الكراع ويعد للخروج عدته . (٦) ثم لم يلبثوا - بعد خروج أبى موسى الأشعرى إلى دومة الجندل - أن يجمجموا بما انطوت عليه صدورهم ، فنراهم يشغبون على عليّ ويعارضونه وهو فوق

---

(١) تاريخ الطبرى - جـ ٥ ص ٧٥ . (٢) أدب الخوارج - د . سهير القلماوى ص ٢٣.

(٣) تاريخ الطبرى جـ ٥ ص ٦٣ .

(٤) تاريخ الطبرى جـ ٥ ص ٦٥ - الكامل للمبرد جـ ٣ ص ١٦٥ ، ص ٢١٠ ، ص ٢١١.

(٥) تاريخ الطبرى جـ ٥ ص ٦٥ ، ص ٦٦ - الكامل للمبرد جـ ٣ ص ٢١٠ . ومناظراته لهم ص ١٨١ ، ١٨٣ .

(٦) تاريخ الطبرى جـ ٥ ص ٦٦ ، الكامل للمبرد جـ ٣ ص ٢١٠ .

المنبر ويرددون بين يديه : « لا حكم الا لله » . ثم يجتمعون فى بيت عبد الله بن وهب الراسبى ويقررون الخروج إلى المدائن .

ويضطر عليّ إلى قتالهم فى النهروان ويتتبعهم بعد ذلك فى عدة أماكن ، وتصرفه ثوراتهم أو تكاد عن صراعه الأصلى مع معاوية بما شغلته من تتبعها وبما استنزفت من قواه وما أحدثته فى صفوفه من وهن وضعف ، حتى يكون مقتله رضى الله عنه على يد واحد من هؤلاء الخارجين . وتنتهى بذلك خلافته التى دامت ما يقرب من خمسة أعوام قضى معظمها فى صراعات داخلية مريرة كان للخوارج ـ وخاصة فى الجزء الأخير ـ نصيب كبير منها .

٢ — بقدر ما افتخر الخوارج بقتل علي ورأوا فيه نصراً لهم ومجدوا قاتله واعتبروا يوم مقتله عيداً لهم حزن أصحاب عليّ على فقده ، بل فجعوا فيه ونددوا بقاتله وفضحوا دوافعه ، ورماه بعضهم هو وأصحابه بالكفر ، وتتبعوا أثر قتله فى نفوسهم ، وأبرزوا نتائجه الخطيرة على الخلافة وما آل إليه أمر المسلمين .

وممن رثاه فأجاد فيه الرثاء أبو الأسود الدؤلى . وهو أحد شيعته المقربين . وكان عاملاً له مع ابن عباس على البصرة . وشهد معه كثيراً من مشاهده على رأسها صفين ، وقد ذهب فى رثائه له إلى اتهام معاوية بالتحريض على قتله . واعتبره وأنصاره من الشامتين. وردد ما كان يردده الشيعة من اعتبار عليّ « خير الخلق » . وفى رواية أخرى « خير الناس». وهى أقل غلواً ، وأنه رضى الله عنه خير قريش حسباً وديناً :

« ألا أبْلغ مُعَــاوِيةَ بنَ حَـربٍ ... فلا قَرَّتْ عُيــونُ الشّامِتينا
أفى شهرِ الصِّيامِ فَجعتُمــونا ... بخيرِ الخَلْقِ طُرّاً أجمعينـــا
قَتلتُم خيرَ مَن رَكِبَ المَطـــايا ... وخيَّسها ومَن رَكِبَ السَّفينا
ومَن لَبِسَ النّعالَ ومَن حَذاهـــا ... ومَن قرأ المَثانِيَ والمئينـــا
إذا استقبلتَ وجهَ أبي حُسَيـنٍ ... رأيتَ البدرَ راقَ النّاظِرينـــا
لقد عَلِمتْ قريشٌ حيثُ كانتْ ... بأنّكَ خيرُها حَسَبًا ودِينــاً». (١)

---

(١) مقاتل الطالبيين لأبى الفرج الأصفهانى ت . السيد أحمد صقر (دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة سنة ١٩٤٩ م) ص ٤٣ ، ٤٤.

(٢) شعراء إسلاميون (شعر أبى زبيد الطائى) ص ٦١٢ .

وتنسب هذه الأبيات في « مقاتل الطالبيين » (١) - مع زيادات كثيرة - إلى أم الهيثم ابنة أبي الأسود . وقد بلغت مع الزيادات إحدى وعشرين بيتاً . ويبدو أن هذه الزيادات من صنع الشيعة المتأخرين ؛ حيث التعريض ببنى أمية :

« وليسَ بكاتمٍ عِلْماً لديه ولم يُخلَق مِن المُتَجبِّرينا » .

والتصريح بعدم جواز الخلافة في غير بنى هاشم لقرابتهم من النبى ﷺ :

« فلا تَشْمَتْ مُعاويةُ بنُ صَخْرٍ فإنَّ بَقيَّةَ الخلفاءِ فينــا
وأجْمَعْنا الإمـارةَ عـن تَراضٍ إلى ابْنِ نَبيِّنا وإلى أخِينا
ولانُعْطِى زِمامَ الأمــرِ فينــا سِواهُ الدَّهرَ آخرَ ما بَقِينا » .

إلا أنها فى الوقت نفسه تشمل تأبيناً رائعاً لعليٍّ يقوم على ما اتصف به من صيانة للدين وحفظ لأهله ، وهى من المثاليات الإسلامية الجديدة فى شعر الرثاء :

« وكنّا قبلَ مقتله بخيــر نَرَى مَوْلى رسول اللّه فينــا
يُقيم الدِّينَ لا يَرتابُ فيــه ويَقْضِى بالفَرائضِ مُسْتَبِينــا
ويَدْعو للجَماعةِ مَن عَصاه ويَنْهَكُ قَطْعَ أيدِى السَّارِقِينا » .

ويقرر أبو زبيد الطائي في رثائه له أن قتله تعجيل له بالجنة ، وأن قاتله من أهل النار :

« حُمَّتْ ليَدْخُلَ جنّاتٍ أبو حَسَنٍ وأُوجِبتْ بَعدَه للقاتلِ النّارُ » .(٢)

ويصفه بحبر رسول الله ﷺ ولا يعدل به أحداً :

« طَبٌّ بَصيرٌ بأضْغانِ الرِّجالِ ولم يُعْدَلْ بحَبْرِ رسولِ اللّهِ أحْبارُ » .

ويشير أبو بكر بن حماد - وأظنه متأخراً - إلى توقع عليٍّ لما سوف يؤول إليه أمره من وقوع القتل على يد من يصفه بـ « أشقى البرية » وإخباره رضى الله عنه لأهل العراق

---

(١) ديوان أبى الأسود الدؤلى ت . عبد الكريم الدجيلى (بغداد سنة ١٣٧٣ هـ) ص ١٧٤ ، ص ١٧٥وهى فى الأغانى (ط . الدار) جـ ١٢ ص ٣٢٩ والطبرى جـ ٥ ص ١٥٠ ، ص ١٥١ ومروج الذهب (ط . بيروت) جـ ٢ ص ٤٢٨ والكامل لابن الأثير جـ ٢ ص ١٩٨ ، ١٩٩ومصادر أخرى . والخطاب للخوارج فى شذرات الذهب لابن العماد (مصر سنة ١٣٥٠ هـ) جـ ١ص ٥١ :« ألا قل للخوارج أجمعينا » وكذلك فى الاستيعاب لابن عبد البر جـ ٣ ص ٦٦ : « ألا قل للخوارج حيث كانوا » .

بذلك بحديث يزعمون أنه سمعه من النبى ﷺ مؤداه أنه سوف يموت قتلاً وتخضب لحيته بالدماء :

« وهزَّ عليٌّ بالعراقَيْنِ لحيـةً مُصيبتُها جلّتْ على كلِّ مسلمِ
فقال سيأتيها مِن اللّهِ حادثٌ ويَخْضِبُها أشقَى البَرِيَّةِ بالدَّمِ » (١) .

ويصف الطريقة التى قتل بها ، ويسمى قاتله، ويفضح دافعه الشخصى ـ وهو التقرب من قطام ـ ويرميه بالضلال والخسران ، ويبشره بالنار، ويقرر فوز على كرم الله وجهه بالشهادة وإن خلف موته فى صدور أتباعه ماخلفه من الأسى والحزن ، ثم يخرج من ذلك كله بحكمة عملية رائعة خلاصتها أن الدنيا « بلاء وفتنة » وأن حلاوتها ممزوجة بالمر:

« فباكَرهُ بالسَّيفِ شُلَّتْ يَمينُه لِشُؤمِ قَطامِ عندَ ذاكَ ابنُ مُلْجَمِ
فيا ضَرْبَةً مِن خاسرٍ ضَلَّ سَعْيُه تَبوأ منها مَقْعَداً فى جَهَنَّمِ
ففازَ أميرُ المؤمنينَ بحظِّه وإن طَرقَتْ فيها الخُطوبُ بمُعْظَمِ
ألا إنَّما الدُّنيا بَلاءٌ وفتنةٌ حَلاوتُها شِيبَتْ بصابٍ وعَلْقَمِ » .

وترى أم سنان بنت جشمة أنه ـ كرم الله وجهه ـ لا يزال حتى بعد قتله قائماً فى أمته بالحق ، هادياً مهدياً ، وأنه خلف النبى ﷺ ، وقد أوصاه بأمته فوفى بما أوصاه :

« إمّا هَلَكْتَ أبا الحُسَيْنِ فلم تزلْ بالحَقِّ فينا هادياً مَهْدِيّا
فاذهبْ عليك صَلاةُ ربِّك ما دَعتْ فوقَ الغُصونِ حَمامةٌ قُمريّا
قد كُنْتَ بعدَ محمّدٍ خَلَفاً كما أَوْحَى إليك بنا فكنتَ وَفِيّا » (٢) .

أما سودة بنت عمارة فترى ـ على النقيض ـ أن العدل قد دفن معه . وكأنها تعرض

---

(١) الاستيعاب لابن عبد البر جـ ٣ ص ٦٦ والدر المنثور ص ٦٠ مع اختلاف في الرواية .
ونص الحديث فى الكامل للمبرد جـ ٣ ص ٢٤١ ، ص ٢٤٢ وفيه كذلك « أنه خرج فى غداة يوقظ الناس للصلاة فى المسجد فمر بجماعة تتحدث فسلم وسلموا عليه ، فقال وقبض على لحيته ظننت أن فيكم أشقاها الذي يخضب هذه من هذه وأومأ بيده إلى هامته ولحيته » جـ ٣ ص ١٨٨ ص ١٨٩ .

(٢) الكامل للمبرد جـ ٣ ص ٢٤٤ ـ أعلام النساء لمحمد رضا كحالة ط ٣ (مؤسسة الرسالة ـ بيروت سنة ١٩٧٧ م) جـ ٣ ص ٢٦١ .

ببنى أمية وترميهم بالظلم ؛ فقد قالت أبياتها بين يدى معاوية وهى تسأله حقها وحق قومها فى العطاء :

« صلَّى الإلهُ على رُوحٍ تَضمَّنَه قبرٌ فأصبحَ فيه العَدْلُ مدفونا
قد حالفَ الحَقَّ لا يَبْغِى به ثَمَناً فصارَ بالحقِّ والإيمانِ مَقْرونا » (١) .

وقد فهم ذلك معاوية .

وترثيه أم البراء بنت صفوان رثاء شيعياً خالصاً ، وتستعظم فيه المصيبة ، وتبين أثرها فى سائر الكائنات ؛ فقد كسفت الشمس لفقده ، وتدعوه كما يدعونه بالإمام ، وتعتبره كما اعتبره أبو الأسود « خير الخلائق» إلا أنها فى البيت الأخير تجعله بعد النبى ﷺ . وتركز على عدله ، ذلك العدل الذى غاب - كما ذكرت سودة من قبل - معه ، فأصبح الحق خاضعاً للباطل :

« يا للرِّجالِ لِعَظْمِ هَولِ مُصيبةٍ فَدَحَتْ فليسَ مُصابُها بالحائلِ
الشَّمْسُ كاسِفةٌ لِفَقْدِ إمامِنا خيرِ الخلائقِ والإمامِ العادلِ
يا خيرَ مَن رَكِبَ المَطِيَّ ومَن مَشَى فوقَ التُّرابِ لِمُحْتَفٍ أو ناعلِ
حاشا النَّبِيَّ لقد هَدَدْتَ قُواءَنا فالحقُّ أصبحَ خاضعاً للباطلِ » .(٢)

ونجد لمقتل على صدى عند معاوية، وعلى خلاف ما يدعى الشيعة نراه يذكره فى أبيات تنسب له ذكراً حسناً ويصفه بابن شيخ الأباطح فى الوقت الذى يعاتب فيه نصيره عمرو بن العاص :

« وقتلٌ وأسبابُ المَنايا كثيرةٌ مَنِيَّةُ شيخٍ مِن لُؤَىِّ بنِ غَالِبِ
فيا عَمْرو مَهْلاً إنَّما أنتَ عَمُّه وصاحِبُه دونَ الرِّجالِ الأقارِبِ
نَجوتَ وقد بَلَّ المُرادِىُّ سيفَه مِن ابنِ أبى شيخِ الأباطِحِ طالِبِ
ويَضْرِبُنى بالسَّيفِ آخَرُ مِثلُه فكانتْ علينا تلك ضَرْبَةَ لازِبِ
وأنتَ تُناغِى كلَّ يومٍ وليلةٍ بِمصْرِكَ بِيضاً كالظِّباءِ السَّوارِبِ» .(٣)

وهو يشير فى هذه الأبيات إلى ائتمارالخوارج على قتله هو وعمرووعلى ونجاح ابن

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه جـ ٢ ص ١٠٣ - الدر المنثور ص ٢٥٣ .
(٢) صبح الأعشى (ط . دار الكتب) جـ ١ ص ٢٦١ .
(٣) تاريخ الطبري جـ ٥ ص ١٤٩ ، ص ١٥٠ .

ملجم فى قتل عليّ وإخفاق الآخرين.

٣ - قليل هو ذلك الشعر الذى خلفه الخوارج فى الرثاء بالقياس إلى ما كنا نتوقعه فى فترة صدر الإسلام حيث كان لهم يومان من أشهر أيامهم ؛ يوم النهروان ويوم النخيلة ، وما أكثر القتلى فيهما وفى معارك أخرى صغيرة دارت بينهم وبين أنصارعلى . ويبدو أن المعتقد الخارجى نفسه كان لا يزال فى طور النمو ، لم تشتد شوكته مثلما اشتدت فى العصرالأموى ، وكان بين الخوارج طوائف شتى جمعتهم بهم فكرة الخروج - مجرد الخروج - على السلطان لأسباب أخرى غير ما اعتنقوه ، ما أكثرما كان هؤلاء يتخلون عنهم ويعودون إلى ذويهم فى أوقات الشدة وحين الجد . وكان فيهم الساخطون على نظام توزيع المال ، والساخطون على نظام الخلافة والحكم المركزى ممن قاموابحروب الردة، والساخطون على الإسلام نفسه من نصارى وأعراب لم يمس الإسلام إلا ظاهرهم، وآخرون ذوو مآرب ملتوية . (١) .

وكانت النهروان بمثابةالتصفية الأولى ؛ حيث لم يثبت أمام على غيرفئة قليلة منهم ، قاتلوه قتالاً عنيفاً ، ولم ينج منهم غير قليل . وعلى الرغم من كثرة من قتل فى هذه المعركة فقد ازدادوا قوة وبدأوايظهرون على مسرح الأحداث حزباً سياسياً منظماً ، ولم تكن الأيام التالية إلالتزيده قوة بازدياد عدد التابعين المخلصين لما اعتنقوه ونمو مبادئهم حتى وصلوا فى العصر الأموى إلى أقصى ما وصلوا إليه وصارت لهم شوكة لم تكن لهم مثلها من قبل ولم يصلواإلى مثلها مرة أخرى من بعد .

ومن مراثيهم القليلة فى تلك الفترة نلمح بعض أوجه النشاط السياسى والمذهبى فى صراعهم الذى خاضوه ضد على وخلافته . ففى يوم النهروان يخرج أحدهم وهوالعيزار ابن الأخنس بين الصفوف ويردد(٢) :

---

(١) أدب الخوارج - د . سهير القلماوى ص ٢٣ .

(٢) ديوان شعر الخوارج - جمعه وحققه د . إحسان عباس ط ٤ (دار الشروق - بيروت سنة ١٩٨٧ م) ص ٤٥ .

- ديوان الخوارج - جمعه وحققه د . نايف معروف (دار المسيرة - بيروت سنة ١٩٨٣م) ص ١٥٢ وفى اسمه اختلاف طفيف حيث يسميه : « العيزار بن الأخفش » وكذلك اختلاف فى بعض الألفاظ .

« ألا ليتني في يوم صِفِّينَ لم أَؤُبْ — وغُودِرتُ في القتلى بِصِفِّينَ ثاويا
وقُطِّعتُ آراباً وأُلْقِيتُ جثّةً — وأصبحتُ مَيْتاً لا أُجيبُ المُناديا
ولم أرَ قَتْلَى سِنْبِسٍ ولَقَتْلُهم — أشابَ غداةَ البَيْنِ منّي النّواصيا
ثمانونَ مِن حيٍّ جَدِيلةَ قُتِّلوا — على النَّهرِ كانوا يَخضِبونَ العَواليا » .

وهؤلاء الثمانون الذين قتلوا على النهر من حيي جديلة كانوا يرددون شعارهم المعروف: « لا حكم الا لله » وهو الذى انشقوا من أجله على عليّ ، ويلتمسون بخروجهم على قومهم ومفارقتهم له وجه الله - في تصورهم - فقد جار عليّ في الحكم ، ولم يخشوا الموت لأنهم باعوا نفوسهم في سبيل الله :

« يُنادونَ لا لاحكْمَ إلاّ لربِّنا — حَنانَيْكَ فاغفِر حَوْبَنا والمَساويا
همُ فارَقوا في اللّهِ مَن جارَ حُكمُه — وكلٌّ عن الرّحمنِ أصبحَ راضيا
فلا وإلهِ النّاسِ ما هابَ مَعْشَرٌ — على النّهرِ في اللّهِ الحُتوفَ القَواضيا » .

وما دام الأمر كذلك فلا أقل من أن يشهد لهم بالفوز عند الله ،وبما آلوا إليه من التقوى واجتناب الهوى . وهؤلاء هم الشراة :

« شهدتُ لهم عندَ الإله بفَلْجِهم — إذا صالحُ الأقوامِ خافوا المَخازيا
وآلُوا إلى التّقوى ولم يَتْبعوا الهوى — فلا يُبْعِدَنَّ اللّهُ مَن كان شاريا » .

ويحاول كعب بن عميرة يوم النهروان الخروج فيحبسه أخوه . ويأتيه خبر من قتل من أصحابه فتتحرك في نفسه مشاعر التقصير والندم . ويرثيهم بخمسة أبيات يذكر فيها ما نالوه من فوز عند الله ونجاة من عذابه . ويدعوه عز وجل أن يجعل مصيره كمصيرهم فتناله ضربة سيف يكون فيها مصرعه ، فقد ملّ العيش في الضلال وأهله ويخشى على نفسه من صروف الدهر أن تفتنه أو تلفته عما اعتنقه وآمن به .

« لقد فازَ إخواني فنالوا الّتي بها — نَجَوا مِن عذابٍ دائمٍ لا يُفتَّرُ
أبَى اللّهُ إلاّ أنْ أعيشَ خلافَهم — وفي اللّهِ لي عِزٌّ وحِرزٌ ومَنصَرُ
ويارَبِّ هَبْ لي ضَربةً بمُهنَّدٍ — حُسامٍ إذا لاقى الضَّريبةَ يَهْبُرُ
فقد طالَ عَيْشِي في الضَّلالِ وأهلِه — أخافُ الّذي يَخشى التّقيُّ وأحذَرُ
أخافُ صُروفَ الدّهرِ إنّي رأيتُها — تَروحُ على هذا الأنامِ وتُبكِرُ »[1] .

---

(١) ديوان شعر الخوارج ص ٧٤ - ديوان الخوارج ص ١٧٩ ، ص ١٨٠ .

وهو يقرر في الأبيات السابقة صحة ما يعتنقه الخوارج وما يفعلونه ؛ فهم أصحاب الحق في زعمه ، ومن سواهم من المسلمين الذين يعيش بينهم أصحاب ضلال . ونحن نعلم أن الخوارج قد كفّروا المجتمع كله فيمابعد واعتبروا ديار المسلمين ديار حرب . وفيها يتضح مدى زهده في الحياة وحبه للموت وإقباله عليه ، موتاً يريحه مما هو فيه ويقربه من الله حيث الفوز والنجاة .

ويرثي أبو فروة بن نوفل الأشجعي قومه - وكان قد اعتزل القتال يوم النهروان في خمسمائة ونزل ناحية البندنيجين والدسكرة - فيصفهم وصفاً مؤثرا ، ويبرز من ملامحهم - وهي مثالية جسدية لدى الخوارج - النحول والشحوب ، أو اللطافة كما يقرر، فهذا النحول لايدل على الضعف بقدر ما يدل على كثرة الصيام وطول التهجد وشدة التعبد لله . وهم مع هذه الأجساد النحيفة ذوو نفوس قوية تجعلهم يستقبلون الموت وينصبون له الأجساد :

« همُ نَصَبوا الأجسادَ للنَّبْلِ والقَنا ... فلم يَبْقَ منها اليومَ إلاّ رَميمُهـا

تظلُّ عِتاقُ الطَّيرِ تَحْجِلُ حولَهـم ... يُعَلِّلن أجساداً قليلاً نَعيمُهـا

لِطافاً بَراها الصَّومُ حتّى كأنّهـا ... سُيوفٌ إذا ما الخيلُ تَدْمَى كُلومُها ».(١)

وفي رثائه لواحد منهم يدعى زيداً يجأر العيزار بن الأخنس بالشكوى إلى الله ؛ فقد أفنى الموت من كل قبيلة خيارها :

« إلى اللّهِ أشكو أنَّ كلَّ قَبيلةٍ ... مِن النّاسِ قد أفْنَى الحِمامُ خِيارَها » (٢) .

ولعله يعني كثرة الحروب الداخلية التي مزقت المسلمين وحصدت الخيار منهم . ولا نستبعد صدور مثل هذا المعنى منه وهو من السابقين الذين شهدوا الحروب مع علي ثم شهدها ضده .

وإن كنا نرجح أنه يعني خيار الخارجين ؛ فهوالأقرب إلى التصور حيث كان - كماتصفه المصادر - شديد التعصب لمبادئه ، وكان من أشد فرسانهم ، وقد استمات على خارجيته يوم النهروان ، وفيه قتل .

ويقتل في اليوم نفسه ابن وهب الراسبي خليفتهم فيرثيه أبو بلال مرداس بن أدية

---

(١) ديوان شعر الخوارج ص ٥٧ - ديوان الخوارج ص ١٥٩ .

(٢) ديوان الخوارج ص ١٥١ .

وكان قد نجا من القتل فى ذلك اليوم . ويصفه بالتقوى والنزاهة والتضحية ، ويرثى معه آخرين ، ويتمنى أن يلحقه الله بهم فلم يعد للحياة من بعدهم معنى ، ويدعوه أن يسلم نيته وبصيرته :

« أَبَعْدَ ابْنِ وَهْبٍ ذى النَّزاهةِ والتُّقَى ... ومَن خاضَ فى تلك الحُروبِ المهَالِكا

أُحِبُّ بقاءً أو أُرَجِّى سـلامةً ... وقد قَتَلُوا زَيْدَ بنَ حِصْنٍ ومـالكا

فيارَبِّ سَلِّمْ نِيتِّى وبَصِـيرَتى ... وهَبْ لى التُّقَى حتَّى أُلاقِى أولئكا » (١) .

وهذا الشعور الذى يعبر عنه أبو بلال فى الأبيات السابقة وهو الناتج عما يمكن تسميته بعقدة الذنب عند من لم يشهد النهروان أو شهدها ونجا فيمن نجا هى التى كانت تحفزهم على الاستبسال فى الخروج وتجعلهم يتمنون الموت ويزهدون فيما بين أيديهم من متاع الحياة .

وهذا هو حيان بن ظبيان يقرر المعنى نفسه فى صورة أكثر وضوحاً . يقول حيان :

« خَلِيلَىَّ ما بى مِن عَزاءٍ ولا صَبْرٍ ... ولا إربةٍ بعدَ المُصابِينَ بالنَّهـرِ

سِوَى نَهَضاتٍ فى كتائبَ جَمَّةٍ ... إلى اللَّهِ ما تَدْعو وفى اللَّهِ ما تَفْرى » . (٢) .

وكان حيان قد أصيب يوم النهروان فعفا علىٌّ عنه . وظل على هذا الشعور حتى خرج فى أوائل عهد معاوية ، فقتله جيش زياد، هو ومن خرجوا معه .

وهكذا تتضح من المراثى التى قالوها فى الفترة الأخيرة من الصدر بعض أوجه النشاط السياسى فى الصراع الذى خاضوه ضد علىّ كرم الله وجهه وما كانوا يعتقدونه فى أنفسهم من أنهم أصحاب حق خرجوا من أجله وباعوا أنفسهم فى سبيله وأن من عداهم من المسلمين - وعلى رأسهم حكامهم - أصحاب ضلال ، وأن الديار ديار حرب وقتال من فيها هو فى تصورهم نوع من الجهاد ؛ لأنهم - وقد رضوا عن حكامهم - كفار ، وأن هذا الجهاد يستوجب لهم الجنة وتدفعهم تلك الغاية إلى الزهد فى الحياة والإقبال على الآخرة . وأكثر هذه المراثى يدور حول النهروان ، وهو مَن أشهر أيامهم . وقد صار عندهم - ككربلاء عند الشيعة - يوم حزن وندم ،يستمدون من ذكراه العزيمة ، ويتأسون بمن قتلوا فيه .

---

(١) ديوان الخوارج ص ٥٦ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٩٣ - الكامل للمبرد جـ ٢٥٠ ص ٢٥١ .

الفصل الرابع

ظواهر أدبية وخصائص فنية

- في الشكل العام
- في اللغة
- في التصوير والخيال
- في الموسيقى والأوزان



في الشكـــل العـــام

١ ـ من الظواهر الأدبية اللافتة للنـظر استخدام النقائض وكثرتها فـيما قيل من رثاء يتصل بالصراع بين المسلمين وقريش واليهـود في حياة النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم في الصراع الذى دار بين علي ومـعاوية عقب مقـتل عثمان رضى الله عنه . وكـلاهما يتصل اتصالاً وثيقاً بالحروب وما كان فيها من نصر أو هزيمة ، والأسباب التى أدت إليها والمثل والغايات التى يعتنقها كل من الجانبين المتـصارعين ، واختلاف وجهات النظر في تفسـير الأحداث ، كل يفـسرها لصالحـه ويحاول جاهـداً تبرير مواقـفه وإدانة الطرف الآخر .

ولارتبـاط هذه النقائض بالمعـارك كانت كـتب السيـر والمغازى هي أكـثر المـصادر احتفـاءً بها ، وبخاصة سـيرة ابن هشام [1].ونلاحظ أن الرثـاء في أغلب مـــا أورده من نقائض يأتى دفاعـاً عن القتلى حين يجىء تالياً ؛ رداً على فـخر مثلاً أو تعيـيراً بالهزيمة .

---

(١) ومنهـا يوم بدر : بين حـمـزة والحـارث بن هشـام (م٢ص٨:١١) وبين علي والحـارث بن هشام (م٢ص١١ : ١٣) وبين ضرار بن الخطاب وكعب بن مالك (م٢ص١٣ : ١٥) وبين عبـد الـله بن الزبعـرى وحـســان بن ثابت (م٢ ص ١٥ ، ١٦) وبين كــعب بن الأشـرف اليهودي وحـسان (م٢ ص ٥٢ ، ٥٣) وبين ميمونة بنت عبـد الله وكعب بن الأشرف (م٢ ص ٥٣ ، ٥٤).

وفي أحـد : بين كــعب بن مـالك وضـرار بـن الخطاب (م٢ ص ١٣٨ : ١٤٠) وبين أبي سـفيـان بن حـرب وحـسان (م ٢ ص٧٦) وبـين ابن الزبعـرى وحـســان (م ٢ ص ١٤١ : ١٤٣) وبين هند بنت عتبة وهند بنت أثاثة (م ٢ ص ٩١ ، ٩٢).

ويــوم الخندق : بين ضرار بن الخطاب وكـعب بـن مالك (م ٢ ص ٢٥٤ : ٢٥٦) . وفي إجلاء اليهود والانتصار عليهـم : بين رجل من المســلمين – ذكـر ابـن إسـحــق أنـه علي ابن أبي طالب وأنـــكر ذلك ابن هشـــام ـــ وسـمـاك اليـهـودى (م ١ ص ١٩٦ : ١٩٨) وبين العباس بن مرداس من ناحية وخوات بن جـبير وكعب بن مالك أو عبد الله بن رواحـة من ناحيـة (م ٢ ص ٢٠٠ : ٢٠٣) وبين حسـان بن ثابت وجبل بن جوال الـثعلبى (م ٢ ص٢٧٢ ، ٢٧٣).

وقد يجيء الرثاء ابتداءً ، وهو قليل ، وحينئذ يعير الراثي بما أظهر من لهفة وجزع وبما حل به وبقومه . ومن أمثلة النوع الأول ما كان بين أبي سفيان وحسان يوم أحد [1]، وبين ابن الزبعرى وحسان [2].أما النوع الثاني فمنه ما كان بين ضرار وكعب بن مالك يوم بدر[3]، وبين ابن الزبعرى وحسان [4]، وبين ابن مرادس وخوات وكعب بن مالك في قتلى يهود [5].

فحين يفخر أبو سفيان يوم أحد بما حققوه من ثأر ، ويذكر قتلى الأنصار من بني النجار أخوال النبي صلى الله عليه وسلم وقتلى بني هاشم وفيهم حمزة ، ويرى فيما نالهم شفاء جرح لم يكن ليندمل بغير هذا الدواء يرد عليه حسان بن ثابت رضي الله عنه على الوزن نفسه والروى ناقضاً ما جاء في أبياته ، معتمداً على التكذيب مرة والمقابلة أو الموازنة مرة أخرى ؛ فما قاله أبو سفيان — في رأيه — زور لم يصب الحق فيه ، ولقد سبق للمسلمين أن أوقعوا بهم يوم بدر وقتلوا منهم صناديدهم وفيهم عمرو وعتبة والوليد وشيبة والحجاج وابن حبيب . يقول حسان :

« ذَكرْتَ القُرومَ الصِّيدَ مِن آلِ هاشمٍ ... ولستَ لِزُورٍ قلتَه بمُصيبِ

أتَعْجبُ أن أقْصدتَ حمزةَ منهمُ ... نَجيباً وقد سَمَّيْتَه بنَجيبِ

---

(1) السيرة النبوية — المجلد الثانى ص ٧٦ . وقصيدة حسان بديوانه ت . د. سيد حنفي حسنين ص٣٧٢.

(2) السيرة النبوية — المجلد الثاني ص ١٤١ : ١٤٣ . وقصيدة حسان بديوانه ص ٩٧ : ١٠٠ وابن الزبعرى بديوانه ص ٣٧ : ٣٩ .

(3) السيرة النبوية — المجلد الثانى ص ١٣ : ١٥ وقصيدة كعب بديوانه ص ٢٠٠ ، ٢٠١ .

(4) السيرة النبوية — المجلد الثانى ص ١٥ ، ١٦ . وقصيدة حسان بديوانه ص ٢٧٠ ، ٢٧١ وابن الزبعرى بديوانه ص ٤٦ ، ٤٧ .

(5) السيرة النبوية — المجلد الثانى ص ٢٠٠ : ٢٠٣ وقصيدة كعب بديوانه ص ١٧٦ وابن مرداس بديوانه ص ٣٨ ، ٣٩ .

ألم يقتُلوا عَـــمراً وعُتبةَ وابنَه		وشَيْبةَ والحَجّاجَ وابْنَ حَبيبِ؟[1]

وهو يعتمد في البيت الأخير على الاستفهام الذي يجبر خصمه على الإقرار والاعتراف بصحة ما يقول. ومثل هذا نجده في فخر ضرار بإصابة سعد بن معاذ يـــوم الخندق :

« فإنْ نَرحلْ فإنّا قد تَركنا		لدى أبياتِكم سَعداً رَهينا ». [2]

وفي رد كعب عليه :

« فإمّا تقتُلوا سعداً سَفــاهاً		فــــإنّ اللّهَ خيرُ القادرينا
سيُدخلُه جِناناً طيِّباتٍ		تكــونُ مُقــامةً للصّالحينا
كما قد رَدَّكم فَلاًّ شَرِيــداً		بغَيظِــكمُ خَزايا خـائبينا » [3].

وهو يتكئ في نقض ما جاء به ضرار على التوجيه ؛ فما ذكره من إصابة سعد لا يمكن إنكاره ، لكن الحادثة الواحدة تفسر بأكثر من طريقة ؛ فعلى حين يعتبرها ضرار فخراً لقريش وعاراً على المسلمين يعتبرها كعب فخراً لسعد والمسلمين حيث نال بها الكرامة عند الله عز وجل ، وإن كان ثـمة عار فهو عار قريش لأنه يصف ما صنعوه بالحمق والسفاهة .

وحين يفخر عبد الله بن الزبعرى بقريش ، ويعير المسلمين بما نالهم يوم أحد ويعدد قتلاهم في قصيدة طويلة [4]،ينبرى له حسان رضى الله عنه بقصيدة لا تقل عن قصيدته طولاً ، ويعتمد في نقضه أيضاً على التوجيه وعلى لون آخر من النقض ربما

---

(1) ديوان حسان بن ثابت ص ٣٧٢ وهي بالسيرة المجلد الثانى ص ٧٦ .

(2) السيرة النبوية ــ المجلد الثانى ص ٢٥٥ .

(3) ديوان كعب بن مالك ص ٢٨٠ ، والسيرة النبوية ــ المجلد الثانى ص ٢٥٦ .

(4) شعر عبد الله بن الزبعرى ت .د. يحيى الجبورى ط ٣ (مؤسسة الرسالة ــ بيروت سنة ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧ م) ص ٣٧ . وهي بالسيرة ــ المجلد الثانى ص ١٤١ ، ١٤٢ .

تعلمه من القرآن الكريم وهو التهديد والوعيد :

« فإنْ تَذكُروا قتلَى وحمزةُ منهمُ قَتيلٌ ثَوى للهِ وهْوَ مُطيعُ
فإنَّ جِنانَ الخُلْدِ منزِلُهُ بها وأمرُ الَّذى يَقْضِى الأمورَ سَريعُ
وقتلاكمُ في النّارِ أفضلُ رزقِهم حَميمٌ معاً في جَوفِها وضَريعُ » .[1]

وقد يكون الرثاء ابتداءً كما ذكرت ، ويجيء غالباً من الفريق المهزوم ، وفيه يحاول الشاعر قدر الإمكان التقليل من قيمة النصر الذى حققه الخصم وإبراز جانب البطولة في قتلاه بتأبينهم وإظهار الجزع على فقدهم . وحينئذ ينبرى له شاعر من الفريق الآخر ليحقق باللسان نصراً آخر يؤازر نصرهم بالسيف وينقض كل ما يدعيه الرائى من بطولة قتلاه ويسخر من جزعه ويعيره بما حل به وبقومه ثم يفخر عليه فخراً يزيد من أوجاعه مفيداً بالنصر الذى حققوه وما أصاب خصمه من الهزيمة .

ونلاحظ أن المحور الذى ترتكز عليه أغلب النقائض هو الدين ؛ باعتباره عقيدة وسلوكاً ونظاماً ومنهج حياة ، لا باعتباره عقيدة فحسب . بل ربما كان هذا الاعتبار الأخير هو أقل الاعتبارات مناقشة وجدلاً ؛ لأنهم لم يجدوا فيه غير الحق الواضح الذي لا يمكن دفعه فضلاً عن اللجاج فيه .

وتمضي الأعوام ، وينتهى الصراع بين المسلمين ومشركى قريش والقبائل العربية بانتشار الإسلام في الجزيرة بعد عام الوفود وفي أخريات حياة النبي صلى الله عليه وسلم . وتخفت النقائض في عهد أبي بكر على الرغم من الردة . وينصرفون عنها في عهد عمر وعثمان بتحول الصراع من الداخل إلى الأمم المجاورة في حركة الفتوحات . ولا تعود مرة أخرى إلى الظهور إلا في عهد عليّ ، حيث عاد الصراع أعنف ما يكون بين علي وأصحاب الجمل ، وبينه وبين معاوية . ثم بينه وبين الخوارج . وقد احتفظ لنا كتاب وقعة صفين لنصر بن مزاحم بمجموعة كبيرة من هذه النقائض . ومنها ما كان

---

(1) ديوان حسان بن ثابت ص ٩٩ ، ١٠٠ وهي — مع اختلاف في بعض الألفاظ — بالسيرة النبوية — المجلد الثاني ص ١٤٣ .

سياسياً بحتاً لا علاقة له بالرثاء ، ومنها ما اتصل به . ومن هذا النوع الأخير ما كان بين كعب بن جعيل شاعر الشام في رثائه لعبيد الله بن عمرو ورد أبي جهمة الأسدى عليه. وكان كعب قد نال من بنى أسد وذكر أنهم شر الناس كلهم ، كما نال من تميم وعيرها بالفرار عن عبيد الله والتخلى عنه وتسليمه لأهل العراق حتى قتلوه . وفيها يقول:

« تَركتُم عُبيدَ اللّه بالقاع مُسنَداً ... يَمُجُّ نَجيعاً والعُروقُ نَوازفُ

ألا إنّما تَبكى العُيونُ لفارسٍ ... بصفّينَ أجلَتْ خيلُه وهْو واقفُ

....

ألا إنّ شرَّ النّاسِ في النّاسِ كلِّهم ... بنو أسَدٍ إنّى لما قلت عارفُ

فَفَرّتْ تَميمٌ سَعدُها وربابُها ... وخالَفتِ الجعراءُ فيمن يُخالِف » [1].

فيرد عليه أبو جهمة وكان في جيش علي بأنهم — أي أهل الشام — قد أغاروا عليهم يسرقون بناتهم وأن أهل العراق قد جالدوا حول ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم ، فقتالهم مشروع من ناحيتين ؛ دفاع عن العرض مرة ، وعن الحق مرة أخرى . وهو بذلك يحول الصراع من دائرته الضيقة حيث لا نلمح غير العصبية القبلية في رثاء كعب إلى دائرة أكبر وهي الصراع من أجل الخلافة .

وتبلغ هذه النقائض مداها فيما كانوا يتناوبونه من رجز يوم الجمل ، ويوم صفين ، وأكثره في مقتل عثمان رضي الله عنه . وقد تعرضنا لذلك في جزء سابق من هذا البحث [2].

---

(١) وقعة صفين لنصر بن مزاحم ت . عبد السلام هارون ص ٣٦١ . وهي — مع اختلاف في الألفاظ والترتيب — بالأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينورى ص ٣٧٨ وتاريخ الطبرى جـ٥ ص٣٧ وطبقات فحول الشعراء ص ٥٧٥ ، ٥٧٦ ومعجم البلدان جـ ٣ ص ٤٧١ .

(٢) ص .

ونخلص مما تقدم إلى أن ارتباط الرثاء بالنقائض على هذا النحو الواسع إنما جاء — وكان شيئاً جديداً — نتيجة الصراعات السياسية والمذهبية التي شهدها الصدر ، وخاصة في بدايته وقبيل انتهائه . وأن هذا الارتباط قد أثرى الرثاء في بعض جوانبه بما زوده من الأساليب التي يرتكز عليها فن النقض ؛ كالقلب ، والمقابلة ، والتوجيه ، والتكذيب ، والتهديد والوعيد ، والإقرار أو التسليم . وما فتحه من الأبواب التي ولج من خلالها الرثاء — ربما للمرة الأولى — نحو آفاق جديدة يُعلى فيها من جانب العقل ويُفسح له داخل التجربة مكاناً أرحب مما كان يُفسح له من قبل ؛ بالاتجاه نحو المناقشة والحوار ومحاولة الإقناع — دفاعاً أو نفياً أو إثباتاً أو دحضاً — بشيء من البسط والتفصيل.

٢ — يتأرجح شعر الرثاء في صدر الإسلام بين القصائد والمقطوعات وهو في الفترة الأولى — فترة النبي صلى الله عليه وسلم — أميل إلى القصائد منه إلى المقطوعات ، بخلاف الفترة الثانية حيث غلبت المقطوعات في حركة الردة ، وفي الفتوحات ، وفي الصراعات الداخلية بعد مقتل عثمان وفي رثاء الخلفاء .

وتتأرجح القصائد بدورها من ناحية الطول ؛ فأكثرها طولاً ما كان في الصراع مع قريش ورثاء النبى صلى الله عليه وسلم وخاصة عند كبار الشعراء كحسان — وقد بلغت إحدى مراثيه في النبي صلى الله عليه وسلم ستة وأربعين بيتاً[1] — وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة من المسلمين ، والحارث بن هشام وضرار بن الخطاب من شعراء قريش .

وأغلب هذه القصائد يتراوح طولها بين عشرة وعشرين بيتاً . أي أنها تميل إلى القصر أكثر من ميلها إلى الطول . وهذا راجع في تصوري إلى طبيعة الرثاء نفسه .

---

(١) ديوان حسان بن ثابت ت .د. سيد حنفي حسنين ص ٣٧٧ : ٣٨٨ . وله قصيدة أخرى فيه بلغت ثلاثة وأربعين بيتاً ، نقلها المحقق في الإضافات (ص ٣٧٤ : ٣٧٦) عن السيرة النبوية. وفي السيرة (المجلد الثانى ص ١٥٥) أشار ابن هشام إلى إنكار أكثر أهل العلم لها.

فالشاعر فيه يجد نفسه محصوراً في نطاق محدود من ناحية المعاني ، وقلما يقبل هذا الموضوع موضوعاً آخر يشاركه في القصيدة الواحدة بخلاف غيره كالمديح حيث تتعدد في قصيدته الموضوعات . من هنا كانت الوحدة الموضوعية ظاهرة لافتة فيما وصلنا من رثاء[1] . ومن هنا أيضاً كانت غلبة المقطوعات .

ونحن نرجح أن أغلب هذه المقطوعات قيل على هذا النحو ، وإن كان هذا لا ينفي وجود مقطوعات أخرى هي في الحقيقة أجزاء من قصائد ضائعة جيء بها للاستشهاد في مواضع معينة ، أو حذف منها بعضها حذفاً كما هي الحال في مراثي الكفار ، وقد صرح ابن هشام بذلك مرات في الأبيات التي نالوا فيها من رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته نيلاً شديداً أو بلغ بهم الهجاء حد الإقذاع .

وكان لمشاركة النساء والمغمورين من الشعراء ومن اضطرتهم المواقف إلى قول الشعر اضطراراً دور في غلبة المقطوعات ؛ فسائر شعر هؤلاء — وأكثرهم ذوو نفس قصير ، وبعضهم لم تتأصل موهبته — قطع قصار يغلب عليها البيتان والثلاثة ، وقلما يصل إلى سبعة أو ثمانية أبيات .

على أن القصر في حد ذاته وإيثار الأشكال ذات الحجم الصغير التي يسهل تداولها وانتشارها في سرعة وبجهد قليل هو - في تصوري - أثر من الآثار المباشرة لارتباط الرثاء بالسياسة والمذهبية ، وإن كنا لا نغفل دور الاعتبارات السابقة في هذا الشأن .

---

(١) قد يجنح الشاعر في بعض الأحيان إلى الفخر أو الهجاء ، وقد يلم بشيء من الحكمة ويتجه نحو التأمل في معنى الحياة والموت والغاية من الوجود وخلق الإنسان ، لكنه في كل هذا لا يبعد عن موضوعه الأساسي . إذ سرعان ما يعود إليه مرة أخرى فيشغل به عما عداه ، ولأنها لا تستغرقه إلا بالقدر الذي تخدم فيه غايته من تمجيد الميت والحط من قدر خصومه وإبراز جانب البطولة فيه والغاية التي مات من أجلها والمبادئ التي كان يعتنقها ويدافع عنها وما قدمه لقومه أو للجماعة التي ينتمي إليها من تضحيات والفراغ الذي سوف يشكله فقده واستفظاع ما حل به ورمي أعدائه بكل ما يستطيع رميهم به من المثالب للنيل منهم والانتقاص .

فـــــى اللـــغـــة

١ ـــ أول ما نلحظه في جانب اللغة تلك السـهولة التى تشيع في مراثيهم . وهى في تصورى أثر من آثار الإسلام الذى رقق المشاعر وهذب النفوس وخاطبهم ببيانه الواضح وخلبهم بألفاظه وأساليبه وتراكيبه ، حتى عند الذين ناصبوه العداء وحاولوا وقف تياره. فلم يكونوا بمنأى عن التأثـر به بصورة أو بأخرى نتيـجة الاحتكاك بأصحـابه والوقوف على بعض سوره وآياته مما كان يردده المسلمون فيهم وهم يبلغونهم إياه أو يتعبدون الله به . وإن لم يكن هذا التأثر بطبيعة الحالة كتأثر من آمنوا به واعتنقوه وتشبعوا به وتشربوه واتخذوه هـادياً ودليلاً يسـيرون على نهـجه ويتـحركون وفـق ما يقتـضيـه . ولم يكن تأثرهم كـذلك وليد يوم وليلة وهم الذين نشـأوا في الجاهليـة وتربوا في أحضـانها وإنما كان ـــ وفق ما يقتـضيه المنطق وترتضيه العقول ـــ بالتدريج . فـمراثى الفترة الأولى ـــ فتـرة العهد الـنبوى ـــ تجمع بين الجـزالة والرقة ، إلا أننا كلمـا مضينا أو تحـرك بنا الزمن داخل تلك الفـترة ـــ على قـصرها ـــ ازدادت السهـولة وضوحـاً وأخذ نقـيضـها في الخفوت . ويقل هذا التأرجح بدرجة كبيرة في عـهد الخلفاء الراشدين لتصبح السهولة ظاهرة عامة في المراثى السياسيـة التي قيلت في حركة الفتح وفي وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وخليفتـيه أبي بكر وعمر ، ويشتد وضوحـها في مقتل عثمان ومـا أعقبه من صراع في الفتنة الكبرى بين علي ومعارضيه .

ولا ينفـي الشـذوذ القاعدة كما يقولون ، فقد تلقانا مراثٍ ذات لغة صعبة تحتاج إلى شيء من الأناة في فـهمـها والرجـوع إلى المعاجم غـير مـرة لفك طلاسـمهـا ومعـرفة غـريبـــها، إلا أنهـا قليلة جـداً بالقيـاس إلى المراثى السـهلة الواضحـة ، وهي ترتبط في الأغلب الأعم بشعراء البادية ، ومنها ما كان في حـركة الردة كبعض مـراثى متمم بن نويرة في أخيه.

وقد كـانت هذه السهولة في تـصورى ـــ وراء كثـرة ما رمى به الشعـر في صدر الإسلام من الضـعف واتهامه باللين ؛ لأنهم كـانوا يقرنون بين الجزالة والقـوة ، والجزالة هي الصفة الغالبة على الشعر الجاهلى ، فلما اتجه في ظل الإسلام نحو السهولة وصفوه حسب هذا المقـياس الخاطئ بالضـعف . ونقول إنه مـقياس خاطئ لأنه ليس كل سهل

ضعيفاً إن كنا نعني بالضعف الضعفَ الفني ، فلا تلازم بينهما على أية حال . وربما كان لسكوت بعض المخضرمين عن الشعر وانصرافهم عنه وتشاغل بعضهم بالنسك والعبادة وحفظ القرآن ورواية الحديث ، وما يستوجبه الدين الجديد من الترفع عن الخوض في بعض أغراضه ومنها الهجاء الفاحش والمدح الكاذب والغزل الفاضح والفخر بالأحساب والأنساب ومؤاخذتهم على كل ما ينطق به اللسان ، وما وجدوه في القرآن من روعة البيان الذي يبلغ حد الإسكات إذا ما قاسوا شعرهم به ، إضافة إلى كثرة ما وضع على ألسنتهم من الشعر المنحول الذي صنعته الرواة بآخرة ، ربما كان لهذا وذاك دور في وصمهم له بالضعف . فلا تكون السهولة وحدها هي مصدر هذا الاتهام الخطير الذي كثيراً ما قاد إلى التضليل وحجب عن الأعين حقيقة هذاالشعر وما طرأ عليه في تلك الفترة من التطور والتجديد .

٢ ــ تشيع في مراثى الصدر السياسية والمذهبية ــ وخاصة مراثى المسلمين ــ الألفاظ والمعاني الإسلامية ، ويكثر الاقتباس من القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف ، فلا تكاد مرثية تخلو من هذه الألفاظ وتلك المعاني ، ولا تكاد كذلك تخلو من الاقتباس بصورة من صوره المختلفة . وهذان العنصران من الآثار المباشرة التي تركها الإسلام فيه . وهما أوضح من أن نمثل لهما أو ندل عليهما . وقد تعرضنا للمعانى كثيراً في الفصول السابقة بما يغنى عن ذكرها ههنا . أما الألفاظ ذات الطابع الإسلامي أو التي أخذت في الإسلام دلالات جديدة لم تكن لها من قبل فنكتفى بالإشارة إلى أنها تشكل ــ مع تلك المعانى ــ معجماً خاصاً بالشعر في صدر الإسلام . وهذا المعجم يستحق ــ في الحق ــ دراسة خاصة تفرده بجهودها وترصد من خلاله ما طرأ على اللغة من تطور ويكون نواة لمعاجم أكثر جدة تتتبع الألفاظ في عصور مختلفة ولا تقف بها عند مدلولاتها الجاهلية فحسب .

ومن النماذج التي نذكرها في هذا الصدد ونكتفى بها عن غيرها قصيدة عبيدة بن الحارث في رثاء رجله يوم بدر ــ وهي من المراثى المتقدمة ــ وفيها يذكر (الجنة ــ والحور أمثال التماثيل ــ والإسلام ــ والنبي ــ والعُصاة ــ ولفظي الجلالة الله

والرحمن) . ويكرر بعض هذه الألفاظ أكثر من مرة [1].

وفي رثاء كعب بن مالك لحمزة رضي الله عنه يوم أحد نجد (الرسول وأشياعه ـــ والحق ـــ والنور ـــ والمنهج ـــ والملة ـــ والنعيم ـــ والنار وما فيها من دركات ـــ والصدق ـــ والوفاء ـــ والخير ـــ والروح ـــ والميثاق) [2].

وفي رثائه للنبي صلى الله عليه وسلم يذكر حسان (المنبر ـ والآيات ـ والمسجد ـ والمصلى ـ والحلم ـ والعلم ـ والرحمة ـ والوحي ـ والسموات ـ والعفو ـ والتيسير ـ والعطف ـ والحمد ـ والقيامة ـ والمرسلات ـ والهدى ـ والجور ـ والخير ـ والنعمة ـ والطريقة ـ والنهج ـ والاستقامة ـ والخلد) [3].

وتتردد في مراثٍ أخرى كثيرة (الشهادة ـ والصلاة ـ والعدل ـ والوزير ـ والخليفة ـ والخلافة ـ والعرش ـ والمصير ـ والكفر ـ والإسلام ـ والأخ ـ والنصير ـ والقضاء ـ والدين ـــ والمقدار ـــ والهادى ـ والمهدي ـ والأمير ـ والوحي ـ والتقوى ـ والحكم ـ والمشاعر ـ والنسك ـ والكتاب ـ والاجتهاد ـــ والظلم ـ والمعصية ـ وأمر الله ـــ والتسبيح ـــ والقرآن) [4]. إلى آخر تلك الألفاظ التي تعج بها مراثيهم وتشكل كماذكرت معجماً جديداً هو ثاني ما يلفت انتباهنا ـــ بعد السهولة ـــ في لغتهم .

ثم يجيء الاقتباس بدرجاته المتعددة ومنها الإشارة في قوله :

« والثّانيَ الصّادِقَ المحمودَ مَشْهـــدُه وأوّلَ النّاسِ منهم صَدَّقَ الرُّسُلا » [5].

---

(١) السيرة النبوية ـ المجلد الثاني ص ٢٣ ، ٢٤ .

(٢) ديوان كعب بن مالك ص ١٨٧ ، ١٨٨ .

(٣) ديوان حسان بن ثابت ت . سيد حنفي حسنين ص ٣٧٧ : ٣٨٠ .

(٤) أعلام النساء جـ ٣ ص ٢٦١ ./ ديوان حسان بن ثابت ت.د. سيد حنفي حسنين ص١١٤، ١١٥، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢١٢ : ٢١٦، ٢١٩، ٢٤١، ٢٤٢، ٣٠٧ / ديوان شعر الخوارج ت . د . إحسان عباس ص ٤٥ ، ٤٦ / ديوان كعب بن مالك ص ١٧٣ / الشعر والشعراء جـ١ ص ٢١٢ .

(٥) ديوان حسان بن ثابت ت . د . سيد حنفي حسنين ص ٢١٢ .

وهـو يشـير في صدر البيت بقوله : « الثاني » عن أبي بكر رضى الله عنه إلى هـجرته مـع النـبى صلـى الله عليه وسلم و قـول الله عز وجل في شأنهما : (إذ أخْرجَه الَّـذين كـفروا ثـانـيَ اثْنَيْنِ إذ هما في الغارِ إذ يقـولُ لصاحبـه لا تحزنْ إنَّ الله معنا) [١]. وفي وصفه للآيات بالمحكمات [٢]، إشارة إلى قول الله عز وجل : (منه آياتٌ مُحْكَماتٌ هنَّ أُمُّ الكتابِ وأُخَرُ مُتَشابِهاتُ ....) [٣] وكذلك « حَقُّ الُمرْسَـلاتِ » [٤] و « ما بَدَّلوا» [٥].

ومنـها الـقلب أو المجيء بمعنى في الثناء يخالف مـعنى مذكوراً في الذم . فـقد ذم الله عـزوجل في سـورة الشـعراء أناساً لأنـهم (يقولون ما لايفعلون) [٦].وهم فئة من الشـعـراء . فأثـنى حسان عـلى عمر رضي الـله عـنه في رثائه له بأن فـعله لايكذب قوله :

« متى ما يَقُلْ لا يُكذِبُ القولَ فِعلُه   سَريع إلي الخيراتِ غيرِ قَطوبِ» [٧].

وهو نقيض المعنى المذموم في الآية الكريمة ، وجاء في سياق مخـالف للسياق الذي جاءت فيه الآية .

ومنها الإفادة بالمعنى العام المذكور في الآية مع الاحتفاظ ببعض ألفاظها . وهو كثير . فقـد وصف الله عزل وجل نبيـه بقوله : (عَزيزٌ عليه مـا عَنِتُّم حَريصٌ عليكم بالمؤمنين

---

(١) التوبة من الآية ٤٠ .
(٢) ديوان حسان ص ٢١٢ .
(٣) آل عمران من الآية ٧ .
(٤) ديوان حسان ص ٣٧٩ .
(٥) المصدر نفسه ص ٢٤١.
(٦) من الآية ٢٢٦ .
(٧) ديوان حسان ص ٢١٢ .

رَءوفٌ رَحيمٌ﴾ [1]. فقال حسان :

«عَزيزٌ عليه أنْ يَجُوروا عن الهُدى   حَريصٌ على أنْ يَستَقيموا ويَهتَدوا
عَطـوفٌ عليهم لايُثنّـي جَناحَــه   إلى كَنَفٍ يَحنو عليهم ويَمْهَدُ» [2].

ووصفه كذلك بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً﴾ [3] . فقال كعب بن مالك :

«وكان بَشـيراً لنا مُنْـــذِراً   ونُـوراً لنا ضَوْؤه قد أضا» [4].

ويختلفـون في درجة الإفادة ومدى التـصرف اختلافاً واسـعاً ، فيصل عند بـعضهم إلى حد يقرب فيـه من التطابق، وكأنهم يعمدون إلى النقل عمداً، بيـنما يكتفي آخرون بنقل المعنى دون التقيد بصياغته ولا بألفاظه إلا في حدود ضيـقة أو في نطاق محدود . وبين الطرفين يتأرجح أكثرهم .

ومن المعاني التي عـبروا عنها كـثيراً دون التـقيد بصـياغتهـا كما جـاءت في القرآن الكريم قدرية الموت وحتـميته [5]، وقـضاء الله عـز وجل وتعلق كل شئ بمشيئتـه [6]، وجزاء المؤمنين ومصير الكافرين [7].

ومما تجاوزوا فيه التأثر بالمعنى وأفادوا – على تـفاوت بينهم – بالشكل والصياغة قول أبي عامر ابن غيلان في رثاء ابنه عامر :

---

(١) التوبة من الآية ١٢٨ .

(٢) ديوان حسان ص ٣٧٩.

(٣) الأحزاب الآية ٤٥ و ٤٦ .

(٤) ديوان كعب بن مالك ت . سامي مكي العاني ص ١٧٣ .

(٥) ديوان حسان ت . د. سيد حنفي حسنين ص ٢٤١ / ديوان أبي محجن الثقفي ص ١٥ .

(٦) ديوان حسان ص ٢٤٢ .

(٧) ديوان كعب بن مالك ص ١٨٧ ، ١٨٨، ١٩١ ، ٢٥٢ / شعر عبد الله بن رواحة ص ٩٨.

«لو أستطيع جَعلتُ منّي عامراً　　　تحت الضُّلوع وكلُّ حيٍّ فانِ» [1].

وقول نهشل بن حرى في رثاء أخيه مالك :

« أعـاذِلُ قد بَقيت بقاءَ قَيْـسٍ　　　ومـا حيٌّ علـى الـدُّنيا بباقِ » [2].

وقول خفاف بن ندبة في رثاء أبي بكر :

« ليسَ لشيءٍ غير تَقْوي جَـدَاءْ　　　وكـــلُّ شـــيءٍ عُمْرُه للفَناءْ » [3].

وواضح أنهم جميعاً ينظرون إلى قول الله عز وجل : ﴿كلُّ مَن عليها فان﴾ [4] وإن تفاوتوا في طريقة عرض هذا المعنى وفي الاحتفاظ ببعض ألفاظه .

ومما اقتبسوا فيه من الحديث النبوى الشريف – وهو قليل بالقياس إلى ما اقتبسوه من القرآن الكريم – قول الحجاج بن غزية الأنصارى في رثاء عمار بن ياسر :

« قـــال النَّبيُّ له تَقْتُلكَ شِرْ ذِمةٌ　　　سِيطَتْ لُحومُهمُ بِالغَيِّ فُجّارُ » [5].

وهو يصدره بما يدل صراحة على النقل ، ثم ينظم نص الحديث بطريقة لعله قد تزيد فيها بعض الشيء ؛ لأن المحفوظ منه هو قوله صلى الله عليه وسلم : «عَمّارٌ تَقتُلُه الفِئَةُ الباغِيةُ». فآثر « شر ذمة» بما فيها من إيحاء بالتقليل على فئة ، واستبدل بالبغي في الشطرة الثانية الفجور والضلال، وأتى بالضلال في صورة تقوم على الاستعارة المكنية، وبالفجور في صيغة توحي بالكثرة والمبالغة .

٣ – وبجانب المعجم الإسلامي نجد الألفاظ الخاصة بالرثاء . ومنها الموت ومشتقاته، والاستشهاد ، والقبر واللحد والأجداث ، والكفن ، والدفن ، واليتم والثكل ،

---

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى (القاهرة سنة ١٣٢٥هـ) جـ ٣ ص ١٤.

(٢) أمالى المرتضى ت . محمد أبو الفضل إبراهيم جـ ٢ ص ٢٢٧ .

(٣) شعراء إسلاميون ص ٥٠٩ .

(٤) الرحمن آية ٢٦ .

(٥) مروج الذهب ت . محمد محيى الدين عبد الحميد جـ ٢ ص ٣٩٢ .

والترمل، والجزع ، والتفجع ، والتلهف ، والصبر ، والاحتساب [1] .

ويتصل بها على نحو ما ذكر الصدى والهام والحظ والجد فى مراثى الكفار [2]، وصلاة الإله، والقدر، والأجل، والكتاب، والبعث، والآخرة، والحساب، والثواب، والعقاب فى مراثى المسلمين وبعض أهل الكتاب [3].

ويتصل بها كذلك الدعاء بالسقيا [4]. وهو من الأساليب القديمة التى ظلت مستخدمة فى صدر الإسلام، وإن استبدل بعض المسلمين بها الدعاء بالمغفرة واستمطار الرحمات[5].

ومن اللوازم القديمة التى ظلت سائدة كذلك ــ وهى خاصة بالرثاء ــ عدم البعد : (لاتبعدوا ــ لاتبعد ــ لاتبعدن ــ . . . . . .) [6] . وهى تجىء فى ثنايا القصيدة أو

---

(1) الأشباه والنظائر جـ ٢ ص ٣٤٧ ، ٣٤٨ / الأغانى (ط.الدار) جـ٤ ص ٢١٠ ، جـ ٢٢ ص ١٥٤./ الأمالي للقالى (ط. الدار سنة ١٩٢٦) جـ١ ص ١١./ تاريخ الطبرى جـ ٣ ص ٥٥٨، جـ ٤ ص ٩٨./ ديوان حسان ت . سيد حنفى حسنين ص ١١٣ : ١١٥ ، ٢٠٨:٢١٧ ، ٢٢١، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٧٨./ السيرة النبوية – المجلد الثانى ص ٢٧ ، ٢٨، ٥٢، ١٦٢، ١٦٨، ٢١٥، ٢٦٨، ٣٨٨./ شرح الحماسة للتبريزى جـ ٣ ص ١٢١./ الوحشيات ص ١٤٤.

(2) الأغانى جـ ٢٢ ص ٢٣٣./ السيرة – المجلد الأول ص ٦٤٨، والثانى ص ٢٩ .

(3) ديوان حسان ت . د. سيد حنفى حسنين ص ١٧٢، ١٧٣، ٢٠٩، ٢٢١، ٢٤١، ٢٤٢، ٣٠٧، ٣٨٠، ٣٩٢. السيرة النبوية ــ المجلد الثانى ص ٢٤، ١٣٨، ١٣٩، ١٦٧، ٣٨٥.

(4) الأشباه والنظائر جـ ٢ ص ٣٤٨./ الأغاني (ط. الدار) جـ ١١ ص ٢٧٨./ أمالى اليزيدى ص ٣٢./ تاريخ الطبرى جـ ٣ ص ٥٥٩./ شعراء إسلاميون ص ٤٢ .

(5) ديوان حسان ت . د. سيد حنفى حسنين ص ١٧٢./ السيرة النبوية ــ المجلد الثانى ص ١٨٨./ شرح الحماسة للتبريزى جـ ٣ ص ١٠٧ ، ١٢١ .

(6) ديوان حسان ت . د. سيد حنفى حسنين ص ٢٢٣./ ديوان شعر الخوارج ت . إحسان عباس ص ٤٦./ السيرة النبوية ــ المجلد الثانى ص ١٠ ، ٥٢ ، ١٦٨ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨./ شرح الحماسة للتبريزى جـ ٢ ص ٣٩٣./ شعراء إسلاميون ص ٩٤ .

المقطوعة أو الأبيات . وخطاب العين واستدرار الدموع منها ومطالبتها بالبكاء [1]. وهى تجىء غالباً فى أول الرثاء وتقترن عادة بالندب وذكر المواجع واعتياد الهموم وبث الأحزان .

ويلفتنا إلى جانب هذا الافتتاح بلازمة قديمة وجود «ألا» فى مراثٍ كثيرة يفتتحونها بها افتتاحاً ويصدرون بها بعض الأبيات داخل تلك المراثى [2] . وهو استخدام لم يشع – على ما نظن – قبل الصدر ، أو بالأحرى لم يتوسعوا فيه مثلما توسع الشعراء فى ذلك العصر .

ونجد السخرية من الأساليب التى يتكئ عليها اليهود في مراثيهم ومنها قول سماك:

«فَعلُ اللّيالى وصَرْفَ الدُّهورِ ... يُديلُ مِن العادلِ المُنْصِفِ » . [3]

يعنى النبى صلى الله عليه وسلم . ويحتذى أحد المرتدين حذوه فيقول فى رثائه لقتلى بدر:

«يُخبِّرُنا الرَّسولُ بأنْ سنحيا ... وكيفَ حياةُ أصْداءٍ وهامِ»؟ [4]

---

(1) ديوان حسان. ت.د. سيد حنفى حسنين ص ١١٣، ٢١١، ٢٢٥، ٢٢٩، ٢٤٣./ السيرة النبوية – المجلد الثانى ص ٢٤، ٣٣، ٣٨، ١٦٨، ٢٣٣./ مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٧٣./ نسب قريش ص ٢٣٢.

(2) الاستيعاب لابن عبد البر (ط. حيدر أباد سنة ١٣١٨هـ) جـ ١ ص ٤٩./ الأغانى جـ ١٧ ص ٢٦٩، جـ ١٩ ص ١٠./ ديوان أبى الأسود الدؤلى ص ١٧٤./ ديوان حسان ت.د. سيد حنفى حسنين ص ٢٤١، ٣٨١./ ديوان شعر الخوارج ص ٤٥./ تاريخ الطبرى جـ ٣ ص ٣٠٤./ السيرة النبوية – المجلد الأول ص ٦٤٨ والمجلد الثانى ص ١٠، ٢٦، ٢٨، ٣٠، ٣٩، ٤١، ٢٧٢./ الشعر والشعراء جـ ١ ص ٢٩٢./ وقعة صفين ص ٣٦١.

(3) السيرة النبوية – المجلد الثانى ص ١٩٨.

(4) المصدر نفسه ص ٢٩ .

ونجد كذلك التفسير بإعادة الكلمة مضافة أو موصوفة بما يوضحها ويزيل اللبس عنها والإبهام ومنه قول حسان فى رثاء عثمان بن عفان :

«فَهَلاَّ رَعَيْتُم ذِمَّةَ اللّهِ وَسْطَكم وأوْفيتمُ بالعَهْدِ ؛ عهدِ محمَّدِ». [1]

وقول كعب بن مالك فى رثاء حمزة وقتلى أحد :

«بما صَبرُوا تحتَ ظِلِّ اللّواءِ لواءِ الرَّسولِ بذى الأضْوُجِ». [2]

وقول أبى محجن الثقفى فى رثاء أبى جبر ووالده :

«يا ضُلَّ ضُلَّ المنايا ما تَرَكْنَ لنا عِزّاً نَبوءُ به ما هُدِّلَ الورَقُ» [3].

وقول أبى بكر بن الأسود بن شعوب :

«فماذا بالقَليبِ؛ قَليبِ بدرٍ من القَيْناتِ والشَّرْبِ الكِرام
وماذا بالقَليبِ ؛ قَليبِ بدرٍ من الشِّيزَى تُكَلَّلُ بالسَّنام
وكم لكِ بالطَّوِيِّ ؛ طَوِيِّ بدرٍ من الحَوماتِ والنَّعَمِ المُسام
وكم لكِ بالطَّوِيِّ ؛ طَوِيِّ بدرٍ من الغاياتِ والدُّسَعِ العِظام». [4]

وتجرنا هذه الأبيات إلى خاصة أخرى وهى التكرار ؛ فهو يكرر شطرة كاملة مرتين فى بيتين متتاليين، ويعيد الكرة مرة أخرى مع شطرة جديدة في بيتين آخرين. ولعله

---

(١) ديوان حسان بن ثابت ت . د. سيد حنفى حسنين ٢١٣.

(٢) ديوان كعب بن مالك ص ١٨٧.

(٣) ديوان أبى محجن الثقفى ص ١٤.

(٤) السيرة النبوية ــ المجلد الثانى ص ٢٩ .

ولعلهم قد تأثروا في هذه الظاهرة بالقرآن الكريم حيث نجد فيه : ﴿ إذ جعلَ الّذين كفروا في قلوبِهمُ الحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الجاهليَّةِ ... ﴾ الفتح من الآية ٢٦ و ﴿ اهدِنا الصِّراطَ المُستقيمَ صِراطَ الّذين أنْعمتَ عليهم .... ﴾ الفاتحة ٦ ، ٧ . و ﴿ إنّكَ لَتَهْدِى إلى صِراطٍ مستقيمٍ صراط اللّه الّذي له ما في السّمواتِ وما في الأرض ﴾ . الشورى ٥٢ ، ٥٣ .

يهـدف من وراء ذلك الإثارة . وهذا الصـيع يشبهـه ترديـد أبي ذؤيب الهـذلي لتلك اللازمة «والدهر لايبقى على حدثانه» عدة مرات في عـينيته الشهيرة التي رثى بها أبناءه الذين قتلهم الطاعون في فتح مصر[1]. وإن كانت غايته بعيدة تمام البعد عن الإثارة؛ فهو يقرر حقـيقة مُرَّةً سيطرت على نفسه سيطرة كاملة ووعتها ذاكرته من خـلال التجربة التي مر بها وعياً حاداً فراح يرددها فيما يشبه الذهول، وأخذ يعبر بواسطتها عما تراكم داخله من المخاوف والهموم .

ومن التكرار تكرار كلمـة يركـز عليهـا الشاعـر لما لهـا من دلالة خاصـة في النص تكشف لنا إحساسه وتثير مشاعرنا وتخلق جواً من المشاركـة بيننا وبينه وتحقق نوعاً من الانسجـام . وقد كرر متمم في أربعـة أبيات كلمة القـبر بصيغة الإفـراد والجمع ست مرات [2] . وقد سيطرت عليـه تلك الكلمة حتى لقد رأى في البيت الأخير أن كل ما يحيط به وتصل إليـه عيناه ليس إلا جزءاً من قبـر أخيه ، فكيف لايبكي عليـه وقد تحول الوجود كـله في ناظريه ــ في لحظة صدق نفـسي ــ إلى قبـر كـبير يتـمدد فـيه جـسد أخيه؟!

على أن هذا التكرار يخلق بالإضـافة إلى ما ذكرت وظيـفة لغوية ــ فهـو وسيلة من وسائل التأكيد ــ ويثرى في الوقت نفسه الموسيقى الداخلية للأبيات .

---

(١) ديوان الهذليين جـ ١ ــ ص ١ ٠ ٢١ .

(٢) الأمالي لأبي علي القالي (ط. دار الكتب سنة ١٩٢٦) جـ ٢ ص ١١.

فى التصوير والخيال

١ ــ يبرز التشبيه من بين العناصر البلاغية فى تشكيل الصور القديمة ومن بينها صور الرثاء. وهو يجىء ــ أغلب ما يجىء ــ فى هيئته البسيطة ؛ فيذكرون الأداة ، ويعمدون إلى إبراز وجه الشبه إن لم يكن مفهوماً بداهة، ويستمدون من البيئة المحيطة بهم، ويتحركون فى إطار المحسوسات .

ومن هذا النوع ـ وهو كثير جداً ـ قول حسان فى رثاء النبى صلى الله عليه وسلم:

«أمْسى نِساؤكَ عَطَّلنَ البُيوتَ فما   يَضْرِبنَ فوقَ عُرَى سِتْرٍ بأوتادِ

مِثلَ الرَّواهبِ يَلْبسن المُسوحَ وقد   أيْقنَّ بالبؤسِ بعدَ النِّعمةِ البادِى». (١)

يشبه أمهات المؤمنين وقد حل الحزن بهن وخيم الصمت عليهن نتيجة المصاب بالرواهب اللائى يلبسن المسوح ويعتزلن الناس. ووجه الشبه واضح فى الهيئة المرئية وإن تجاوزها إلى التعبير عما يستكن فى أعماق النفس لأنه يتخذ من تلك الهيئة دليلاً على الحالة النفسية لهن أو يساعدنا فى الأقل على استنتاجها ، وهو استنتاج غير بعيد لأنه يُفهم من التفصيل فى المشبه والمشبه به وما نختزنه فى أعماقنا من تصور لحال الراهبات وأسلوب معيشتهن. والأداة مذكورة . والمشبه والمشبه به محسوسان. والأديرة منتشرة فى أماكن كثيرة بالجزيرة وكان حسان يراها فى رحلاته القديمة للشام. ولاتركيب لصورة أخرى على تلك الصورة .

على أن هذا النوع ــ وإن جاء أحياناً مبتكراً ــ يغلب عليه التكرار، ويستمدون معظمه من القديم. ومنه كذلك تشبيه المعنوى بالمحسوس كقول كعب بن مالك فى رثاء عثمان:

«وكيفَ رأيتَ الخيرَ أدبَرَ عنهمُ   ووَلَّى كإدبارِ النَّعامِ الجَوافِلِ»؟! (٢)

---

(١)ديوان حسان بن ثابت ت.د. سيد حنفي ص ٢٨٠.

(٢)ديوان كعب بن مالك ص ٢٤٦ .

وإدبار الخير فى الشطرة الأولى صورة استعارية تجسد الخير وتجعل منه شيئاً محسوساً. لكنه إمعاناً منه فى إبراز هذا الخير ــ وهو شئ معنوى ــ نراه لا يكتفى بالاستعارة حتى يردفها فى الشطرة الثانية بالتشبيه ؛ فالخير يدبر كالنعام وقد تملكه الفزع. وتعطى كلمة «الجوافل» للتشبيه بعداً نفسياً إضافة إلى تأكيدها لمعنى السرعة وهى المقصودة أصلاً والمحسوسة بوضوح فى حركة النعام.

ومنه – وهو قليل جداً ــ تشبيه المعنوى بالمعنوى ، كتشبيه متمم بن نويرة لحزنه على فقد أخيه بحزن أظآر روائم . وذلك فى قوله :

«فما وَجْدُ أظْآرٍ ثلاثٍ رَوائمٍ   رأينَ مَجَرّاً مِن حُوارٍ ومَصْرَعا

ولا شارِفٍ جَشّاء رِيعتْ فرَجَّعتْ   حَنيناً فأبْكَى شَجْوُها البَرْكَ أجمعا

بأوْجدَ منّي يومَ فارقتُ مالِكاً   ونادَى به الموتُ الحَثيثُ فأسْمَعا». (١)

وهو يمد التشبيه هنا فى ثلاثة أبيات، ويعتمد على أسلوب من أساليبه القديمة يغنى عن ذكر الأداة حيث يجىء بـ «ما» يعقبها المشبه به، ويفصل فيه ما وسعه التفصيل ، ثم «بأفعل» التفضيل متضمنة فى سياقها للمشبه ووجه الشبه معاً. وفيه ــ إضافة للقلب ــ اعتراف أو ما يشبه الاعتراف بقصور المشبه به عن الغاية التي ينشدها ؛ فهو يقل درجة عن المشبه، بخلاف المعهود والمتعارف عليه فى كل الأنواع الأخرى .

وقد يعمدون إلى حذف الأداة ، وهو ما يعرف بالتشبيه البليغ، وفيه يستوى الطرفان، ويصير المشبه والمشبه به شيئاً واحداً. ومنه قول خفاف بن ندبة فى رثاء أبى بكر:

«إنَّ أبا بكرٍ هو الغَيثُ إذ   لم تَشْمَلِ الأرضَ سَحابٌ بماءْ». (٢)

فيجعل من كرمه ونفعه وكثرة عطائه ورعايته للمحتاجين غيثاً، ويبرز تأصل هذا كله

---

(٢) الأشباه والنظائر جـ ٢ ص ٣٤٨.

(٣) شعراء إسلاميون ص ٥١٠ .

فيه بالعبارة التالية «إذ لم تشمل الأرض سحاب بماء» . فهو يجود فى وقت الشدة وحين تلم به وبمن حوله الأزمات. ومثله قول ابن مقبل فى عثمان بن عفان:

«ومَلْجــأ مَهْروئينَ يُلْفَى بــه الحَيــا إذا جَلَّفتْ كَحْلٌ هو الأمُّ والأبُ» (١).

وقد زاد عن خفاف درجة بما يوحيـه الملجأ من الأمان، والأمومة والأبوة من العطف والحنان ووجوب الرعاية لا التفضل فى الإنفاق .

وقـد تحذف الأداة كـذلك ويضاف المشـبه به إلى المشبـه وهو ما يعـرف بالتشـبيـه الإضافى ومنه قول حسان :

«وَفَـوا يـومَ بدرٍ للرَّسـولِ وفوقَهم ظِـلالُ المَنايا والسُّيوفُ اللَّوامعُ» (٢).

فقد شبـه المنايا بالظلال على عادتهم فى تشبيه المعنوى بالمحسوس ، وأضاف الظلال إلى المنايا وهو قريب من الاستعارة. وقد يفهمـه بعضهم على أنه استعارة على اعتبار أن المشبـه به هو السـحاب لا الـظلال ، وتكون الظلال على هذا الفـهم لازمـة من لوازم المحذوف. وهو وارد ، غير أن التفسير الأول ـــ فى تصورى ـــ أقرب. وهذا النوع من التـشبيـه على أيـة حال قليـل . وقد يتـضح فى العـصر التـالى مع التطور في الخـيـال والتصوير.

وتجىء الاسـتعارة فـى درجة تاليـة بعد التـشبيـه ، وهى تحتـاج إلى درجة أقـوى من القدرة على التخيل والتخييل ؛ لأنه لا يكتفي الشاعر فيها بالربط بين طرفين متقاربين أو متباعدين كالتـشبيه، وإنما يلجأ إلى عملية أخرى هى عملية الحـذف فيضعنا بإزاء المشبه به مباشرة فى التصريحية ، أو بإزاء المشبه وحده مع وجود لازمة من لوازم المحذوف ـــ وهو المشبه به ـــ تدل عليه فى المكنية .

وواضح أن الاستعـارة التصريحية أشـد تعقيداً لخلوها من ذكر المشـبه وهو الأساس

---

(١) ديوانه ص ١٥ .

(٢) ديوان حسان بن ثابت ت . د. سيد حنفي حسنين ص ٢٤١.

في السياق ، وعدم وجود ما يدل عليه كما هي الحال في النوع الآخر . لذا فقد كان حظها من الانتشار أقل من شقيقتها ومنها قول حسان في رثاء النبي صلى الله عليه وسلم:

«بها حُجُراتٌ كانَ يَنزلُ وَسْطَها مِن اللّهِ نورٌ يُسْتَضاءُ ويُوقَدُ»[1].

يعني القرآن الكريم الذي يدل ويهدي إلى الطريق المستقيم الذي ارتضاه الله لعباده كما يدل النور الحائرين ويزيل الظلمات ويكشف السبيل للسائرين . ومنها قوله كذلك في شهداء بئر معونة :

«أصابَهمُ الفَناءُ بحَبْلِ قومٍ تُخُونَ عَقدُ حَبْلِهمُ بغَدْرِ»[2].

والحبل هنا هو العهد الذي نقضوه ، والوعد الذي نكثوه . ومنها قول طالب بن أبي طالب في رسول الله :

«يُطيفُ به العافونَ يَغْشَون بابَه يَؤُمُّونَ بحراً لانَزوراً ولا صَرْبا»[3].

وإن كان التشبيه بالبحر والغيث في إطار الجود والكرم قد صار من كثرة الاستعمال كأنه حقيقة لامجاز . وقد عدوا مثل هذه الصور سمة من سمات لغتنا العربية واعتبروها لغة شاعرة. لكنها لاتلغي على أية حال القصد إليها ههنا، وهذا القصد في حد ذاته جزء من الجهد المبذول في سبيلها، وهو يتفنن في إخراجها بالتفصيل بـ «لا . . . . ولا» أعني بنفي القلة مرة والانقطاع مرة أخرى . وفي الأولى تأكيد لشدة الكرم، وفي الثانية زيادة معنى وهي (الديمومة) وما توحي به من الطمأنينة في نفوس العافين .

---

(١) ديوان حسان بن ثابت ت . د. سيد حنفي حسنين . ص ٣٧٧.

(٢) المصدر نفسه ص ٢٣٠ .

(٣) السيرة النبوية ــ المجلد الثاني ص ٢٧ .

أما الاستعارة المكنية فهى كثيرة، وفيها وفي سابقتها تبدو الرغبة فى التجسيم والتجسيد واضحة، أو بالأحرى في النزوع نحو الحسية لا التجريد . فالحرب تلقح وتحتلب فتدر شراباً مراً لا يستساغ :

«بنى كُهَيفَةَ إنَّ الحربَ قد لَقِحتْ   مَحْلوبُها الصّابُ إذ تُمْرَى لُمحتَلِبِ»[1].

وهى ـ على تكرارها ـ من أروع صورهم فى تجسيد الحرب وبيان آثارها . وفي قوله «محلوبها الصاب» و«تمرى لمحتلب» ترشيح وتأكيد. وفيها كذلك إلحاح من الشاعر على التجسيد بإثارته لحاستى اللمس والذوق بعد إشباع البصر .

والرماح تعل وتنهل :

«بالبيضِ حينَ تُسَلُّ مِن أغْمادِها   يوماً وإنهالِ الرِّماحِ وعَلِّها».[2]

والدهر يريب[3]، والبلاد تضيق بأهلها[4]، والصبر ينفع[5]، والذكرى تثير[6] والمعالى تكتسب[7]، والآجال تقطعها المصارع[8] ، والأرض تبكى[9] ، والهلك يهد[10] والموت يسرع فى المجىء[11].

---

(١) ديوان حسان ت . د .سيد حنفي حسنين ص ٢٢٥ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٢٢ .

(٣) المصدر نفسه ص ١١٥ .

(٤) المصدر نفسه ص ٢٠٩ .

(٥) المصدر نفسه ص ٢١٦.

(٦) المصدر نفسه ص ٢٢٣.

(٧) المصدر نفسه ص ١٧٤.

(٨) المصدر نفسه ص ٢٤١.

(٩) المصدر نفسه ص ٢٧٨.

(١٠) ديوان كعب بن مالك ص ٢٠٢ .

(١١) المصدر نفسه ص ٢٥٣ ، وشعر عبد الله بن رواحة ص ٩٨ .

وإذا كانت كل استعارة كناية بالضرورة فهناك كنايات أخرى قائمة بذاتها اعتمدوا عليها في تشكيل صورهم واستكمال أبعادها . ومنها وصف أبي خراش الهذلي لصاحبه بالطول في معرض تأبينه له . وهذا الطول يُستشف من الكناية المعدة سلفاً والتي رددها الشعراء كثيراً:

«طَوِيلُ نِجادِ السَّيفِ لَيسَ بِجَيْدَرٍ   إذا اهْتَزَّ واسْتَرخَتْ عليه الحَمائِلُ»(١).

إلا أنه يضيف إليها ما يؤكدها بنفي الضد، ويخلع عليها فى الشطرة الثانية شيئاً من الحركة «اهتز» ثم يجمع بين تلك الحركة ونقيضها ؛ فالسيف يهتز ، والحمائل تسترخي عليه.

ومنها فى زوال الملك قول القعقاع بن عمرو فى يوم الثنى :

«حَطَطْناهُمُ منها وقد كادَ عَرْشُهم   يَميلُ بهِم فِعلَ الجَبانِ المُخالِفِ»(٢).

وهى جديدة أو غير مطروقة بكثرة ؛ فالهزيمة التى لحقت بهم كادت تودى بملكهم، وقد عبر عن ذلك بميل العرش.

ومنها فى الثأر ورفض الدية وعدم قبول الصلح قول حريث بن زيد الخيل :

«أَصَبنا به مِنْ خِيرَةِ القَومِ سَبْعَةً   كِراماً ولم نَأكلْ به حَشَفَ النَّخلِ»(٣).

وفى الصلابة ومضاء العزيمة قول خزانة بنت خالد :

«فلا يَحسَبِ الواشونَ أنَّ قَناتَنا   تَلينُ ولا أنّا مِن الموتِ نَجزَعُ»(٤).

وهى فى كلٍّ تقدم المعنى بطريقة غير مباشرة فتثير الذهن وتحرك فينا لذة الكشف

---

(١) ديوان الهذليين جـ ٢ ص ١٤٨./ السيرة النبوية ـــ المجلد الثانى ص ٤٧٢ .

(٢) شعراء إسلاميون ص ٤٢ .

(٣) الأغانى جـ ١٧ ص ٢٦٩ .

(٤) الدر المنثور فى طبقات ربات الخدور ص ١٨٣./ شرح ديوان الخنساء ص ١٤٦.

وتعلى من قيمة التفكير ، وتوهمنا ـــ وتلك فى تصورى وظيفتها الأولى ـــ بصدق الشاعر حيث يجبهنا دائماً بالدليل فتدفعنا من حيث لانشعر إلى الثقة فيه . وهو مطلب غال عزيز لشعراء السياسة والمذهبية فى شتى العصور .

* * *

٢ ـــ تتنوع الصور فيما بين أيدينا من رثاء وتأخذ أشكالاً عدة يبرز من بينها :

الصور البصرية . وهى تثير حاسة العين أكثر من إثارتها لباقى الحواس ، وفيها نرى بواسطة الكلمة والإيحاء والخيال لوحات لاتقل جمالاً عن تلك التى يرسمها الفنان بريشته، إن لم تتفوق عليها فى بعض الأحيان بخروجها من دائرة الثبات وانفلاتها من الجمود وقدرتها على التتابع والنمو والحركة والانتقال .

وأغلب صورهم من هذا النوع، وهى تظهر عند الاندماج بالطبيعة ، وفى معرض التأبين والوصف. بل نراها أحياناً في الندب حين يتتبعون أثر الموت وما يخلفه المصاب. فحسان بن ثابت يعرض صورة لدار عثمان بعد موته، وفيها نرى الخراب وقد حل بأرجائها بعد أن كانت عامرة بمن فيها، والأبواب مفتحة على مصاريعها ولايزال يبعضها أثر الحريق:

«إنْ تُمْسِ دارُ بنى عثمانَ خاويـةً ... بـابٌ صَـريـعٌ وبـابٌ مُحْـرَقٌ خَـرِبُ

فقـد يُصـادِفُ باغِي الخيرِ حاجتَـه ... فيها ويأوى إليها العُرْفُ والحَسَبُ»[1].

وفى قوله «تمس» إيحاء بالرهبة والسكون والظلام، وفى «صريع» و «خرب» مبالغة، و «قد» شك، أو تأكيد على طريقة القرآن الكريم، و «يصادف» و«يأوى» فى صيغة المضارع لاستحضار الصورة واستمرارها.

وفى بيتين تاليين نرى الكتائب «عصباً من خلفها عصب» يقدمها أبو سفيان «شهاب الحرب» «مستلئماً» ، «قد بدا فى وجهه الغضب».

---

(١) ديوان حسان بن ثابت ت . د . سيد حنفى حسنين ص ٢١٢.

وفى مرثية أخرى نرى عثمان وقد تخاذل عنه أصحابه فتركوه للغوغاء الذين قدموا من الأمصار، يدعو أصحابه متلهفاً ولامجيب، وكأنه ـــ بل كان فى تصوره كذلك ـــ مفرد بمضيعة :

«أتركتمـــوهُ مُفْـــرَداً بَمضيعـةٍ   تَنتابُـه الغَوغـــاءُ فـى الأمصـــارِ
لَهْفَـانُ يدعـــو غائبــاً أنصـــارَه   يا وَيْحكم يا مَعْشرَ الأنصارِ» (1) .

ونرى فى مـرثية ثالثـة الدار وقد تحـولت إلى مـأسدة والثـوار وهم يحيطون به وقـد حملوا السـيوف والدروع والخوذات فـوق الرءوس حتى لقـد تركـت الخوذات ـــ من طول المقام ـــ أثرها على الأنوف (2) .

أما فـى التأبين فنرى الحـارث ـــ فى رثاء عبـد الله بن الزبعرى له ـــ شـريفاً مـضىء الوجه كالبدر يسطع فى الظلام :

«والحارثَ الفيّاضَ يَبْرُقُ وَجهُه   كالبدرِ جَلَّى ليلةَ الإظلامِ» (3) .

وفى وصـف عناصر الطبيعة نرى فـاطمة رضى الله عنها تذكر فى رثائها للنبى صلى الله عليه وسـلم أن السماء قـد اغبر آفـاقها والشـمس كورت وأظلم العـصران وعلت الأرض الكآبة وأصابها ما يشبه الرجفان :

«اغبرَّ آفاقُ السَّماءِ وكُوِّرتْ   شمسُ النَّهارِ وأظلمَ العَصْرانِ
فالأرضُ مِن بعدِ النَّبىِّ كَئيبةٌ   أَسَفاً عليه كثيرةُ الرَّجَفَـانِ» (4) .

وكأن الطبيعـة بعناصرها المختلفة تشارك المسلمين فى أحـزانهـم لفقد النبى صلى الله

---

(1) ديوان حسان بن ثابت ت . د . سيد حنفي حسنين ص ٢١٤ .
(2) المصدر نفسه ص ٢١٥ .
(3) شعر عبد الله بن الزبعرى ص ٤٦ .
(4) شعر الدعوة الإسلامية في عهد النبوة والخلفاء الراشدين ص ٣٨٩ ، ٣٩٠ .

عليه وسلم أو تشارك فاطمة ـــ وهى ابنته ـــ على نحو خاص فى التعبير عن هذا الحزن. وقد يكون هذا الشعر مما وضعه الشيعة على لسانها كما وضعوا شعراً كثيراً على لسان آل البيت، إلا أننا لانعدم نماذج أخرى لتلك المشاركة فى مراثى غيرها من شعراء تلك الفترة (١) .

ويلى الصور البصرية من حيث الكثرة الصور التقابلية وفيها يعمدون إلى الألفاظ المتضادة والمعانى المتقابلة ، فالوفاء بالنذر وما يستوجبه من تحمل التبعات يقابله الغدر والتلون وعدم الثبات فى قول حسان :

«أَوْفَتْ بنو عَمْرِو بنِ عَوفٍ نَذْرَها وتَلوَّنتْ غَدْراً بنو النَّجارِ» (٢) .

وإحساسه بالأمن والرضا والاكتفاء فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم حتى لكأنه فى نهر جار يغترف منه ما يشاء وينعم بالعيش فيه يقابله التفرد والحرمان بعد موته فى قوله:

«خيرَ البَرِيَّةِ إنِّى كنتُ فى نَهرٍ جارٍ فأصبحتُ مِثلَ المُفْرَدِ الصَّادِى» (٣) .

وهى تجمع بين الاستعارة التصريحية فى الشطرة الأولى والتشبيه فى الشطرة الثانية، وبين زمنين ـــ أحدهما انتهى والآخر لايزال مستمراً ـــ لم يفصل بينهما إلا الفاء الدالة على السرعة.

والاستتار بالظلام ـــ كناية عن الفحش والبخل معاً ـــ يقابله الظهور فى غير فحش ولابخل فى قول متمم بن نويرة :

---

(١) الروض الأنف للسهيلى جـ ٤ ص ٢٧٥./ الطبقات الكبرى لابن سعد ـــ المجلد الثانى ص ٣٢٨، ٣٣١. وفى رثاء آخرين غير النبى صلى الله عليه وسلم : ديوان حسان ص ٢٢١ ، ٣٧٨، ٣٨٩./ السيرة النبوية ـــ المجلد الثانى ص ٣٨٦./ شرح الحماسة للتبريزى جـ ٣ ص ١٠٨./ شعراء إسلاميون ص ٢١٣.

(٢) ديوان حسان بن ثابت ت . د . سيد حنفى حسنين ص ٢١٤ .

(٣) المصدر نفسه ص ٢٠٨ .

«وإنْ كانت الظُّلْمـاءُ سِتْراً لبَعضِهم   بَدا وجهُه في غير فُحْشٍ ولا بُخلِ» (١) .

والجنة جزاء للشهيد يقابلها النار لقاتله في قول أبي زبيد الطائي :

«حُمَّتْ لِيَدخُلَ جنّاتٍ أبو حَسَنٍ   وأوجبتْ بَعدَه للقـاتـلِ النّـارُ» (٢) .

وهذا المعنى كثير جداً في مراثيهم ، ولعلهم قد تأثروا فيه بالقرآن الكريم ؛ حيث يعرض لوحات متقابلة للجنة وما فيها من النعيم ، والنار وما فيها من العذاب وسوء المصير.

وتجيء الصور الذهنية والنفسية في درجة تالية . أما الصور الذهنية وهي التي تجمع بين أشياء متباعدة يستحيل الجمع بينها في الواقع أو يصعب في أقل الأحوال وتحتاج إلى كد ذهني وإعمال كبير للعقل لفهم العلاقة بين أطرافها واستكناه ما يريد الوصول إليه من خلالها فهي بهذا المعنى قليلة جداً في العصر الذي ندرسه؛ حيث الحياة العقلية بسيطة لم تتعقد بعد . لكنها تجيء — في أغلب الأحيان — في مستويات تتناسب وذلك العصر، وفي درجات يمكن اعتبارها أولية ؛ بإثارتها للعقل ، وجمعها بين الأطراف المتباعدة، وحاجتها إلى شيء من الأناة في فهمها قبل أن نتذوقها ونحس بما فيها من جمال. فبعض الرجال — عند متمم — كالنخيل ، وأي نوع من النخيل؟ ذلك الذي لاجنى له ولاظل. والرابط ههنا ليس في التفاهة وعدم النفع وإنما في كونه يعد من الناس كما تعد تلك النخلة التي لاقيمة لها من النخل :

«وبعضُ الرِّجالِ نَخْلَةٌ لاجَنى لها   ولاظِلٌ إلاّ أنْ تُعـدَّ مِن النَّخـلِ» (٣).

فكثيرٌهم الذين لا يستحقون هذا اللقب ، وعلى الرغم من ذلك فقد تخطاهم الموت - وهذا ما يحيره - واختار أخاه وهو الذي كان يقوم على حاجته ويكتنفه ويرعاه

---

(١) الأشباه والنظائر جـ ٢ ص ٣٤٩ .

(٢) شعراء إسلاميون ص ٦١٢.

(٣) الأشباه والنظائر جـ ١٢ ص ٣٤٩ .

كما كان يقوم على حاجات كثيرين مثله .

والدماء عند عبد الله بن حـذف كشعـاع الشمس ؛ فهـو يسيل فى كل فج صـابغاً للرمال باللون الأحمر كما يملأ الآفاق ويصطبغ عند الغروب بلون كذلك اللون :

«كـأنَّ دماءَهـم فى كـلِّ فَـجٍّ شُعاعُ الشَّمسِ يَغْشَى النَّاظِرينا» (١).

لكنه لايقف عند اللـون والانتشـار ـــ وإن أمكن اسـتنتاجـهـما ـــ وإنما يركـز على غشـيانه للعين حتى لا ترى شـيئاً سـواه ، وما يحدثه مـثل هذا الغشيـان ـــ عادة ـــ من ارتخاء للجفن واهتزاز للبصر . وتلك حالهم وقد اشتد عليهم الحصار وكثر فيهم القتل وكـادوا يتعـرضـون للهـزيمة وأخذهم الجـهـد والإعيـاء . فـالرؤى لم تعـد واضحـة ، والإحباط يهـيمن على النفوس . إنهم لايقدرون على النظر إلى تلك الدماء التى تسيل فى كل فج فـيضطرون إلى الإغمـاض كلما وقعت عليهـا العيـون ويسرعـون بإغلاق الجفون كما يسرع من يغشى الشعاع بصره وهو يرمى بناظريه نحو قرص الشمس.

والموت كالخمر يذاق صرفاً وممزوجاً فى قول حسان :

«مَن سَرَّهُ الموتُ صِرْفاً لا مِزاجَ له فَلْيأتِ مَأْسَـدةً فى دارِ عثمـانا» (٢).

وهو يحيل على الذوق . لكن تشبيه الموت بالخمر ـــ لا الخمر بالموت ـــ من الأشياء النادرة القليلة التى يصـعب تصورها . مع ما فى كلمـة «سره» من المجافاة . فـمن يسره رؤية الموت خـالصاً أو غـيـر خالص؟ وكـيف شت به الخـيال لـيـجعله فى هذا الوضع صرفاً وكأنه فى حالات أخرى يمزج كما تمزج الخمر بالماء؟

أما الصور النفـسية فمنها قول عبد الله بن رواحة وقد جعل من الثأر وتحقيق النصر شفاء لما يعتمل في النفس من الغليل :

---

(١) تاريخ الطبرى جـ ٣ ص ٣٠٤.

(٢) ديوان حسان بن ثابت ت . د . سيد حنفى حسنين ص ٢١٥ .

«وقبل اليوم ما عرموا وذاقوا   وقائعنا بها يُشفى الغليـــلُ» (١).

وقول عمرة بنت دريد فى الهم وقد تمكن منها حتى فك أوصالها وأذاب ماء ساقيها:

«فكان جَـزاؤنا منهم عُقوقـاً   وَهمّاً ماعَ منه مُخُّ ســاقِى» (٢).

ومنها قول أخت المنذر بن عمرو فيه وفيمن قتل معه يوم بئر معونة :

«تعـادتْ عليهـمْ ذِئـابُ الحِجـازِ   بنــو بُهْثــةٍ وبنــو جَعْفــرِ» (٣).

وفى اختيارها للذئاب إيحاء بالغدر والخيانة ، وهو ما كانت تحسه ويحسه معها كل مسلم عاصر أحداث ذلك اليوم تجاه هاتين القبيلتين اللتين غدرتا به وبأصحابه.

وهذه قتيلة بنت الحارث تخنقها الدموع لمقتل أخيها أو أبيها فى قولها :

«أبْـلِـغْ به مَيْتــاً بــأنَّ تحيَّـــةً   مـا إنْ تزالُ بها النَّجائـبُ تَخْـفقُ
منِّـى إليـكَ وعَـبْرةً مَسـفوحةً   جادتْ بدَرِّتها وأُخرى تَخَنَّقُ» (٤).

وهو قمة الإحساس بالحزن ؛ أن يبلغ البكاء درجة يشعر معها المرء بالاختناق، وكأن الدموع حبال تلتف حول الرقبة وتُحكم — مع تتابعها فى غزارة — الضغط والالتفاف.

وإذا كان الثأر يشفى فى قول عبد الله بن رواحة ، فإنه عند الأشهب بن رميلة لايزيد على الرى، لكنه لايبلغ — مهما شربوا من الدماء — حد الشفاء :

«إذا ما اعتَرضنا مِن أخينا أخاهمُ   رَوِينا ولم نَشْفِ الغَليلَ فَيَنْقَعا» (٥).

---

(١) شعر عبد الله بن رواحة ص ٢٥٢ .

(٢) السيرة النبوية — المجلد الثانى ص ٤٥٤ والدر المنثور ص ٣٥٢ .

(٣) ديوان حسان بن ثابت ت . د . سيد حنفى حسنين ص ٢٣٣ .

(٤) الأغانى جـ ١ ص ٢٠ .

(٥) الأغانى (ط الدار) جـ ٩ ص ٢٧٢ . وهى بديوانه المجموع بكتاب « شعراء أمويون جـ٤ » ص ٢٣٦ مع اختلاف يسير فى الرواية .

وهى صورة بشعة من الصور التى خلفها الصراع الدموى فى شعر الرثاء . يقوله من يزعم فى آخر القصيدة أن له قلباً، وأن قلبه لو كان من حديد ـــ وقد كان بالفعل ـــ لذاب، ولو كان من الصخر لتشقق لما صنعوه بأخيه :

«فلو كان قلبى مِن حَديدٍ أذابَه   ولو كان مِن صُمِّ الصَّفا لَتصدَّعا».

وعلى النقيض من هذا القلب نرى قلب متمم بن نويرة وقد رق من شدة الحزن حتى أصابه القرح. وإنه ليرجو ممن يسميها بابنة العمرى ألا تنكأ هذا القرح فتثير مواجعه وتهيج أحزانه :

«قَعيدَكِ ألا تُسْمِعينى مَلامَــةً   ولاتَنْكئى قَرْحَ الفُؤادِ فيَيْجَعا [1]»

ويشعر منقذ بن هلال بالعجز بعد فقد أخيه فيشبه نفسه بالصقر . ولكن أى صقر؟

«أصبحتُ بَعدَ أخى ومَصْرعِـه   كالصقْرِ خانَ جَناحَه الكَسْرُ» [2].

إنه الصقر الذى يطير بجناح واحد بعد أن فقد جناحه الآخر فقداً أليماً يوحى به «الكسر» والفعل «خان».

أما ابن بقيلة فقد تملكه الإحساس بالذل بعد أن زال ملك مواليه وهلك أبو قبيس فصاروا من بعد هلكه «كَجُرْبِ المَعْزِ فِى اليَوْمِ المَطِيـر» [3]. ولم يكتف بالتشبيه بالمعز حتى جعلها جرباء، وأضاف إلى تلك الصفة ما يزيد فى إظهارها ويبرز فى الوقت نفسه ضعفها ونتنها وعزلتها فجعلها في يوم ممطر، بل «مطير» بصيغة المبالغة .

* * *

---

(١) الأشباه والنظائر جـ ٢ ص ٣٤٨ .

(٢) الوحشيات ص ١٤٤ .

(٣) تاريخ الطبرى جـ ٣ ص ٣٦٢ .

٣ ــ ونلاحظ فى هذا الجانب أيضاً أنهم قد يلجأون إلي التعبير الإشارى فى بعض صورهم ومنها قول الوليد بن عقبة فى رثاء أخيه لأمه عثمان بن عفان :

«هــمُ قتلــوه كي يكونــوا مكانَــه كما غَدَرتْ يوماً بكِسْرَى مَرازِبُهْ» (١).

وقول متمم فى رثاء أخيه :

«وكنّــا كندْمــانَىْ جَذِيمــةَ حِقبَــةً مِن الدَّهـر حتّى قيلَ لن يَتصدَّعا» (٢).

وهما يلخصان بهاتين العبارتين القصيرتين أو بالأحرى هاتين الصورتين القائمتين على «التشبيه» : «كما غدرت يوما بكسرى مرازبه» و «كنا كندمانى جذيمة» قصصاًومواقف سجلها التاريخ ووعتها ذاكرة العامة، ويحركان بواسطتهما ما تراكم في وجدان المتلقين من الإيحاءات والمعانى والظلال ووجهات النظر المتعددة والتأويلات المختلفة .

كما يلجأون فى بعض الأحيان إلى ضرب من التعبير يستمدون فيه من الطبيعة صوراً ومشاهد ترمز إلى أشياء قد يعجزون عن التصريح بها . وأبرعهم على الإطلاق في هذا الضرب أبو ذؤيب الهذلى وفى عينيته وحدها ثلاثة مشاهد إحداها للحمار وأتنه والثانية للثور الوحشى والثالثة لفارسين مدججين بالسلاح يتصارعان من أجل البقاء(٣). وهى جميعاً تعمق إحساسنا بالموت وتشير إلى ضعفنا وضعفه هو على نحو خاص ــ لفقد بنيه ــ أمام القدر وضرباته .

وتشيع في صورهم الألوان بشكل لافت . وبعضها يوظف أو يكاد ؛ فالأبيض ــ وهو استخدام قديم ــ للشرف والرفعة وطيب الأصل :

« أبيَضَ فى الـذِّروةِ مِن هاشِـمٍ لـم يَمـرِدونَ الحَـقَّ بالباطـلِ» (٤).

---

(١) شعراء أمويون جـ ٣ ص ٤٥ .

(٢) الأشباه والنظائر جـ ٢ ص ٣٤٨ .

(٣) ديوان الهذليين جـ ١ ص ٤ : ٢١ .

(٤) ديوان حسان ت . د . سيد حنفى حسنين ص ٢٢٠ .

والأسود ــ وهو أكثرها انتشاراً ــ للحزن والهم وبيان أثر المصاب :

«أظلمت الأرضُ لفقدانِــه　　　واسْودَّ نورُ القمرِ النّاصِلِ» [1].

وللضيق والبؤس :

«ضاقتْ بالانْصارِ البلادُ فأصبحوا　　　سُوداً وُجوهُهمُ كلَونِ الإثْمِدِ» [2].

والأحمر للقتل :

«ثلاثــةُ رَهْــطٍ قُدِّمــوا فتقدَّمــوا　　　إلى وِرْدِ مكروهٍ مِن الموتِ أحمَرِ» [3].

وهو الموت المكروه الذى يتعرضُ فيه المرء للتعذيب والتنكيل وإراقة الدم .

والأزرق للأجناس الأجنبية والموالى من روم وفرس :

-«وما كنتُ أخْشى أنْ تكونَ وَفاتُه　　　بكَفَّيْ سَبَنْتَى أزرَقِ العينِ مُطْرِقِ» [4].

-«كــأنَّ جُمَّتَــه هُــدّابُ مُخْمَلَــةٍ　　　أحَمُّ أزرَقُ لم يَشْمَطْ وقد صَلِعا» [5].

ويستخدم الشمردل فى إحدى صوره الحلم استخداماً رائعاً حيث يعبر بالرمح الذى ترفض عامله ــ وهو مجمل ما رآه فى المنام ــ عن موت أخيه ، وهو التفسير الذى جاء الواقع فصدقه:

«إلى اللّهِ أشكو لا إلى النّاسِ فَقْدَه　　　ولَوْعَــةَ حزنٍ أوجــعَ القلبَ داخِلُــهْ

وتَحْقيقَ رُؤيــا فــى المَنــامِ رأيتُهــا　　　فكانَ أخى رُمْحاً تَرَفَّضَ عامِلُهْ» [6].

---

(١) ديوان حسان – ت . د. سيد حنفي حسنين ص ٢٢١ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٠٩ .

(٣) السيرة النبوية ــ المجلد الثانى ص ٣٨٨ .

(٤) شرح الحماسة للتبريزى جـ ٣ ص ١٠٩ .

(٥) الوحشيات ص ٢٦ .

(٦) أمالى اليزيدى ص ٣٢ .

ويبدو أثر القرآن الكريم فى اقتباسهم لبعض صوره. وهذا الاقتباس أكثر من أن يحصى أو يعد . ومنه على سبيل المثال قول حسان :

«رءوفٍ على الأدنى غليظٍ على العدا   أخى ثِقةٍ فى النّائباتِ نَجيبِ» (١).

وهى صورة تقابلية ينظر فيها إلى قول الله عز وجل : ﴿أشدّاءُ على الكفّارِ رُحَماءُ بينهم﴾ (٢) وقوله : ﴿أذِلّةٍ عَلَى المُؤْمِنِينَ أعِزّةٍ عَلَى الكَافِرِينَ﴾ (٣).

وقول عمرة بنت دريد فى رثاء أبيها :

«فرُبَّ عَظيمةٍ دافعتَ عنهم   وقد بَلغتْ نُفوسُهمُ التّراقى» (٤).

وهى تفيد فى الشطرة الثانية من آية القيامة : ﴿كلا إذا بَلغت التّراقىَ﴾ (٥) والأحزاب: ﴿....وبَلغت القُلوبُ الحَناجرَ﴾ (٦). والاقتباس من الأولى أوضح حيث تحافظ على بعض ألفاظها . إلا أنها تشير إلى الخوف ـــ لا إلى الموت فى حد ذاته ـــ والتعبير عن الخوف بتلك الصورة مع اختلاف اللفظ تتضمنه الآية الثانية التى تتحدث عن يوم الخندق وما كان فيه من الأحداث .

وقول عمار بن ياسر فى بعض قتلى صفين :

«إنّهم عندَ ربِّهم فى جنانٍ   يَشربون الرّحيقَ والسّلْسَبيلا

مِن شَرابِ الأبرارِ خالطَه المِسْـ   ـكُ وكأساً مِزاجُها زَنْجَبيلاً» (٧).

---

(١) ديوان حسان بن ثابت ت . سيد حنفى حسنين ص ٢١٢ .

(٢) الفتح من الآية ٢٩ .

(٣) المائدة من الآية ٥٤ .

(٤) السيرة النبوية ـــ المجلد الثانى ص ٤٥٤ . والدر المنثور ص ٣٥١ .

(٥) الآية ٢٦ .

(٦) من الآية ١٠ .

(٧) وقعة صفين ص ٣٢٠ .

وواضح أنه يستعير الصورة كاملة مع الاحتفاظ بأكثر ألفاظها من قول المولى عز وجل: ﴿ويُسْقَون فيها كأساً كان مِزاجُها زَنْجَبيلاً عَيناً فيها تُسَمَّى سَلْسَبيلاً﴾ (١).

ويعمد إلى التقديم والتأخير فى بعض أطراف الصورة . وقد دفعه الوزن إلى حذف «كان» من الشطرة الأخيرة وعلى الرغم من هذا فقد احتفظ بكلمة «زنجبيل» منصوبة كما جاءت فى الآية وإن اختلف التفسير النحوى فى كل .

ويعبر حسان بن ثابت عن الموت بالذوق فى قوله :

«قد ذاقَ حمزةُ سيفُ اللّهِ فاصْطِبِرى كأساً رُواءً ككأسِ المَرْءِ شَمّـاسِ» (٢).

كما يعبر عنه آخر بقضاء النحب فى رثائه لقتلى مؤتة :

«قَضَوا نَحْبَهم لما مَضَوا لسَبيلِهم وخُلِّفتُ للبَلْـوى مـعَ المُتَغـبِّرِ» (٣).

وكلاهما يستمد من القرآن الكريم فى مثل قوله : ﴿كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموتِ﴾ (٤) ، و﴿مِن المؤمِنينَ رجالٌ صَدَقوا ما عاهَدوا اللّهَ عليه فمنهم مَن قَضَى نَحْبَهُ ...﴾ (٥).

ونلاحظ أنهم يتصرفون — على تفاوت بينهم — فيما يتقبسونه بالزيادة حيناً والتفصيل حيناً والاختصار أو الإيجاز والحذف حيناً ثالثاً . وهذا التصرف قد لاحظناه من قبل فى اقتباسهم للمعانى والأفكار . وهم في كلٍّ إنما يعربون عن مدى شغفهم بالقرآن الكريم وتغلغله فى وجدانهم وافتتانهم به وبأساليبه وبيانه .

---

(١) الإنسان الآية ١٧ ، ١٨ .

(٢) ديوان حسان بن ثابت ت . د . سيد حنفى حسنين ص ٣٩٠ .

(٣) السيرة النبوية — المجلد الثانى ص ٣٨٨ .

(٤) آل عمران من الآية ١٨٥ .

(٥) الأحزاب من الآية ٢٣ .

في الموسيقى والأوزان

١ ـــ يتصدر البحر الطويل جملة البحور المستخدمة ، وتبلغ نسبته (٤٠٪) يليه الكامل (١٦,٥٪) فالبسيط (١٣,٥٪) فالوافر (٨,٥٪) فالخفيف (٦,٥٪) فالمتقارب (٥,٥٪) والرجز (٥,٥٪)[1].

وتشكل هذه البحور السبعة ستة وتسعين في المائة . أي جملة ما وصلنا تقريباً من رثاء. أما الأربعة في المائة المتبقية فيتوزعها السريع والرمل والهزج . وهذا البحر الأخير لم يستخدم إلا مرة واحدة، وقد جاء فيها مجزوءاً. كما استخدم السريع مجزءاً مرة كذلك ، والرجز مرة ، والوافر مرة والكامل خمس مرات . وفيما عدا ذلك نراهم يميلون إلى استخدام البحور في صورتها التامة . وهي بحور متنوعة ، منها ما يغلب عليه صفة الطول وبطء الحركة كالطويل وهو الشائع منذ القدم، وفيه كما يقولون متسع لامتداد المعاني في البيت الواحد وحشد أكبر قدر منها بما يتناسب ـــ في تصوري ـــ واتجاه الرثاء نحو السياسة والمذهبية ؛ حيث ينصب الاهتمام غالباً على الأفكار، ويسعون كثيراً للإقناع بها ، ويناقشون ، وينقضون ، ويدافعون ، ويحتجون ، ويشيدون، ويتهمون، فتطول الجملة ويمتد المعنى. ومثل هذه الجمل وتلك المعاني تحتاج ـــ لكيلا تخرج من بيت إلى آخر قبل أن تتم فيه على نحو يجنبهم الوقوع في التضمين ـــ إلى بحر كهذا البحر. وهو من جهة أخرى يمثل الفخامة ويصلح من ثم للإنشاد في المجامع والمحافل ، وتهوى إليه النفوس لكثرة تردده على المسامع منذ الجاهلية وما صاغه فيه الفحول من لدن امرئ القيس وأضرابه حتى المخضرمين كلبيدوحسان.

ومن البحور كذلك ما يغلب عليه السهولة والسلاسة والليونة كالخفيف وإن قل

---

(١) راعينا عدد المرات التي يستخدم فيها البحر لا الأبيات ؛ لأن مراثي كثيرة ـــ كما ذكرنا من قبل ـــ لم تصلنا كاملة ، ومراثي أخرى يختلف عدد أبياتها من مصدر إلى آخر . فتزيد في بعضها وتنقص في بعضها، وتفتقد تبعاً لذلك قدرتها على الإبانة الدقيقة عن الاتجاه .

استخدامهم له. ومنها بحور ذات تفعيلة واحدة كالكامل والمتقارب والرجز والرمل والهزج وتشكل (٣٧٪) ، ومنها ذات تفعيلتين كباقى البحور وتبلغ نسبتها (٦٣٪) يتصدرها الطويل — كما ذكرت — وتزيد نسبته وحده على نسبة البحور ذات التفعيلة الواحدة مجتمعة .

أما القافية فقد جاءت بأنواعها الثلاثة على هذا النحو :
المتوافرة (ـ٥ـ٥) : (٤٥,٥٪) منها أربع مرات (ـ٥٥).
والمتدارك (ـ٥ـ ـ٥) : (٤٦,٥٪).
والمتراكب (ـ٥ـ ـ ـ٥) وهو أقلها استخداماً وأشدها فى تصورى صعوبة وأكثرها ثقلاً: (٨٪).

وبلغت جملة الحروف المستخدمة في الروى سبعة عشر حرفاً . يتقدمها الراء (١٧,٥٪) فاللام (١٥,٥٪) ثم الدال (١٢,٥٪) فالباء (١١,٥٪) فالنون (٨٪) فالعين (٧٪) فالميم (٦٪) وتشكل هذه الحروف السبعة ثمانية وسبعين في المائة. أما باقى الحروف وهى بالترتيب :

القاف (٤,٥٪) الياء (٣,٥٪) الفاء (٢,٥٪) الحاء (٢٪) الجيم (٢٪) السين (٢٪) الهمزة (٢٪) الكاف (١,٥٪) الألف (١٪) التاء (١٪) فتشغل الاثنين والعشرين فى المائة المتبقية . وتكاد الراء وحدها تبلغ جملة هذه الحروف التى قل استخدامهم لها مجتمعة .

وهناك قصائد ومقطوعات كنا نلاحظ أنهم يتصنعون لها الروى ليناسب اسم المرثى أو لقبه أو كنيته. ومنها ميمية حسان فى المطعم بن عدى[١] وعينيته فى رافع ونفيع[٢] ، وبائيته فى خبيب[٣] ، وداليته فى خالد بن أبى البكير[٤] ، وسينيته فى

(١) ديوان حسان ت . د . سيد حنفى حسنين ص ٢٤٣ ، ٢٤٤ .
(٢) المصدر نفسه ص ٢٤١ ، ٢٤٢ .
(٣) المصدر نفسه ص ١٧٣ ، ١٧٤ .
(٤) المصدر نفسه ص ٣٨١ .

شماس بن عثمان بن الشريد المخزومي[1] ، وداليته في النبي صلى الله عليه وسلم[2] . ومنها كذلك ميمية عبد الله بن الزبعرى في الحكم بن هشام[3] ، وكافية متمم بن نويرة في أخيه مالك[4] ، ورائية الحجاج بن غزية الأنصاري في عمار بن ياسر[5].

وقد جرتهم القافية إلى شيء من التساهل في نطق الاسم أو الكنية أو اللقب؛ فخُبَيْبٌ بالتصغير ينطق في بائية حسان (خَبِيب) على صيغة المبالغة ، وعمر بن الخطاب ينطق (عَمْراً) في رائية الحطيئة [6] . وبعض الروي فُرض عليهم فرضاً نتيجة النقض. لكن هذا وذاك لاينفي أن هناك حروفاً شاع استخدامها في الروي لانسجامها مع طبيعة الرثاء وجو الحزن الذي يسيطر على الشاعر فيه. ومنها الراء بترددها على طرف اللسان عند النطق بها فتولد في آخر البيت ما يشبه الصدى بعد الصمت، لكنه الصدى الذي يبعث المرارة ويشيع الحسرة ويظل ينكأ في الجرح . والسين — وإن قل كثيراً عن الراء — في الهمس والخفوت وما يشيعانه من الإحساس بالضعف والتدني والانكسار وفي (التنفيس) عما يتراكم في النفس من المواجع والأحزان . والباء الذي يشبه إلى حد بعيد صوت الانفجار وخصوصاً حين يجيء بعد حرف ساكن أو مد .

والذي أتصوره أن استخدامهم لهذه الحروف في الروي ليس خاضعاً لصفات معينة فيها ؛ فالحرف الواحد يعطي عدة أصوات، ويختلف جرسه من سياق إلى آخر، وتختلف من ثم دلالته . والحكم له أو عليه يكون بمدى انسجامه مع عناصر الإيقاع الأخرى وملاءمته للعاطفة السائدة والإحساس العام. وقد جاء في بعض

---

(١) ديوان حسان ت.د. سيد حنفي حسنين ص ٣٩٠ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣٧٧ : ٣٨٠ .

(٣) شعر عبد الله بن الزبعرى ص ٤٦ ، ٤٧ .

(٤) الأمالي لأبي علي القالي (دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٦م) جـ ٢ ص ١١ .

(٥) مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٩٢ .

(٦) ديوان الحطيئة ص ٢٩٨ .

الأحيان تصنعاً ـــ كما أشرت ـــ ومسايرة لقصائد أخرى سابقة كما هى الحال فى النقائض وما تمليه تقاليدها من اتباع الثانى للأول في الوزن والقافية والروى . وقصارى ما يمكن قوله هو أنهم نوعوا فى الروى تنويعاً واسعاً يدل عليه كثرة الحروف المستخدمة، وأن هذا التنوع يدل بلا أدنى ريب على الغنى والثراء ، وأنهم كما نوعوا فى الحروف نوعوا كذلك فى الحركات . ونشير أيضاً إلى أنهم كانوا يؤثرون القوافى المتحركة وإن أشبعوها بالمد والإطلاق وألحقوا بها فى بعض الأحيان هاء السكت وضمائر لاتصلح أن تكون روياً كألف الاثنين . ونسبة هذه القوافى المتحركة(٩١,٥٪) تتوزعها:الكسرة، وهى تجىء فى المقدمة(٤٧٪)،ثم الضمة (٣٠٪) ثم الفتحة(٢٣٪). أما القوافى الساكنة فتبلغ (٨,٥٪) فقط من المجموع الكلى.

وتلفتنا بعض الأخطاء المتعلقة بالقافية كالإقواء والإكفاء [(١)]، لكثرتهما. والتضمين [(٢)] لما يمثله فى تصورى من رغبة فى اجتياز الفكرة القائلة بوحدة البيت وضرورة استقلاله وتطلعهم إلى وحدة أرقى تنسجم وما حققوه فى كثير من تجاربهم من وحدة الموضوع والعاطفة والفكر .

* * *

٢ ـــ ثمة مجموعة أخرى من العناصر ـــ غير القافية والوزن ـــ تثرى الجانب الموسيقى ، ويتولد عنها نغم خاص داخل النص ومنها السجع وحسن التقسيم

---

(١) الإصابة (القاهرة سنة ١٣٢٥هـ)جـ ٢ ص ١٨١/ تاريخ الطبرى جـ ٣ ص ٥٥٩/ السيرة النبوية ـ المجلد الأول ص ٦٤٨ ، والثانى ص ٢٦٧/ شرح الحماسة للتبريزى جـ ٢ص٢٩٣.

(٢) الأشباه والنظائر جـ ٢ ص ٣٤٨ ب ١٥ : ١٧ / الأغانى جـ ٢٢ ص ١٥٤ ب ٢ : ٤ / ديوان حسان ص ١١٤ ب ٨ ، ٩ وص ٢١٢ رقم ١٠٤ المرثية كلها تقريباً وهى أوضح النماذج التى بين أيدينا . وص ٢٢٦ ب ١ ، ٢ وص ٢٤٤ ب ٥ ، ٦ / السيرة النبوية لابن هشام ـــ المجلد الثانى ص ٢٧ ، ٢٨ ب ٨ ، ٩ وص ٢٣٣ ب ٧ ، ٨ وص ٦٣٦ ب ١ :٣/ شرح الحماسة للتبريزى جـ ٢ ص ٢٩٣ ب ٥ ، ٦ ومواضع أخرى عديدة .

والجناس والتردد والتكرار والرصف والإشباع والإرصاد .

أ ـــ السجع : وهو اتفاق أواخر الكلمات كالندى والمدى فى قول حسان:

«أخى ثِقةٍ يَهــتزُّ للعُــرْفِ والنَّدَى بَعيدِ المَدى فى النّائباتِ صَبورِ» [1].

و «طاوعتم» و «كنتم» و «شئتم» فى قوله أيضاً :

«طاوعتـمُ فيــه العـدوَّ وكنتمُ لو شِئتمُ فى مَعْزِلٍ وقرارِ» [2].

وينشأ هنا من تكرار الضمير فى آخر الكلمات الثلاث .

ويرتبط بالسجع على نحو ما حسن التقسيم ونلمحهما فى قول حسان :

«طَويــلِ النِّجـادِ / رَفيـعِ العِمادِ / مُصاصِ النّجارِ / مِن الخَـزْرَجِ» [3].

وقوله :

«عــفٌّ مكاسبُه / جَــزلٌ مَواهبُه / خـيرُ البَرِيّةِ سَمحٌ غيرُ نكّالِ» [4].

ويجىء التـقسيم منفـرداً أو خالياً من السجع مـعتمـداً فقط على الاتسـاق بين الكلمات والتلاؤم في الطول بين الجمل فى قول كعب بن مالك الأنصارى :

«جَــرىء المُقـدَّمِ / شاكِى السِّلاحِ / كَــريمِ النَّثــا / طَيِّـبِ المَكْسِرِ» [5].

وقول نعم امرأة شماس :

---

(١) ديوان حسان بن ثابت ت . د . سيد حنفى حسنين ص ٢١٩ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢١٥ .

(٣) المصدر نفسه ص ١١٣ .

(٤) المصدر نفسه ص ٢٠٧ . ضمن أبيات جزم العـدوى بكونها مصنوعة ، وهى فى الطبقات الكبـرى (جـ ٢ ص ٩٢) من رواية أبى عمـرو الشيبـانى . وعلى الرغم مما قـد يعتريها من الشك إلا أنها تسير فى الاتجاه الذى يؤكد ـــ فى رأيى ـــ الظاهرة .

(٥) ديوان كعب بن مالك ص ٢٠٢ .

«صَعبِ البَديهةِ / مَيمونٍ نَقيبتُه/ حَمّالِ ألوِيَةٍ / رَكّابِ أفراسِ» (١).

وهذا التقسيم الرائع للبيتين يولد — مع خلوهما من السجع — موسيقى لاتقل جمالاً عن تلك التى يولدها السجع . لكن التقاءها لاشك يعطى ثراء أكثر ويكون تأثيرهما أشد. وهما — منفصلين أو مجتمعين — مما اعتمدوا عليه كثيراً وتصنعوه وتكلفو له.

ب — الجناس : وهو أيضاً مما تكلفوه وبدت آثار الصنعة فيه واضحة . ويجىء أغلب ما يجىء ناقصاً بين الاسم والفعل كقول أبى عفك وهو أحد المنافقين :

«فلو أنَّ بالعِزِّ صَدَّقتمُ أو المُلْكِ تابَعتمُ تُبَّعا »(٢).

وقول جبل بن جوال من شعراء يهود :

«وبُدِّلتِ المَوالِى مِن حُضَيرٍ أُسَيداً والدَّوائرُ قد تدورُ» (٣).

وبين الاسم والاسم كقول كعب بن مالك :

«يريدُ بذاك رِضا أحمدٍ ورِضْوانَ ذى العَرشِ والعِزَّةِ» (٤).

وقول متمم فى أخيه :

«وإنْ جاءَ طارى اللَّيلِ يَخْبِطُ طارقاً تَهلَّلَ مَعْروفٌ خَلائقُه جَزْلُ» (٥).

وقول المهاجر بن خالد بن الوليد :

«طَعْناً وطاعوناً مَنايـاهمُ ذلك ما خَطَّ لنا الكاتبُ» (٦).

---

(١) السيرة النبوية — المجلد الثانى ص ١٦٨ .

(٢) السيرة النبوية — المجلد الثاني ص ٦٣٦ .

(٣) المصدر نفسه ص ٢٧٣ .

(٤) ديوان كعب بن مالك ص ٢١٦ .

(٥) الأشباه والنظائر جـ ٢ ص ٣٥٠ .

(٦) تاريخ الطبرى جـ ٣ ص ٦٥ .

وبين الفعل والمفعول المطلق وهو كثير جداً ، ومنه على سبيل المثال قول أم سعد ابن معاذ فى رثاء ابنها سعد رضى الله عنه :

«سُـــدٌ بـه مَسَـــدّاً يَقُدُّ هاماً قَـدّاً» (1).

وهى أشبه ما تكون بالنوح و (العديد) . ومما جاء كاملاً — وهو قليل — قول هند بنت عتبة:

«فقد كان حَرْبٌ يَسْعَرُ الحربَ إنَّه لكلِّ امْرِئٍ فى النّاسِ مَوْلًى يُطالِبُه» (2).

وتعنى بحرب الأولى والد أبى سفيان .

جـ — التكرار : ويجىء فى صور عدة مثلنا لها فى جانب اللغة ، ومنها تكرار شطرة كاملة، وجملة، وكلمة ، وحرف . ومنها — وهو ما نضيفه ههنا — تردد مقطع بعينه كهاء الغيبة فى قول حسان :

«خيرَ البَرِيَّـةِ أتقاهـا وأعدلَهـا بَعدَ النَّبِىِّ وأوفاها بما حَمَلا» (3).

وواو الجماعة فى قوله أيضاً :

«صـلّى الإلـهُ على الّذين تَتابعـوا يـومَ الرَّجيعِ فأُكرِموا وأُثيبوا» (4).

وهو يذكرنا بالسجع لتواجده فى آخر تلك الكلمات .

ومنها تردد صيغة من صيغ الصرف كصيغة «مُتَفَعِّل» فى قول جواس بن قطبة:

«مُتَمـرِّعٌ وَرِعٌ وليـسَ بما جِـدٍ مُتَملِّـحٌ وحَديثُـه مَقبـوحٌ» (5).

---

(1) السيرة النبوية — المجلد الثانى ص ٢٥٢ .

(2) المصدر نفسه ص ٣٩ / وشرح ديوان الخنساء ص ١٨٨ .

(3) ديوان حسان ت . د . سيد حنفى حسنين ص ٢١١ .

(4) المصدر نفسه ص ١٧٣ .

(5) الأغانى جـ ٢٢ ص ١٥٥ .

وصيغة «فاعل» فى قافية قصيدة كاملة تبلغ تسعة عشر بيتاً لحسان بن ثابت فى رثاء حمزة رضى الله عنه (1).

ومنها كذلك تردد حرف من حروف الهجاء كالعين :

«لَعَمْرِى وما عَمْرِى بتأبينِ مالكٍ ولاجَزَعاً مما أصــابَ فأوجعـا» (2).

والهاء : «فأوْجـرَه حَـرْبةً كالشِّـهابِ تلهَّـبُ فـى اللَّهَــبِ المُوهَــجِ» (3).

والسين : «اقْنِى حَياءَكِ فى سِتْرٍ وفــى كَرَمٍ فإنَّمـا كـان شَـمَّاسٌ مِن النَّـاسِ

قد ذاقَ حمزةُ سَيفُ اللَّهِ فاصْطَبِرى كأساً رُواءً ككأسِ المَرءِ شَمَّاسِ» (4)

والصاد والباء:

«إذا صَوَّتَ الأصْداءُ صَوَّتَ وَسْطَها فَتىً تَغْلِبىٌّ فى القَليبِ غَريبُ» (5).

ومنها تردد الحركات كالضمة :

«على أسَــدِ الإلــهِ غداةَ قالوا أحمزةُ ذاكمُ الرَّجلُ القَتيلُ؟» (6)

وتتابع التنوين:

«كَلَيثٍ بِــتَرْجٍ حَمــى غِيلَــه أخى غايــةٍ هاصِرٍ أجْـوَفِ» (7).

والمــد :

«كأنِّــى حــينَ أمسِــى لا أراه ضَعيفُ العَقْدِ ذو هَمٍّ طَويلِ» (8).

---

(1) ديوان حسان ت . د . سيد حنفى حسنين ص ٢١٩ : ٢٢١ .

(2) الأشباه والنظائر جـ ٢ ص ٣٤٧ .

(3) ديوان كعب بن مالك ص ١٨٨ .

(4) ديوان حسان بن ثابت ت . د . سيد حنفي حسنين ص ٣٩٠ .

(5) الأغانى جـ ٢٢ ص ٢٣٣ .

(6) شعر عبد الله بن رواحة ص ٩٨ .

(7) السيرة النبوية ـــ المجلد الثانى ص ١٩٨ .

(8) المصدر نفسه ص ٢٨ .

د ـــ ومن الملاحظ كذلك أنهم يميلون إلى إشباع الميم كثيراً في ضميرى الغيبة والخطاب الدالين على الجمع ويتولد عن هذا الإشباع نوع من التنغيم والامتداد يثريان بدورهما الإيقاع . وقد وقفت في مراثى حسان وحده على أكثر من عشرين موضعاً في حشو الأبيات ، غير ما كان يجيء في العروض والضرب . ومن هذه المواضع:

-«طاوعتـــمُ فيــه العــدو وكنتــمُ   لو شِئتمُ في مَعْزلٍ وقَـــرارِ» (١).

-«أتركتمُ غَــزْوَ الــدُّروبِ وجئتمُ   لقتالِ قومٍ عند قبرِ محمَّـــدِ»؟ (٢)

-«إنّــى أرى لهـــمُ رأياً سيُهلِكُهــمْ   وفِتْيةً لم يُصيبوا فيهمُ البَصرا» (٣).

وعند غيره ، في حركة الفتح :

-«وما لُمتُ نَفسِي فيهـــمُ غـيرَ أنَّها   لها أجـلٌ لـم يأتِها وهْو آجِـلُ» (٤).

-«حَطَطْناهمُ منها وقد كاد عَرْشُهمْ   يَميلُ بهم فِعْلَ الجَبانِ المُخالِفِ» (٥).

وفي الفتنة الكبرى:

«فكيفَ رأيت اللّهَ صَبَّ عليهمُ العَداوةَ والبَغْضاءَ بَعدَ التَّواصُلِ»؟ (٦)

وفي مراثى الخوارج :

«همُ فارقوا في اللّهِ مَن جارَ حُكْمُه   وكـلٌّ عَن الرَّحمنِ أصبحَ راضِيا

....

تَذكَّرتُ زَيـــداً منهمُ وابنَ حاتِـــمٍ   فتىً كان يومَ الرَّوعِ أروعَ ماضِيا» (٧).

(١) ديوان حسان بن ثابت . ت . د . سيد حنفى حسنين ص ٢١٥ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢١٦ .

(٣) المصدر نفسه ص ٢١٧ .

(٤) ديوان أبي محجن الثقفى ص ١٥ .

(٥) شعراء إسلاميون ص ٤٢ .

(٦) ديوان كعب بن مالك ص ٢٦٤ .

(٧) ديوان شعر الخوارج ت . د . إحسان عباس ص ٤٥ ، ٤٦ .

فهى ظاهرة عامة لم تقف عند حسان فحسب . ونلاحظ أنها تجىء أكثر ما تجىء بعد الجر والإضافة . ولعلهم قد تأثروا فيها بالقرآن الكريم فى بعض قراءاته ؛ حيث شاعت أكثر ما شاعت عند شعراء المسلمين . أو لعلها لهجة من اللهجات استساغوها فراحوا يقيمون بها أوزانهم ويثرون بها من ناحية أخرى الإيقاع .

هـ ـــ الرصـــف : وهى سمة قديمة لازمت الشعر العربى منذ العصر الجاهلى ، استغلها الشعراء الإسلاميون استغلالاً واسعاً، وبان من وراء هذا الاستغلال رغبتهم فى إثراء الموسيقى الداخلية للنص؛ حيث تتتابع مجموعة من الصفات أو الأخبار يغلب عليها السجع واتفاق الوزن الصرفى فى نسق واحد دون عطف بينها بالواو ونحوه، مما يضفى عليها ـــ بالإضافة إلى (الموسقة) ـــ شيئاً من السرعة ، بغض النظر عن المعنى وإن كان الشاعر قد أجاد فيه أو أساء .

وهذا الحشد للصفات أو رصفها على هذا النحو نلمحه فى قصيدة أمية بن أبى الصلت [1]، التى قيل إن النبى صلى الله عليه وسلم كان ينهى عن روايتها ومنها :

-«شُمُطٍ وشُبَانٍ بَهالِيـــلٍ مَغاويـرٍ وَحـاوحْ»

-«مِن السَّراطِمةِ الخَلاجِمـةِ المَلاوِثـةِ المَناجِحْ

القائلـــينَ الفاعلـــينَ الآمِريـــن بكلِّ صالـحْ»

-«بالمُقْرَبات المُبْعَدات الطَّامِحات معَ الطَّوامحْ».

وهو يكثر فيها – إضافة إلى هذه الخاصة – من التدوير والتضمين فيزيدها سرعة ويجعل منها على طولها قطعة واحدة ذات نفس طويل .

وفى رثاء حسان لعثمان رضى الله عنه :

«يا قاتَلَ اللهُ قومـاً كان شـــأنُهــــمُ   قَتلَ الإمامِ الأمينِ المُسلِمِ الفَطِنِ». [2]

---

(١) السيرة النبوية ـــ المجلد الثانى ص ٣٠ . وهى بالعقد الفريد جـ ٣ ص ٣٠٠ : ٣٠٢ والبيت الأول منها بالأغانى (ط . الدار) جـ ٤ ص ١٥٢ .

(٢) ديوان حسان بن ثابت ت . د . سيد حنفى حسنين ص ٢١٣ .

وفى رثاء كعب لحمزة :

«كحمزةَ لَمّا وَفَى صادِقاً ... بذى هَبَّةٍ صارمٍ سَلْجَجٍ» [1].

وفي رثاء ابن رواحة له كذلك :

«أبا يَعْلى لكَ الأركانُ هُدَّتْ ... وأنتَ الماجدُ البَرُّ الوَصولُ

....

ألا يا هِندُ فابكِي لاتَمَلِّي ... فأنتِ الوالهُ العَبْرى الهَبولُ». [2]

وقد يستخدمون العطف بين الصفات ومنه قول إحدى النساء :

«يَقودُهمُ عامِرٌ ذو الشَّقاءِ ... وذُو الفَتْكِ والغَدْرِ والمُنْكَرِ».[3]

وقول حسان :

«لقد غَيَّبوا حِلْماً وعِلْماً ورَحمةً ... عشيَّةَ عَلّوهُ الثَّرى لايُوَسَّدُ». [4]

و ـــ الإرصاد : وهو توقع الكلمة الأخيرة فى البيت بالتمهيد لها فى الحشو، بواسطة الترادف أو التضاد أو الإفراد والجمع أو غيرها من الصور والأساليب التى تجعلنا ننطق بها قبل الوصول إليها. وهى أثر من آثار الخطابة والإلقاء وجد فيه شعراء السياسة ـــ وبعضهم خطباء ـــ نوعاً من المشاركة والاتصال وجذب الانتباه لما يقولون فأكثروا منه فيما نحن بصدده من رثاء . ومنه قول حريث بن زيد :

«فلا تَجزعى يا أمَّ أوْسٍ فإنَّه ... يُلاقِى المَنايَا كلُّ حافٍ وذِى نَعْلِ».[5]

وقد مهد له بالتضاد . ومثله قول حسان :

« أوحَلَّ أمرُ اللّهِ فينا عاجلا ... في رَوحةٍ مِن يومِنا أو في غَدِ »[6]

---

(١) ديوان كعب بن مالك ص ١٨٨ .

(٢) شعر عبد الله بن رواحة ص ٩٩ .

(٣) ديوان حسان بن ثابت ت . د . سيد حنفى حسنين ص ٢٣٣ .

(٤) ديوان حسان بن ثابت ت . د . سيد حنفى حسنين ص ٣٧٨ .

(٥) الأغانى جـ ١٧ ص ٢٦٩ .

(٦) ديوان حسان بن ثابت ت . د . سيد حنفى حسنين ص ٢٠٩ .

وقوله في القصيدة نفسها وقد مهد له هذه المرة بالشرط :

« نـــورٌ أضاءَ علَى البَرِيَّةِ كلِّها   مَن يُهْدَ للنُّور المُبـــارَكِ يَهتَدِ »

وقوله في رثاء عثمان :

« يا أيُّها النّاسُ أبْدوا ذاتَ أنفُسِكم   لا يَستوي الصدِّق عندَ اللّهِ والكَذِبُ

إلاَّ تُنيبوا لأمـرِ اللّــهِ تَعْترفــوا   كتـائباً عُصَباً مِـــن خَلفِها عُصَـبُ »[1].

وهو يمهـد في البـيت الأول بنفي الاســتـواء بين مـذكـور وهو الـصدق ونقيضـه الذي لا يخطـئ من لـه أدنى قدرة على التـفكير في استنتـاجه . كـما يمهـد في البـيت الثـاني بالتكـرار الـذي يوحي بالكثـرة في معـرض الـتهـديد والوعيد ، فـالكتــائب ليست عصباً فحســب ، وإنما عـصب تتلوهــا عصــب . أما ابن الزبعـرى فيمهد للأعمام بكلمــة تكـاد تلازمهــا وهـي « الأخـــوال » [2]. ويمهد متـمم بن نويرة بالمفــرد للجمع [3] :كـمـا يمهـد في مـوضـع آخر بالتضـاد بيــن الــ « شـرب » والــ « أكـل » [4] وهـذه الصورة الأخـيرة ـ استخـدام الضد ـ تتكرر في شعر غيـره ، وتبرز من بين الأساليب التي اتكأوا عليها كثيراً في التمهيد والإرصاد [5] .

---

(١) شعر عبد الله بن الزبعرى ص ٤٧ .

(٢) ديوان حسان بن ثابت ـــ ت . د . سيد حنفي حسنين ص ٢١٢ ، ٢١٣ .

(٣) الأشباه والنظائر جـ ٣ ص ٣٤٩ .

(٤) المصدر نفسه ص ٣٥٠ .

(٥) ديوان حسان ص ٢١٢ ب ٤ ، ص ٢١٩ ب٧ ، ص ٢٢١ ب ١٤ ، ص ٢٢٢ ب٥ : ٧ ، ص ٢٢٣ ب ٤ ، ص ٣٧٨ ب ١٩ . السيـرة النبـوية ـــ المجلد الثـاني ص ٢٥ ب ٤ ، ص ١٣٨ ب ٤ ، ص ١٥٦ ب ٢ ، ص ٢٦٦ ب ٦ . شعـراء إسلاميـون ص ٥٠٩ ب ٤ . ومواضع أخرى عديدة .

خـــاتمـــة

رأى هذا البحث أن الرثاء قد أصابه غير قليل من التطور والتغيير في صدر الإسلام نتيجة ارتباطه بالصراعات السياسية والمذهبية ، فقد أقام الإسلام دولة بدأت في حياة النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، ونمت وتطورت في حياة الخلفاء الراشدين . ودخلت هذه الدولة منذ قامت وفي مراحل نموها المختلفة في صراعات عديدة ، ثم ظهرت الأحزاب . ورأينا في ثنايا ذلك كيف غير الإسلام كثيراً من المفاهيم ، وأرسى نظرة جديدة إلى الوجود والموت وما بعده من حياة أخرى وبعث ونشور وحساب وجزاء وخلود ، على النقيض مما كان يعتقده الجاهليون . وقد كان لتلك النظرة أثر واضح فيما صاغه الشعراء المسلمون من رثاء، فقد ترددت على ألسنتهم معان جديدة أخذت فى الظهور على استحياء منذ بدأ الصراع مع المشركين فى مكة والمدينة ثم ازدادت مع الأيام وضوحاً وكثرة وعمقاً .

كان الصراع فى تلك الفترة الباكرة يرتكز على الدين باعتباره عقيداً ومنهجاً ، ومن أجل هذا الدين كانت هجرة النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، وكانت بدر وأحد والخندق ، وهى المعارك التى دارت بين الدولة المسلمة الناشئة فى المدينة وكفار قريش وأصحاب الزعامة الدينية فى مكة ، وهى التى أذكت الشاعرية القرشية وأوجدت مجموعة أخرى من الشعراء يذودون عن الإسلام ويدافعون عنه . ،وتمثل تلك المعارك الحلقة الأولى من حلقات الصراع فى عهد النبوة ، وقد صدرت عنها مراث كثيرة تتأرجح بين الطرفين مع تأرجح النصر والهزيمة . وكان الرثاء فى تلك الحلقة يسير فى اتجاهين ؛ اتجاه تقليدى هو امتداد للرثاء في العصر الجاهلي ، ويمثله أصدق تمثيل شعراء قريش ومن آزروها . واتجاه تجديدى يستمد معانيه وأفكاره من الحياة الإسلامية الجديدة ويتأثر في صياغته وأساليبه بالقرآن الكريم . وإن كان هذا الاتجاه أقل وضوحاً لأنه كان لا يزال في بدايته أو بالأحرى في طور الطفولة . وكلا الاتجاهين قد تأثر بالصراع السياسي تأثراً كبيراً ، لا من حيث كونه وليد هذا الصراع فحسب بل لما كان فيه كذلك من تمجيد للقتلى

وتعظيم للغايات التي ماتوا من أجلها ، ووصف للقتال ، وفخر واعتذار ، وحض على الثأر واستنهاض ، وإبراز للنتائج التي خلفتها المعارك في كلا الطرفين ، ورسم صور مثالية لذوي المكانة البارزة فيهم ، وتعيير الآخرين ، وإظهار الشماتة بهم . فهو إلى جانب كونه وليد هذا الصراع قد صار في الوقت نفسه باعثاً عليه ، وتحول تبعاً لذلك من الإطار المحدود الذي كان يتحرك فيه من قبل وهو الإطار الفردي ــ غالباً ــ والقبلي ــ في بعض الأحيان ــ إلى المجال السياسي العام بما فيه من رحابة واتساع .

ويأتي الصراع مع اليهود لحلقة ثانية في عهد النبوة ، وهو يبدأ ــ أو تتضح صورته ــ بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، ويزداد وضوحاً بعد مؤازتهم لقريش ونقضهم للعهد وتأليبهم للقبائل ومحاولتهم ضرب الأوس بالخزرج والخزرج بالأوس . ومع احتمال ضياع كثير من رثاء اليهود في تلك الفترة إلا أن ما وصلنا منه يكفي لتسجيل بعض وجوه الصراع بينهم وبين المسلمين واستخلاص ملامح عامة . وفيه نرى ما حل بهم من ضعف وما أصابهم من تفكك وتعرضوا له من نفي . والمخاوف التى كانت تعتريهم إزاء الدولة الناشئة ووقوفهم في وجهها بطرق كثيرة ؛ منها ما هو ملتو كمشاركة كفار قريش في بكاء قتلاهم يوم بدر ومحاولة التقليل من شأن النصر الذى حققه المسلمون في ذلك اليوم ، ومنها ما هو صريح كالتشكيك في الإسلام وإظهار الشماتة والهزء به وبأهله بعد أحد وإماطة اللثام عما كانوا يضمرونه في أنفسهم من عداوة وتعبئتهم للقبائل المعادية للإسلام ونقضهم لما قطعوه على أنفسهم من عهود وخيانتهم لله ورسوله وإشعال الحزازات القديمة بين طوائف المسلمين في الخندق وما تلاه . وقد جاءت مراثيهم - في الأغلب الأعم - ناطقة باسم الجماعة ، وكانت تطل منها في بعض الأحيان روح ساخرة ، بينهما تطفح في أحايين كثيرة بالحقد والمقت والغيظ. وقد حرصوا في رثائهم لأحبارهم وذوى المكانة فيهم على تبرير مواقفهم وإضفاء هالة من التعظيم عليهم ، والنيل قدر المستطاع من الإسلام وأهله . بينما ندد شعراء المسلمين بقتلى يهود

ورموهم بالغدر والخيانة في رثائهم لسعد بن معاذ ، وذكروا لسعد مواقفه الرائعة مع هؤلاء اليهود وموافقة حكمه في بعضهم لحكم السماء ، ونبهوا على ما ينبغي أن تكون عليه الحال في التعامل مع اليهود من الحذر والحيطة وعدم الرفق بهم والاطمئنان لهم بعد أن فضحهم الله وأظهروا ما أظهروه من العداوة والمقت .

وفي الصراع مع القبائل العربية الأخرى ـ وهي الحلقة الثالثة من حلقات الصراع ـ نلمح في مراثي المسلمين لشهدائهم يوم الرجيع ويوم بئر معونة وجوهاً أخرى للخيانة والغدر وتنديداً بمواقف تلك القبائل الوثنية من الإسلام ودولته الناشئة ومعاداتها الصريحة له ومحاولتها وقف انتشاره في أرجاء الجزيرة . وفي حنين نجد العصبية القبلية واضحة في مراثي شعراء القبائل لقتلاهم . ونجد النمط التقليدي لا يزال سائداً وخاصة في رثاء بني سليم لدريد بن الصمة الجشمي .

وفي مؤتة ـ وهي تمثل الشرارة الأولى للاحتكاك بالدول المجاورة ـ يصور شعراء المسلمين في رثائهم لأمرائهم ما حل بهم من هزيمة ويمجدون صنيع هؤلاء الأمراء ويشيدون بهم وبصبرهم وحسن بلائهم واستقبالهم للموت في غير تردد أو خوف، وكأنهم القدوة التي ينبغي أن توضع أمام الفاتحين إذاما انساحوا بعد في الآفاق ينشرون دين الله في مشارق الأرض ومغاربها .

ويختار الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم إلى جواره ، وترتد بعض القبائل ـ وكانت لا تزال حديثة عهد بالإسلام ـ ويضطر أبو بكر ـ في أول ابتلاء سياسي له ـ إلى قتال هؤلاء المرتدين ، وينجح قواده في القضاء على حركة الردة وإعادة الأمن في وقت قصير وفي سرعة مذهلة . وعلى الرغم من كثرة من قتل في هذه الحركة ـ وخصوصاً يوم اليمامة ـ إلا أن ما وصلنا من رثاء لكلا الطرفين قليل. ولعل هذا مرتبط على نحو ما بسرعة القضاء على الردة وعودة المرتدين مرة أخرى إلي الإسلام بحيث يصبح من العار عليهم التغني بقتلاهم فيها و الإشارة بما صنعوه. على أن ما وصلنا من رثاء في تلك الفترة يمتلئ بالبكاء و التأبين علي

طريقة الجاهليين بالنسبة للمرتدين وهم أهل البادية . أما شعراء المسلمين فقد صوروا ما حل بالأمة من شدة ، واستغاث بعضهم بالخليفة ، وتغنى آخرون بتمجيد قتلاهم على ما نالوه من شرف الشهادة وعظيم الأجر . وهذا الرثاء الذي قيل في الردة يصور جزءاً من السياسة الداخلية للدولة . بينما نراه في حركة الفتوحات ـ التي أعقبت تلك الردة ـ يصور جزءاً من السياسة الخارجية ؛ حيث ارتطم المسلمون بدول أخرى مجاورة وأزالوا ممالك وقضوا على كثير من العروش . وكان الرثاء فى تلك الحركة سجلاً رائعاً للانتصارات التى حققوها والهزائم التى لحقت بهم والبطولات الفردية للشهداء والمثاليات التى قاتلوا عليها واستشهدوا من أجلها ، وما واجههم فى تلك البلاد من العقبات ، وما صاحبهم من الحنين الجارف والإحساس الحاد بالغربة وقرب الموت ، وما رأوه من المشاهد التى لم يألفوها فى بلادهم والأجواء التى لم يعتادوها . وقد أكثر الشعراء فى حركة الفتح من رثاء النفس والأعضاء ، وهى أشكال لم تستخدم على هذا النحو من قبل . ورثوا الأسرى والمفقودين ، واحتسبوا عند الله عز وجل موتاهم ، وعزوا أنفسهم بما ينتظرهم وينتظر الصابرين فى الآخرة .

وفى وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ـ وكانت وفاته محنة اختبر فيها المسلمون الأولون ـ نجد الرثاء يكثر كما لم يكثر من قبل في أحد سواه . وهو على كثرته يدور في محورين رئيسين . أحدهما يبين أثر موته ويعرض لما حدث للدولة الناشئة من اهتزاز، والثاني يرصد صفاته صلى الله عليه وسلم وخاصة ما اتصل منها بالجانب الخلقي والسلوكي ليكون نبراساً يهتدي به الناس ويقتدي به الخلفاء وأولو الأمر في قيادتهم للأمة من بعده . وقد حملت هذه المراثي بذور فن جديد سوف يظهر على أيدي المتأخرين ـ يتحول فيه الرثاء إلى نوع من المديح يعرف بالمديح النبوى .

وفي رثاء أبي بكر وعمر نجدهم يركزون على إبراز الصورة المثلى للحاكم المسلم والمنهج الصحيح الذي ينبغي أن يكون عليه . وذلك من خلال تأبينهم لهما

باتباع سنة النبي صلى الله عليه وسلم ، وحسن قيامهما بأمر الرعية ، واتصافهما بالعدل والرحمة والصلاح والتقوى ، وجمعهما بين اللين والشدة ووضع كل منهما في موضعه الصحيح ، وتحملها للشدائد ، وصدق قولهما ومطابقة العمل له ، ورفضهما المحاباة وحمل ذوى القربى على أعناق الناس . ونراهم أيضاً يظهرون ــ من خلال هذا التأبين ــ مدى مصاب الأمة فيهما ، ويكشفون النقاب عما وراء مقتل عمر رضي الله عنه من تدبير وحقد ، وما سوف يستتبعه من فتن لا تزال ـ على حد تعبير بعضهم ــ في بواتقها لم تُفَتَّحْ بعد .

شارك الرثاء بعد ذلك مشاركة قوية في تصوير الفتنة التي حلت بالأمة وأطيح فيها بالخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه . وقد عبروا في مراثيهم له ـ وهي كثيرة جداً ـ عن حالة السخط العام على الثائرين ، وأشاروا بإصبع الاتهام إلى من تخاذلوا أو قصروا في الدفاع عنه ، وتجرأ بعضهم فرمى علياً بذلك ، ورمى بعضهم الأنصار ، وتحفظ آخرون فلم يشتطوا في إلقاء التبعة على الصحابة وإن تساءلوا مع الباقين عما أريد بقتله . وكان هذا التساؤل يتردد على ألسنة الكثيرين ، وتختلف الإجابة عنه باختلاف المشارب والأهواء ، لكنها لا تختلف في أن مقتله رضي الله عنه كان كارثة فتحت على الأمة باب شر طويل .

وقد أبنوه بما هــو أهــل له من التأبين ليبرزوا فداحة المصاب فيه . وركزوا في تأبينهم له على اتصافه بما ينبغي أن يتصف به الحاكم المسلم من الزهد والتقوى وحب الخير والرحمة والقيام بأمر الله ولم يكفوا عن استفظاع ما حل به وكيف أن الثائرين قد حاصروه ومنعوا عنه الماء وحالوا بينه وبين الرعية ثم تطاولوا عليه فقتلوه ومزقوا جسده وهو قائم بالليل يتلو كتاب الله ويطلب ممن حوله أن يكفوا أيديهم ويستقبل الموت في تسليم . وكانوا يهدفون من وراء ذلك إثارة مشاعر الأمة للثأر له والتنديد بقاتليه .

وممــن ثار لــه عائشــة وطلحــة والزبير فكــانت معركة الجمل . ورأينا الرثاء

في تلك المعركة يحمل سمتين أساسيتين ؛ إحداهما الندم لتحول بأس المسلمين عن الأعداء الذين يتربصون بهم إلى صراع داخلي عنيف تحصد فيه رقاب بعضهم وفيهم خيار الصحابة والتابعين . والثانية هي الثورة على من أشعلوا نار القتال سواء في ذلك الثورة على الطرفين ، أو أحدهما دون الآخر ، أو أفراد معينين ، أو حتى النفس ، وهي في هذه الحالة الأخيرة ترتبط بالسمة الأولى ارتباط النتيجة بالأسباب . وقد كثر الرجز كثرة بالغة ــ في مراثي ذلك اليوم ــ وكان أكثره في الحض والإثارة والتنديد ، وكان يأخذ شكل مساجلة بين الطرفين المتصارعين .

وتعود مراثي عثمان لتظهر من جديد في الصراع بين علي ومعاوية إلا أنها تعود هذه المرة أكثر عمقاً وأشد تفصيلاً خاصة عند شعراء الشام ؛ فهي الأساس الذي ارتكزوا عليه في تمردهم على الخليفة وصراعهم ضده وضد أتباعه بالعراق. وفيها تكال الاتهامات صريحة ، ويكون نصيب علي كرم الله وجهه منها كبيراً . وإن برأه بعضهم . وكأنهم كانوا يتواصون باتهامه لإثارة المشاعر ضده وتسويغ الخروج عليه .

ولم يكتف الأمويون بمراثيهم لعثمان ، بل راحوا يرثون كثيراً من قتلاهم في صفين كعبيد الله بن عمر وعروة الدمشقي وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد وذي الكلاى الحميري . وفيها حاولوا إبراز بطولاتهم الفردية ومضوا في تبادل الاتهامات ورموا علياً وشيعته بالضلال وتوعدوا بالثأر منه . وعلى الجانب الآخر وجدنا أنصار علي يكثرون هم أيضاً من رثاء قتلاهم كعمار بن ياسر رضي الله عنه ومالك بن تيهان وأبي عمرة بن عمرو بن محصن ومالك بن حرى التميمي . ومراثيهم في جملتها تنتصر لعلي وتدافع عن حقه في الخلافة ، وتنال من معاوية وأنصاره وترميهم بنبذ يد الطاعة والشقاق وتمزيق الأمة إلى شيع وأحزاب طمعاً في الملك ورغبة في السلطان . وهناك شعراء ثاروا ــ في رثائهم ــ على الفريقين معاً. ومنهم من ثار على الفريق الذي ينتمي إليه لاعتبارات قبلية . ومنهم من رأى أنهم قد تورطوا في قتال لاناقة لهم فيه ولا جمل ، وأن هذا القتال لم يجر عليهم غير

الهلاك والدمار والفرقة والإحن .

وتخلف صفين حزباً من أعنف الأحزاب السياسية في تاريخ المسلمين ، هو حزب الخوارج . وينتقل الصراع إلى تلك الجهة الجديدة . ويروح ضحيته كثير من المسلمين وعلى رأسهم الخليفة الرابع علي بن أبي طالب رضي الله عنه . وبقدر ما افتخر الخوارج بقتلهم لعلي ورأوا فيه نصراً لهم ومجدوا قاتليه واعتبروا يوم مقتله عيداً لهم حزن أصحاب علي له حزناً شديداً ، بل فجعوا فيه ونددوا بقاتله وفضحوا دوافعه ورماه بعضهم هو أصحابه بالكفر ، وتتبعوا أثر قتله في نفوسهم وأبرزوا نتائجه الخطيرة على الخلافة وما آل إليه أمر المسلمين . وتأخذ بعض مراثيه رضي الله عنه وجهة مذهبية خالصة نلمح فيها بذوراً للتشيع بالمعنى الاصطلاحي .

وتتضح من المراثي التي قالها الخوارج في الفترة الأخيرة من الصدر بعض أوجه النشاط السياسي والمذهبي في الصراع الذي خاضوه ضد علي وشيعته ، وما كانوا يعتقدونه في أنفسهم من أنهم أصحاب حق خرجوا من أجله وباعوا أنفسهم في سبيله، وأن من عداهم من المسلمين ــ وعلى رأسهم حكامهم ــ أصحاب ضلال ، وأن الديار ديار حرب ، وقتال من فيها ــ هو في تصورهم ــ نوع من الجهاد . وأكثر هذه المراثي يدور حول النهروان وهو من أشهر أيامهم ، وقد صار عندهم ــ ككربلاء فيما بعد عند الشيعة ــ يوم حزن وندم يستمدون من ذكراه العزيمة ويتأسون بقتلاهم فيه .

ويلفت الانتباه في مراثي الصدر بصفة عامة مجموعة من الظواهر الأدبية والخصائص الفنية ؛ في الشكل العام ، واللغة ، والتصوير ، والخيال ، والموسيقى والأوزان. فمن الظواهر الأدبية المتعلقة بالشكل العام استخدام النقائض وكثرتها فيما قيل من رثاء يتصل بالصراع بين المسلمين وكفار قريش واليهود في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم في الصراع الذي دار بين علي ومعاوية عقب مقتل عثمان . وكلاهما يتصل اتصالاً وثيقاً بالحروب وما كان فيها من نصر أو هزيمة ، والأسباب التي أدت إليها ، والنتائج المترتبة عليها ، والمثل والغايات التي يعتنقها

كل من الجانبين المتصارعين واختلاف وجهات النظر في تفسير الأحداث . وقد أفادت هذه النقائض من الأسلوب القرآني في الجدل والحوار ومناقشة الخصم مناقشة تقوم على الإقناع بالحجة والبرهان ودحض الافتراءات وتصحيح المفاهيم الخاطئة وتوجيهها . وقد أفاد الرثاء في ظل ارتباطه بالنقائض ــ وكان هذا الارتباط في رأيي شيئاً جديداً ــ من أساليب النقض المختلفة كالقلب والمقابلة والتوجيه والتكذيب والتهديد والوعيد والتسليم أو الإقرار. واتجه ــ ربما للمرة الأولى ــ نحو آفاق جديدة يعلى فيها من جانب العقل ويفسح له داخل التجربة مكاناً أرحب مما كان يفسح له من قبل .

ومن الظواهر الأدبية المتعلقة بالشكل العام كذلك تأرجح هذا الرثاء بين القصائد والمقطوعات . وهو في الفترة الأولى ــ فترة النبي صلى الله عليه وسلم ــ أميل إلى القصائد منه إلى المقطوعات . بخلاف الفترة الثانية حيث غلبت المقطوعات في حركة الردة وفي الفتوحات وفي الصراعات الداخلية بعد مقتل عثمان وفي رثاء الخلفاء . وقد تأرجحت القصائد من ناحية الطول ؛ فأكثرها طولاً ما كان في الصراع مع قريش ورثاء النبي صلي الله عليه وسلم عند كبار الشعراء كحسان . وأغلب القصائد يتراوح طولها بين عشرة وعشرين بيتاً . أي أنها تميل إلى القصر أكثر من ميلها إلى الطول . ولعل هذا مرتبط بطبيعة الرثاء ؛ ففيه يجد الشاعر نفسه محصوراً في نطاق ضيق من ناحية المعاني والأفكار ، وقلما يقبل هذا الموضوع موضوعاً آخر معه في القصيدة الواحدة . من هنا كانت الوحدة الموضوعية ظاهرة لافتة فيه ، ومن هنا أيضاً كانت غلبة المقطوعات . وربما كان لمشاركة النساء والمغمورين من الشعراء ومن اضطرتهم المواقف إلى قول الشعر اضطراراً دور في قصر القصائد وكثرة المقطوعات ؛ فأغلب هؤلاء من ذوي النفس القصير . على أن القصر في حد ذاته وإيثار الأشكال ذات الحجم الصغير التي يسهل تداولها وانتشارها هو في تصوري ــ دون إغفال منا للاعتبارات السابقة ــ أثر من الآثار المباشرة لارتباط الرثاء بالصراعات السياسية والمذهبية .

وفي جانب اللغة نلاحظ تلك السهولة التي تشيع في مراثيهم ، وهي أثر من آثار

الإسلام الذي رقق المشاعر وهذب النفوس وخاطبهم ببيانه الواضح وخلبهم بألفاظه وأساليبه وتراكيبه ، حتى من ناصبوه العداء ، فلم يكونوا بمنأى عن التأثر به نتيجة الاحتكاك بأصحابه . ونلاحظ أن مراثي الفترة الأولى تجمع بين الجزالة والسهولة إلا أننا كلما مضينا أو تحرك بنا الزمن داخل تلك الفترة – على قصرها – ازدادت السهولة وضوحاً وأخذت الجزلة في الخفوت . ويقل هذا التأرجح في عهد الخلفاء الراشدين لتصبح السهولة ظاهرة عامة في مراثي الفتوح والنبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر . ويشتد وضوحها في مقتل عثمان وما أعقبه من صراع في الفتنة الكبرى بين علي ومعارضيه . مما يدل على أن تأثر الرثاء بالإسلام في هذه الناحية لم يجئ طفراً وإنما حدث بالتدريج .

وتشيع في مراثيهم كذلك – وهي أثر آخر من آثار الإسلام – الألفاظ والمعاني الإسلامية ، ويكثر الاقتباس من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف . وتكون الألفاظ الإسلامية معجماً خاصاً ، وهو معجم جديد. وبجانب هذا المعجم الإسلامي الجديد نجد الألفاظ الخاصة بالرثاء كالموت ومشتقاته ، والقبر واللحد والأجداث ، والكفن ، والدفن ، واليتم ، والثكل ، والترمل ، والجزع ، والتفجع ، والتلهف ، والصبر والاحتساب ، ويتصل بها على نحو ما ذكر الإصداء والهام والحظ والجد في مراثي الكفار ،و صلاة الإله والقدر والأجل والكتاب والبعث والآخرة والحساب والثواب والعقاب في مراثي المسلمين وبعض أهل الكتاب . ويتصل بها كذلك الدعاء بالسقيا وهو من الأساليب القديمة التي ظلت مستخدمة في صدر الإسلام وإن استبدل بعض شعراء المسلمين بها الدعاء بالمغفرة واستمطار الرحمات . ومن اللوازم القديمة التي ظلت سائدة – مع الدعاء بالسقيا – عدم البعد ، وهي تجيء في ثنايا الأبيات . وخطاب العين واستدرار الدموع منها ومطالبتها بالبكاء ، وهي تجيء غالباً في أول الرثاء ، ويشيع استخدام «ألا» في أول الأبيات ، ويفتتح بعضهم بها مراثيه افتتاحاً ، وهو افتتاح جديد من ناحية الشيوع وكثرة الاستخدام . والسخرية – وخاصة عند شعراء يهود – والتفسير بإعادة الكلمة

مضافة أو موصوفة بما يزيل اللبس عنها والإبهام ، والتكرار ، والقسم .

ومن بين العناصر البلاغية يبرز التشبيه بأنواعه المختلفة في تشكيل الصورة واستكمال أبعادها وهو يجيء غالباً في صورته البسيطة فيذكرون الأداء ، ويعمدون إلى إبراز وجه الشبه إن لم يكن مفهوماً بداهة ، ويستمدون من البيئة المحيطة بهم ، ويتحركون في إطار المحسوسات . وقد يعمدون إلى حذف الأداة وهو ما يعرف بالتشبيه البليغ ، وفيه يستوي الطرفان ويصير المشبه والمشبه به شيئاً واحداً . وقد تحذف الأداة كذلك ويضاف المشبه به إلى المشبه وهو ما يعرف بالتشبيه الإضافي ، وهو قليل .[١]

وتجيء الاستعارة في درجة تالية بعد التشبيه وهي تحتاج إلى درجة أقوى وأشد من القدرة على التخيل ؛ لأنه لا يكتفى فيها بالربط بين طرفين متقاربين أو متباعدين كالتشبيه وإنما تحتاج إلى عملية أخرى هي عملية الحذف . وواضح أن الاستعارة التصريحية أشد تعقيداً من المكنية ؛ لخلوها من ذكر المشبه وهو الأساس في السياق وعدم وجود ما يدل عليه . لذا فقد كان حظها من الانتشار أقل من شقيقتها ، وكان حظهما معاً أقل من التشبيه ، وفيهما تبدو الرغبة واضحة في التجسيم والتجسيد ، أو بالأحرى في النزوع نحو الحسية لا التجريد .

وإذا كانت كل استعارة كناية بالضروة ، فهناك كنايات أخرى قائمة بذاتها اعتمدوا عليها في تشكيل الصورة . وهي تقدم المعنى بطريقة غير مباشرة فتثير الذهن وتحرك فينا لذة الكشف وتعلي من قيمة التفكير داخل التجربة وتوهمنا – ونحن في إطار سياسي يصير فيه الإقناع بكل الوسائل الممكنة والمتاحة هدفاً – بصدق الشاعر ؛ حيث يجبهنا دائماً بالدليل ، فتدفعنا من حيث لا نشعر إلى الثقة فيه والانقياد له والتسليم . وهو مطلب غال عزيز لشعراء السياسة في شتى العصور.

ونلاحظ أن الصورة تتنوع وتأخذ أشكالاً عدة ؛ فهناك الصور البصرية وأغلب

صـورهـم من هذا النوع وهي تظهـر أكـثـر ما تظهـر في معـرض التـأبين والوصف - والصور التـقابليـة وهي تلي البصريـة من حيث الكثرة وتجيء غـالباً في مـعرض الإثارة والتوثيب . والصـور الذهنية والنفسـية وكلاهمـا قليل ، إلا أنهما على قلتـهما يقـومان بدور خطير في الإقناع والتأثير .

ونلاحـظ أيضاً أنهم قد يلجأون إلى التعبير الإشاري ــ أو الرمزي القريب ــ وتشيع في صورهم الألوان بشكل لافت ، وبعضها يوظف أو يكاد . ويبـدو الأثر القرآني في اقتـباسهم لبعض صـوره ، وهذا الاقتبـاس أكثر من أن يحصـى أو يعد، وفي صياغـتهم على منواله وخاصة في الصـور التقابلية والبصـرية وهما الشائعتان ، وإن لم يبلغـا مبلغه بطبيـعة الحال . ونراهم يتـصرفون ــ على تفاوت بينهم فيـما يقتـبسونه بـالزيادة حيناً ، والتفصـيل حيناً ، والاختصـار أو الإيجاز والحذف حيناً ثالثاً . وهذا الـتصرف لاحظناه من قبل في اقتبـاسهم للمعـاني والأفكار ، وهم في كل إنما يعربون عـن مدى شغـفهم بالقرآن وتغلغله في وجدانهم وافتتانهم به وبأساليبه وبيانه .

وفي جانب الموسيـقى والأوزان يتصدر البحر الـطويل جملة البحور المستـخدمة ، يليه الكامل فالبسيط فالوافر فالخفيف فالمتقارب فالرجز .ونراهم يميلون في استخدامهم للبحور إلى صورها التامة ، وهي بحور متنوعة ، منها ما يغلب عليه صفة الطول وبطء الحركة كـالطويل ، ومنها ما يغلب عليه السهـولة والسلاسة والليونة كالخـفيف ، ومنها بحور ذات تفعيلة واحدة ، ومنها ــ وهي الغالبة ــ بحور ذات تفعيلتين .

أما القـافيـة فقد جـاءت بأنواعهـا الثلاثة ، المتـواتر والمتدارك والمتراكـب ، مع تقدم المتدارك عـلى المتوتر بقليل ، وقلة المتـراكب ــ وهو أكثرها ثقلاً ــ بشكل مـلحوظ . وبلغت جملة الحروف المستخدمة في الروي سبعـة عشر حرفاً ، يتقدمها الراء فاللام ثم الدال فالباء فالنـون فالعين فالميم . وهناك قصائد ومقطوعـات كنا نلاحظ أنهـم يتصنعون لها الروي تصنعاً ليناسب اسم المرثي أو لقبه أو كنيته ، وبعض الروي فرض عليهـم فرضاً نتيجـة النقض ، لكن هذا وذاك لا ينفيان أن هناك حروفـاً شاع استخـدامها في الروي

لانسجامها مع طبيعة الرثاء وجو الحزن الذى يهيمن عليه ويسيطر على الشاعر فيه .
وكما نوعوا فى حروف الروى نوعوا كذلك في الحركات . وكلاهما يدل على الغنى والثراء . ومما أثروا به جانب الموسيقى داخل النص السجع ، وحسن التقسيم ، والجناس، والتردد ، والتكرار ، والرصف ، والإشباع ، والإرصاد . وبعضها يتصل بالتنغيم والإيقاع .

مصادر ومراجع

أولا : المصادر :

١ – الأخبار الطوال لأبي حنيفة أحمد بن داود الدينوري – ت . عبد المنعم عامر – مراجعة د . جمال الدين الشيال – مكتبة المثنى – بغداد – بدون تاريخ .

٢ – أسد الغابة في معرفة الصحابة – لعز الدين بن الأثير أبي الحسن علي بن محمد الجزري – ت . محمد إبراهيم البنا ومحمد أحمد عاشور – كتاب الشعب – القاهرة سنة ١٩٧٠م .

٣ – الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهلية والمخضرمين للخالديين أبي بكر محمد وأبي عثمان سعيد ابني هاشم – ت . السيد محمد يوسف – القاهرة جـ١ سنة ١٩٥٨م، جـ٢ سنة ١٩٦٥م .

٤ – الإصابة لابن حجر العسقلاني (ومعه كتاب الاستيعاب لابن عبد البر) – المكتبة التجارية الكبرى – القاهرة سنة ١٣٥٨ هـ / ١٩٣٩ م .

٥ – الأصمعيات لأبي سعيد عبد الملك بن قريب – ت . أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون – ط ٤ – دار المعارف – القاهرة سنة ١٩٧٦ م .

٦ – أصول الدين – عبد القاهر البغدادي – نشر مدرسة الإلهيات – استنبول سنة ١٣٤٦ هـ .

٧ – اعتقادات فرق المسلمين والمشركين – فخر الدين الرازي – مكتبة النهضة المصرية – القاهرة سنة ١٩٣٨م .

٨ – الأغاني لأبي الفرج الأصفاني – ت . لجنة من الأساتذة تحت إشراف د . محمد أبو الفضل إبراهيم – الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة – سنوات مختلفة . وط . الدار القديمة (فيما أشير إليه بها) .

٩ – الأمالي لأبي عبد الله محمد بن العباس اليزيدي – ط ١ – جمعية دائرة المعارف

العثمانية — حيدر أباد الدكن الهند — سنة ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨ م .

١٠ — الأمالي في لغة العرب لأبي علي القالي — دار الكتب العلمية — بيروت سنة ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م .

١١ — أمالي المرتضى — الشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي العلوي — ت.د. محمد أبو الفضل إبراهيم — ط ١ — دار إحياء الكتب العربية — القاهرة سنة ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٤ م .

١٢ — أنساب الأشراف للبلاذري — الجزء الأول ت . محمد حميد الله — دار المعارف — القاهرة — سنة ١٩٥٩م / القسم الثاني من الجزء الرابع ت . ماكس شلوسنجر — القدس سنة ١٩٣٨م / الخامس ت . غويتاين — القدس سنة ١٩٣٦ م / الحادى عشر — غريغزولد — سنة ١٩٨٣م . وسائر الأجزاء محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١١٠٣ تاريخ .

١٣ — البداية والنهاية — لأبي الفدا الحافظ ابن كثير الدمشقي — مكتبة المعارف (بيروت) ومكتبة النصر (الرياض) سنة ١٩٦٦م .

١٤ — بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب — محمود شكري الألوسي — شرحه وضبطه محمد بهجة الأثري — ط ٣ — دار الكتب الحديثة — القاهرة — بدون تاريخ .

١٥ — البيان والتبيين — لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ — ت . د . عبد السلام هارون — ط ٣ (مكتبة الخانجي — القاهرة سنة ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م .

١٦ — تاريخ الخلفاء للسيوطي — ط ٤ — المكتبة التجارية الكبرى بمصر سنة ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م .

١٧ — تاريخ دمشق — لابن عساكر (علي بن الحسن بن هبة الله) — مطبعة روضة الشام — دمشق سنة ١٣٣٢ هـ .

١٨ – تاريخ الرسل والملوك – لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري – ت . د . محمد أبو الفضل إبراهيم – ط ٤ – دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٩ م .

١٩ – تاريخ اليعقوبي – أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب الكاتب المعروف بابن واضح الإخباري – المكتبة المرتضوية – النجف سنة ١٣٥٨ هـ .

٢٠ – التعليقات والنوادر – لأبي علي هارون بن زكريا الهجري – ت . د . حمود عبد الأمير الحمادي – ط ٢ – دار الشئون الثقافية العامة «آفاق عربية» – بغداد سنة ١٩٨٧ م .

٢١ – التنبيه والإشراف – للمسعودي – عني بتصحيحه ومراجعته عبد الله إسماعيل الصاوي – دار الصاوي للطبع والنشر والتأليف – القاهرة – سنة ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م.

٢٢ – تهذيب التهذيب – لابن حجر العسقلاني – حيدر آباد الدكن – الهند سنة ١٣٢٥ هـ .

٢٣ – جمهرة أشعار العرب – لأبي زيد محمد بن أبي خطاب القرشي – المكتبة التجارية الكبري – القاهرة سنة ١٩٢٦ م .

٢٤ – حلية الأولياء وطبقات الأصفياء – لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني – مطبعة السعادة – القاهرة – سنة ١٩٣٣ م .

٢٥ – الحماسة – للبحتري – ضبطه وعلق حواشيه كمال مصطفى – المكتبة التجارية الكبرى – القاهرة سنة ١٩٢٩ م .

٢٦ – الحماسة البصرية – لصدر الدين علي بن أبي الفرج بن الحسن البصري – ت.عادل جمال سليمان (مخطوط) تحت رقم ٨٥٣ رسالة دكتوراه بالمكتبة العامة – جامعة القاهرة . وقد نشر الجزء الأول – وأحلنا عليه في المواضع المتصلة به – بالقاهرة سنة ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م عن لجنة إحياء التراث الإسلامي بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

٢٧ – الحيوان لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ – ت . د. عبد السلام محمد هارون – مكتبة الخانجي – القاهرة سنة ١٩٦٨ م .

٢٨ – الخراج – لأبي يوسف يعقوب بن إبراهيم – ط ٢ – المطبعة السلفية – القاهرة – سنة ١٣٥٢ هـ .

٢٩ – خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب – عبد القادر بن عمر البغدادي – ت.د.عبد السلام محمد هارون – دار الكاتب العربي للطباعة والنشر – القاهرة سنة ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م .

٣٠ – الدر المنثور في طبقات ربات الخدور – زينب بنت علي بن حسين بن عبيد الله العاملي – ط ١ – المطبعة الأميرية ببولاق – القاهرة سنة ١٣١٢ هـ .

٣١ – ديوان أبي الأسود الدؤلي – ت . عبد الكريم الدجيلي – ط ١ – شركة النشر والطباعة العراقية المحدودة – بغداد – سنة ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٤ م .

٣٢ – ديون أبي محجن – ت . لودوفيكوس – ابل – بريل سنة ١٨٨٧ م.

٣٣ – ديوان أمية بن أبي الصلت – ت . فردريك – ليبزج سنة ١٩١١ م .

٣٤ – ديوان حسان بن ثابت – ت.د. سيد حنفي حسنين – دار المعارف – القاهرة سنة ١٩٨٣م.

٣٥ – ديوان الحطيئة – ت .د. نعمان محمد أمين طه – ط ١ – مكتبة الخانجي بالقاهرة سنة ١٩٨٧ .

٣٦ – ديوان حميد بن ثور الهلالي – ت . عبد العزيز الميمنى – ط ٢ – الدار القومية للطباعة والنشر – القاهرة سنة ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٥ هـ .

٣٧ – ديوان الخوارج – جمعه وحققه د . نايف معروف – ط ١ – دار المسيرة – بيروت سنة ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .

٣٨ – ديوان شعر الخوارج – جمعة وحققه د. إحسان عباس – ط ٤ – دار الشروق –

بيروت سنة ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

٣٩ – ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني – ت .د. صلاح الدين الهادي – دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٨م.

٤٠ – ديوان عبد الله بن رواحة – جمعة وحققه د . حسن محمد باجوده – مكتبة دار التراث – القاهرة سنة ١٣٩٢ هـ/ ١٩٧٢ م.

٤١ – ديوان كعب بن مالك الأنصاري – ت . د. سامي مكي العاني – ط١ – مكتبة النهضة – بغداد سنة ١٣٨٦ هـ/ ١٩٦٦ م.

٤٢ – ديوان لبيد بن ربيعة – ت . د. إحسان عباس – الكويت – سنة ١٩٦٤م.

٤٣ – ديوان النابغة الجعدي – نشر عبد العزيز رباح – المكتب الإسلامي – دمشق سنة ١٩٦٤م.

٤٤ – ديوان الهذليين – القسم الأول ت. أحمد الزين ، والقسمان الثاني والثالث ت.محمود أبو الوفا – الدار القومية للطباعة والنشر – القاهرة سنة ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥م.

٤٥ – الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية للسهيلي (ومعه كتاب السيرة النبوية لابن هشام – ضبط طه عبد الرءوف سعد) – مؤسسة مختار للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة سنة ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.

٤٦ – الزينة في الكلمات الإسلامية (القسم الثاني) ت . عبد الله سلوم السامرائي (نشره بكتابه : الغلو والفرق الغالية في الحضارة الإسلامية) ط١ – دار واسط للنشر – بغداد سنة ١٩٨١ م.

٤٧ – سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب – لأبي الفوز محمد أمين البغدادي الشهير بالسويدي – ط ١ – دار الكتب العلمية – بيروت سنة ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

٤٨ – سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها – محمد ناصر الدين الألباني – ط ٤ – المكتب الإسلامي – بيروت سنة ١٤٠٥ هـ/١٩٨٥م .

٤٩ – سمط اللآلي – لأبي عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري – ت . عبد العزيز الميمنى – لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة سنة ١٩٣٦ م.

٥٠ – السيرة النبوية لابن كثير – مكتبة مصطفى البابي الحلبي – القاهرة سنة ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م .

٥١ – السيرة النبوية لابن هشام – ت . مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي – ط٢ – مكتبة مصطفى البابي الحلبي – القاهرة سنة ١٩٥٥ م.

٥٢ – شاعرات العرب – جمعه وحققه عبد البديع صقر – ط ١ – المكتب الإسلامي – بيروت سنة ١٣٨٧ هـ/١٩٦٧م .

٥٣ – شرح ديوان الحماسة لأبي زكريا يحيى بن علي الخطيب التبريزي – ت . محمد محيي الدين عبد الحميد – المكتبة التجارية الكبرى – القاهرة سنة ١٣٥٧ هـ/١٩٣٨م .

٥٤ – شرح ديوان الحماسة للمرزوقي – نشره أحمد أمين وعبد السلام هارون – لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة سنة ١٩٥٣ م .

٥٥ – شرح ديوان الخنساء بالإضافة إلى مراثي ستين شاعرة من شواعر العرب – دار التراث – بيروت – سنة ١٣٨٨ هـ – / ١٩٦٨ م .

٥٦ – شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد – ت . محمد أبو الفضل إبراهيم – ط٢ –دار إحياء الكتب العربية – القاهرة سنة ١٣٨٥ هـ/ ١٩٦٥ م .

٥٧ – شعر ابن مفرغ الحميري – جمعه د. داود سلوم – مكتبة الأندلس – بغداد سنة ١٩٦٨م.

٥٨ – شعراء إسلاميون – جمعة وحققه د. نوري حمودي القيسي – ط ٢ – مكتبة

النهضة العربية – بيروت – سنة ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٤م.

٥٩ – شعراء مقلون – جمعه وحققه د. حاتم صالح الضامن – ط ١ – مكتبة النهضة العربية – بيروت – سنة ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧ م.

٦٠ – شعر الدعوة الإسلامية في عهد النبوة والخلفاء الراشدين – جمعه وحققه عبد الله بن حامد الحامد – الرئاسة العامة للكليات والمعاهد العلمية – الرياض سنة ١٣٦١ هـ/ ١٩٧١م.

٦١ – شعر عبد الله بن الزبعرى – ت .د. يحيي الجبوري – ط ٢ – دار القلم للنشر والتوزيع – الكويت سنة ١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٥ م.

٦٢ – شعر النعمان بن بشير الأنصاري – ت . د . يحيى الجبوري – ط٢ – دار القلم للنشر والتوزيع – الكويت سنة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م.

٦٣ – الشعر والشعراء لابن قتيبة – ت . أحمد محمد شاكر – ط ٣ – دار التراث العربي – القاهرة سنة ١٩٧٧م.

٦٤ – الصارم المسلول على شاتم الرسول لابن تيمية – ت . محمد محيي الدين عبد الحميد – دار الكتب العلمية بيروت سنة ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

٦٥ – صحيح الإمام مسلم بشرح الإمام النووي – المطبعة المصرية ومكتبتها – القاهرة سنة ١٣٤٩ هـ.

٦٦ – طبقات فحول الشعراء – لمحمد بن سلام الجمحي – ت . محمود محمد شاكر – مطبعة المدني – القاهرة سنة ١٩٧٤ م.

٦٧ – الطبقات الكبرى لابن سعد – دار صادر للطباعة والنشر ، دار بيروت للطباعة والنشر – بيروت سنة ١٣٧٦ هـ/ ١٩٥٧م.

٦٨ – الطرائف الأدبية – صححه وخرجه وعارضه على النسخ المختلفة وذيله عبد العزيز الميمني – لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة سنة ١٩٣٧م.

٦٩ – العقد الفريد – لأبي عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه – وضع فهارسه محمد فؤاد عبد الباقي و محمد رشاد عبد المطلب – لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة سنة ١٣٧٢ هـ / ١٩٥٣ م .

٧٠ – العمدة في صناعة الشعر ونقده – لابن رشيق القيرواني – ت .محمد محيي الدين عبد الحميد – ط ١ – المكتبة التجارية الكبرى – القاهرة سنة ١٩٥٧م.

٧١ – عيار الشعر – لمحمد بن أحمد بن طباطبا العلوي – ت . د. محمد زغلول سلام– منشأة المعارف بالإسكندرية سنة ١٩٨٠م .

٧٢ – عيون الأخبار – لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري – دار الكتب– القاهرة سنة ١٩٢٥ م .

٧٣ – فتوح البلدان – لأبي الحسن البلاذري – مراجعة رضوان محمد رضوان – دار الهلال و مكتبتها – بيروت سنة ١٣٩٨ هـ – ١٩٧٨ م .

٧٤ – الفرق بين الفرق – عبد القاهر البغدادي – ت . محمد محيي الدين عبد الحميد – دار التراث ـ القاهرة – بدون تاريخ .

٧٥ – فرق الشيعة للنوبختي – ت.د.عبد المنعم الحنفي ـ ط ١ ـ دار الرشاد ـ القاهرة ـ سنة ١٤١٢هـ / ١٩٩٢ م .

٧٦ – الفصل في الملل والأهواء والنحل – لابن حزم (وبهامشه كتاب الملل والنحل للشهرستاني) – صححه عبد الرحمن خليفة – مكتبة السلام العالمية – القاهرة سنة ١٣٤٨هـ .

٧٧ – الفهرست لابن النديم – نشر فلوجل – ليبزج – سنة ١٨٧٢ م .

٧٨ – القاموس المحيط – لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزبادي – المطبعة الحسينية– القاهرة سنة ١٣٣٠ هـ .

٧٩ – الكامل – لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد – ت . د . محمد أبو الفضل

إبراهيم والسيد شحاتة – دار نهضة مصر للطبع والنشر – القاهرة – بدون تاريـــخ .

٨٠ – الكامل في التاريخ – لعز الدين ابن الأثير الجزري – صحح أصوله الأستاذ عبد الوهاب النجار – إدارة الطباعة المنيرية – القاهرة سنة ١٣٥٦ هـ .

٨١ – لسان العرب – لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور المصرى – ت . عبد الله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي – دار المعارف –القاهرة سنة ١٩٧٩ م .

٨٢ – متن البخاري بحاشية السندي – لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري – دار إحياء الكتب العربية – القاهرة – بدون تاريخ .

٨٣ – مجمع الأمثال – لأبي الفضل أحمد بن محمد النيسابوري المعروف بالميداني– المطبعة البهية المصرية – القاهرة بدون تاريخ .

٨٤ – مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة – محمد حميد الدين الحيدر آبادي – لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة سنة ١٩٤١ م.

٨٥ – المحاسن والمساوئ لإبراهيم بن محمد البيهقي – عني بتصحيحه السيد محمد بدر الدين النعساني الحلبي – طبع بمطبعة السعادة – القاهرة سنة ١٣٢٥هـ / ١٩٠٦م.

٨٦ – المحبر – لأبي جعفر محمد بن حبيب – ت .د. إيلزه ليختن ستيتر – جمعية دائرة المعارف العثمانية – حيدر آباد الدكن – سنة ١٣٦١هـ / ١٩٤٢ م .

٨٧ – مختارات شعراء العرب لابن الشجري – ت . علي محمد البجاوي – دار نهضة مصر للطبع والنشر – القاهرة سنة ١٩٧٥ م .

٨٨ – مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودى – ت . محمد محيي الدين عبد الحميد – ط ٤ – المكتبة التجارية الكبرى – القاهرة سنة ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م.

٨٩ – المعارف لابن قتيبة – ت .د . ثروت عكاشة – ط ٢ – دار المعارف – القاهرة

سنة ١٩٦٩ م .

٩٠ – معجم الأدباء – ياقوت الحموي – دار إحياء التراث العربي – بيروت سنة ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م .

٩١ – معجم البلدان – ياقوت الحموي – ت . فريد عبد العزيز الجندي – دار الكتب العلمية – بيروت سنة ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م .

٩٢ – معجم الشعراء – لأبي عبيد الله محمد بن عمران بن موسى المرزباني – ت . عبد الستار أحمد فراج – دار إحياء الكتب العربية – القاهرة سنة ١٣٧٩هـ/ ١٩٦٠م .

٩٣ – معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع – لأبي عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري – ت . مصطفى السقا – لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة سنة ١٣٧١ هـ/ ١٩٥١ م .

٩٤ – المغازي – لمحمد بن عمر بن علي الواقدي – طبع كلكتا – الهند – سنة ١٨٥٥م .

٩٥ – المفضليات – للمفضل بن محمد بن يعلى الضبي – ت . أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون – ط ٧ – دار المعارف – القاهرة سنة ١٩٨٣ م .

٩٦ – مقاتل الطالبيين – أبو الفرج الأصفهاني – ت . السيد أحمد صقر – دار إحياء الكتب العربية – القاهرة – سنة ١٣٦٨ هـ/ ١٩٤٩م .

٩٧ – مقالات الإسلاميين واختلاف المسلمين – أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري – ت . محمد محيي الدين عبد الحميد – ط ٢ – مكتبة النهضة المصرية سنة ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م .

٩٨ – مقدمة ابن خلدون – عبد الرحمن محمد بن خلدون – ت . د. علي عبد

الواحد وافي – ط١ – لجنة البيان العربي – القاهرة سنة ١٣٧٨ هـ / ١٩٥٨م.

٩٩ – مناقب آل طالب للمازندراني – قام بتصحيحه وشرحه ومقابلته على عدة نسخ خطيه لجنة من أساتذة النجف الأشرف – المكتبة الحيدرية – النجف سنة ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٦ م.

١٠٠ – المؤتلف والمختلف – للآمدي – مكتبة القدسي – القاهرة سنة ١٣٥٤هـ.

١٠١ –النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبني هاشم – تقي الدين المقريزي – ت.د.حسين مؤنس – دار المعارف – القاهرة سنة ١٩٨٨ م.

١٠٢ – نسب قريش – لأبي عبد الله المصعب بن عبد الله الزبيري – ت. ليڤي بروڤنسال – ط٣ – دار المعارف – القاهرة سنة ١٩٨٢ م.

١٠٣ – نهاية الأرب في فنون الأدب – لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري– المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر القاهرة–بدون تاريخ.

١٠٤ – الوافي بالوفيات – لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي – نشر: ريتر – استنبول سنة ١٩٣١م.

١٠٥ – الوحشيات وهو الحماسة الصغرى – لأبي تمام – ت. عبد العزيز الميمني وزاد في حواشيه محمود محمد شاكر – دار المعارف – القاهرة سنة ١٩٦٣م.

١٠٦ – وفيات الأعيان – لابن خلكان – مطبعة السعادة – القاهرة سنة ١٩٤٨م.

١٠٧ – وقعة صفين – نصر بن مزاحم المنقري – ت. عبد السلام محمد هارون – ط٣ – المؤسسة المصرية الحديثة للطباعة والنشر – القاهرة سنة ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

ثانيا : المراجع :

١ – أبحاث في السيطرة العربية والتشيع والمعتقدات المهدوية في ظل خلافة بني أمية– فان فلوتن – ت . د. إبراهيم بيضون . نشره في كتابه : « الدولة الأموية والمعارضة » ط ٢ – المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع – بيروت – سنة ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥م .

٢ – اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري – د . محمد مصطفى هدارة – المكتب الإسلامي – دمشق سنة ١٤٠١ هـ/ ١٩٨١ م .

٣ – أدب الخوارج في العصر الأموي – د . سهير القلماوي – لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة سنة ١٩٤٥ م .

٤ – أدب الشيعة إلى نهاية القرن الثانى الهجري – د . عبد الحسيب طه حميدة – الزهراء للإعلام العربي – القاهرة سنة ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م .

٥ – أدب العرب – مارون عبود – دار الثقافة – بيروت سنة ١٩٦٠ م .

٦ – الأدب العربي في الجاهلية والإسلام – عمر رضا كحالة – المطبعة التعاونية بدمشق سنة ١٣٩٢ هـ/ ١٩٧٢م .

٧ – الأدب في عصر النبوة والراشدين – د . صلاح الدين الهادي – ط ٣ – مكتبة الخانجي بالقاهرة – سنة ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧م .

٨ – الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة – د. مصطفى سويف – ط ١ – دار المعارف – القاهرة سنة ١٩٥١م .

٩ – الإسلام والحضارة العربية – محمد كرد علي – لجنة التأليف والترجمة والنشر– القاهرة سنة ١٩٥٩م .

١٠ –الأصوات اللغوية – د.إبراهيم أنيس – مكتبة نهضة مصر – القاهرة سنة ١٩٤٧م
.

١١ – الأعلام – خير الدين الزركلي – ط٥ – دار العلم للملايين – بيروت سنة ١٩٨٠م.

١٢ – بناء لغة الشعر – چون كوين – ت .د. أحمد درويش – الهيئة العامة لقصور الثقافة – القاهرة – سنة ١٩٩٠م .

١٣ – تاريخ آداب العرب – مصطفى صادق الرافعي – مطبعة الاستقامة – القاهرة سنة ١٩٤٥م.

١٤ – تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بني أمية – كارلو نالينو – ط٢ –دار المعارف – القاهرة – سنة ١٩٤٥م .

١٥ – تاريخ آداب اللغة العربية – جرجي زيدان – طبعة جديدة راجعها وعلق عليها الدكتور شوقي ضيف – دار الهلال –القاهرة – بدون تاريخ .

١٦ – تاريخ الأدب العربي – ريچيس بلاشير – ت . إبراهيم كيلاني – دار الفكر – بيروت سنة ١٩٥٦م .

١٧ – تاريخ الأدب العربي – كارل بروكلمان – ت . عبد الحليم النجار – ط٥ – دار المعارف ـ القاهرة سنة ١٩٨٣م .

١٨ – تاريخ الأدب العربي في صدر الإسلام والعصر الأموي – السباعي بيومي ط٢– القاهرة سنة ١٩٣٥م .

١٩ – تاريخ الإسلام – حسن إبراهيم حسن – ط ٤ – مكتبة النهضة المصرية – القاهرة سنة ١٩٥٨م .

٢٠ – تاريخ التمدن الإسلامي – جرجي زيدان – طبعة جديدة راجعها وعلق عليها د. حسين مؤنس ـ دار الهلال – القاهرة سنة ١٩٦٨م .

٢١ – تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية – يوليوس فلهوزن – ت . محمد عبد الهادي أبو ريدة – لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة سنة ١٩٥٨م .

٢٢ – تاريخ الشعر السياسي إلى منتصف القرن الثاني – د . أحمد الشايب –ط٥– دار القلم – بيروت سنة ١٩٧٦ م .

٢٣ – تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري – د. نجيب محمد البهبيتي – دار الكتب المصرية – القاهرة سنة ١٩٥٠ م .

٢٤ – تايخ العرب – فيليب حتى – ت . محمد مبروك نافع – مطبعة العالم العربي – القاهرة سنة ١٩٤٩م .

٢٥ – تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام – د . محمد علي أبو ريان – دار المعرفة الجامعية – الإسكندرية – سنة ١٩٨٦م .

٢٦ – تاريخ النقائض في الشعر العربي – د. أحمد الشايب – مكتبة النهضة المصرية – القاهرة سنة ١٣٦٥هـ / ١٩٤٦م .

٢٧ – تاريخ اليهود في بلاد العرب – إسرائيل ولفنسن – مطبعة الاعتماد بمصر سنة ١٩٢٧م.

٢٨ – التركيب اللغوي للأدب – د. لطفي عبد البديع – مكتبة نهضة مصر – القاهرة سنة ١٩٢٧م .

٢٩ – تفسير الألفاظ الدخيلة في اللغة العربية مع ذكر أصلها بحروفه – طوبيا العنيسي – دار العرب – القاهرة سنة ١٩٦٥ م .

٣٠ – التفسير النفسي للأدب – د. عز الدين إسماعيل – دار المعارف – القاهرة سنة ١٩٦٣م.

٣١ – حديث الأربعاء – د.طه حسين – دار المعارف – القاهرة سنة ١٩٥٧ م .

٣٢ – حركات التجديد في الأدب العربي – أبحاث ومقالات لمجموعة من الدارسين– دار الثقافة للطباعة والنشر – القاهرة سنة ١٩٧٩ م .

٣٣ – الحركات السرية في الإسلام رؤية عصرية – د. محمود إسماعيل – مؤسسة روز اليوسف – القاهرة سنة ١٩٧٣ م .

٣٤ – حركة الحياة الأدبية بين الجاهلية والإسلام – د. سعيد حسين منصور – دار المعارف بمصر سنة ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م .

٣٥ – حسان بن ثابت – د. محمد طاهر درويش – ط ٢ – دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٦م.

٣٦ – الحضارة الإسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الأجنبية – ڤون كريمر – ت . مصطفى طه بدر – دار الفكر العربي ـ القاهرة سنة ١٩٤٧ م .

٣٧ – الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام – د. محمد عبد المنعم خفاجي –ط١– دار الكتاب اللبناني – بيروت سنة ١٩٧٣ م .

٣٨ – الحياة الأدبية في مكة في القرن الأول الهجري – د . زكي عابدين غريب ط١ – دار المعارف – القاهرة سنة ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .

٣٩ – الحياة الأدبية في البصرة إلى نهاية القرن الثاني الهجري –د. أحمد كمال زكي –ط١– دار الفكر بدمشق – سنة ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م .

٤٠ – حياة الشعر في الكوفة إلى نهاية القرن الثاني للهجرة – د.يوسف خليف – دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ـ القاهرة سنة ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م .

٤١ – الخلافة – توماس آرنولد – ت . جميل معلى – دار اليقظة العربية – دمشق سنة ١٩٤٦م.

٤٢ – الخلافة ونشأة الأحزاب الإسلامية – د. محمد عمارة – دار الهلال – القاهرة سنة ١٩٨٣ م .

٤٣ – الخوارج والشيعة – يوليوس فلهوزن – ت . عبد الرحمن بدوي – مكتبة النهضة المصرية – القاهرة – سنة ١٩٥٨م .

٤٤ – دراسات في الأدب الإسلامي – د. محمد أحمد خلف الله – لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة سنة ١٩٤٧م .

٤٥ – دراسات في نقد الأدب العربي من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث – د. بدوي طبانة – مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة سنة ١٩٥٤م .

٤٦ – دلالة الألفاظ – د . إبراهيم أنيس – مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة سنة ١٩٧٦م.

٤٧ – الرثاء – د. شوقي ضيف (سلسلة فنون الأدب العربي) ط ٣ – دار المعارف– القاهرة سنة ١٩٧٩م .

٤٨ – رؤية جديدة في دراسة الأدب العربي في عصر صدر الإسلام – د. سعيد حسين منصور – مؤسسة العهد – الدوحة – قطر سنة ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

٤٩ – شعر الرثاء في صدر الإسلام – د. مصطفى عبد الشافى الشورى – دار المعارف – القاهرة – سنة ١٩٨٦م .

٥٠ – الشعر العربي من الجاهلية حتى نهاية القرن الأول الهجري – النشأة والتطور–د. محمد مصطفى هدارة – ط١ – دار المعارف – القاهرة سنة ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م .

٥١ – شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام – د. النعمان عبد المتعال القاضي– الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة سنة ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م .

٥٢ – الشعر واللغة ـ د. لطفي عبد البديع ـ مكتبة نهضة مصر ـ القاهرة سنة ١٩٦٩م .

٥٣ – الشعر والنغم ـ د.رجاء عيد ـ دار الثقافة للطباعة والنشر – القاهرة سنة ١٩٧٥م.

٥٤ – الصيغ البديعي في اللغة العربية – د . أحمد إبراهيم موسى – دار الكاتب العربي – القاهرة سنة ١٩٦٩م .

٥٥ – الصورة الأدبية – د. مصطفى ناصف – مكتبة مصر – القاهرة سنة ١٩٥٨م.

٥٦ – الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغة – د. جابر أحمد عصفور – دار المعارف سنة ١٩٨٠م.

٥٧ – الصورة والبناء الشعري – د. محمد حسن عبد الله – دار المعارف – القاهرة سنة ١٩٨١م.

٥٨ – صور ملهمة من واقع المجتمع العربي – د. حسن عون – دار المعارف – القاهرة سنة١٩٦٧م.

٥٩ – عبقرية الإمام – عباس محمود العقاد – دار المعارف – القاهرة سنة ١٩٦٤م.

٦٠ – العروض والقافية دراسة في التأسيس والاستدراك – محمد العلمي – ط ١– دار الثقافة – الدار البيضاء – سنة ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٣م .

٦١ – العصر الإسلامي – د. شوقي ضيف – ط ٤ – دار المعارف – القاهرة – بدون تاريخ.

٦٢ – عضوية الموسيقى في النص الشعري – د. عبد الفتاح صالح نافع – ط ٢ – مكتبة المنار – الأردن سنة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .

٦٣ – العقيدة والشريعة في الإسلام – أجناس جولد تسيهر – ت . محمد يوسف موسى وعبد العزيز عبد الحق وعلي حسن عبد القادر – دار الكاتب المصري –القاهرة – سنة ١٩٤٦م .

٦٤ – الغلو والفرق الغالية في الحضارة الإسلامية – د. عبد الله سلوم السامرائي–ط١– دار واسط للنشر – بغداد سنة ١٩٨٢م .

٦٥ – الفتنة الكبرى – د. طه حسين – دار المعارف – القاهرة سنة ١٩٨٠م.

٦٦ – فجر الإسلام – أحمد أمين – لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة سنة ١٣٤٧هـ/١٩٢٨م.

٦٧ – الفكر السياسي في الإسلام شخصيات ومذاهب – د. علي عبد المعطي و د. محمد جلال أبو الفتوح شرف – دار المعرفة الجامعية – الإسكندرية سنة ١٩٨٤م.

٦٨ – الفن ومذاهبه في الشعر العربي – د. شوقي ضيف – ط ١٠ – دار المعارف– القاهرة سنة ١٩٧٨م.

٦٩ – في الشعر السياسي – د. عباس الجراري – ط١ – دار الثقافة – الدار البيضاء سنة ١٩٧٤م.

٧٠ – قضايا الشعر في النقد العربي – د. إبراهيم عبد الرحمن – مكتبة الشباب – القاهرة سنة ١٩٧٧م.

٧١ – قضايا النقد الأدبي المعاصر – د. محمد زكي العشماوي – الهيئة المصرية العامة للكتاب بالإسكندرية سنة ١٩٧٥م.

٧٢ – القيم الخلقية في الخطابة العربية – د. سعيد حسين منصور – ط ٣ – منشورات جامعة قاريونس – بنغازي – سنة ١٩٩١م.

٧٣ – المجتمعات الإسلامية في القرن الأول – د. شكري فيصل – ط٣ – دار العلم للملايين – بيروت سنة ١٩٧٣م.

٧٤ – مجتمع المدينة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم – ت . عبد الله بن عبد العزيز بن إدريس – الناشر : عمادة شئون المكتبات بجامعة الملك سعود – الرياض سنة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

٧٥ – مختصر تاريخ الشيعة – أحمد عارف الزين – صيدا – سنة ١٩١٤م.

٧٦ – المديح النبوي في القرن الأول الهجري – د. علي صافي حسنين – المجلس

الأعلى للشئون الإسلامية – القاهرة سنة ١٣٨٧هـ / ١٩٦٨م .

٧٧ – معاوية بن أبي سفيان – عباس محمود العقاد – دار الهلال – بدون تاريخ .

٧٨ – مقدمة في نظرية الأدب – تيري إيجلتون – ت . أحمد حسان – الهيئة العامة لقصور الثقافة – القاهرة سنة ١٩٩١م .

٧٩ – ميزان الذهب في صناعة شعر العرب – السيد أحمد الهاشمي – المكتبة التجارية الكبرى بمصر – بدون تاريخ .

٨٠ – نظام الخلافة بين أهل السنة والشيعة – د. مصطفى حلمي – ط ١ – دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع – الإسكندرية – سنة ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م .

٨١ – نظرية المعنى في النقد العربي – د. مصطفى ناصف – ط٢ – دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة – سنة ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .

٨٢ – النظم الإسلامية – حسن إبراهيم حسن وعلي إبراهيم حسن – لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة سنة ١٩٣٩ م .

المحتـــوى